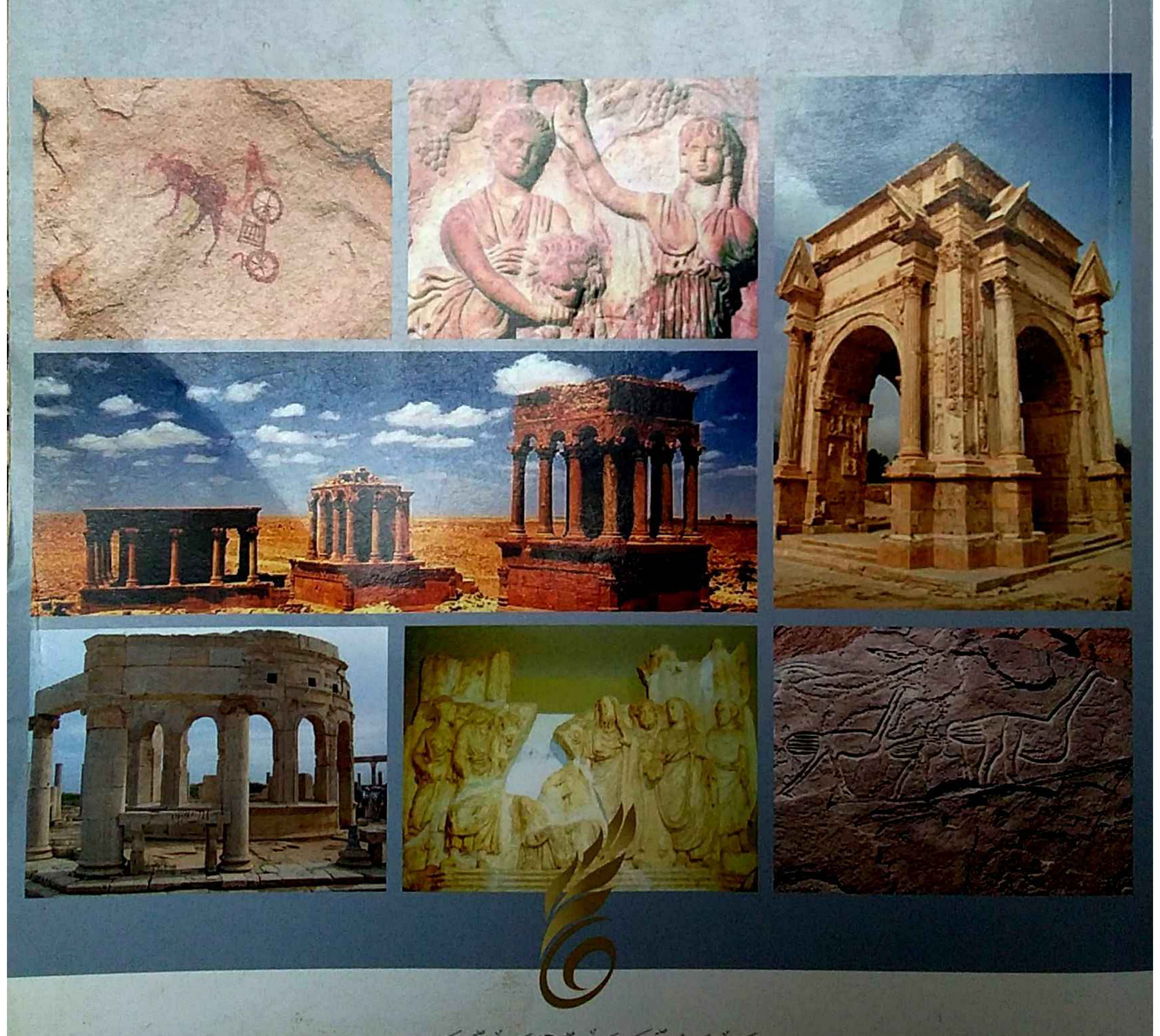
د. عبدالعزيز الصويعي

تاريخ الحضارة الليبية القديمة



وزارة الثقافة والمجتمع المدني

CULTURE & CIVIL SOCIETY MINISTRY

WWW.CULTUREMINISTRY.LY

د. عبد العزيز الصويعي

تاريخ الحضارة الليبية القديمة

وزارة الثقافة والمجتمع المدني

❖ د. عبدالعزيز الصويعي

تاريخ الحضارة الليبية القديمة

❖ الطبعة الأولى: يناير 1434 هجري (2013) ميلادي.
رقم الإيداع المحلي: 2012/681 دار الكتب الوطنية بنغازي
رقم الإيداع الدولي: ردمك 8-580-25-9959-978 ISBN



ليبيا

e-mail: info@culture.ly

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

صدق الله العظيم

(النحل 72)

الإهداء

إلى من لقّنني أولى قصار السور.. ورسّخ في قلبي حبّ كتاب الله العزيز منذ نعومة أظافري..

إلى روح خالي: الفقيه الحاج أحمد (الرجباني) ابن الفقيه الحاج عبد الله بن محمد ابن الولي الصالح والشيخ الجليل سيدي صالح التواتي،

نفعنا الله ببركاتهم جمياً..

مقدمة

توطئة:

«من ليبيا يأتي الجديد» هذا القول الشهير الذي أطلقه الكتّاب الكلاسيكيون الإغريق منذ بضعةٍ أو عددٍ من القرون قبل الميلاد، لا يمكننا -إلى حد الآن- أن ننسبه إلى أحد بعينه، رغم أن بعضهم ينسبه إلى ''أرسطو''. إلاّ أن الواقع التاريخي يُثبت أن قدماء الإغريق ذكروا ليبيا والليبيين وحضارتهم الرائدة بعدة صيغ تتفق والمعنى العام لهذا القول: ''من ليبيا يأتي الجديد''، فقد تحدث عنها ''هوميروس'' الشاعر صاحب ''الأوديسا والإلياذة''، وكتب عنها «هيرودوتس» المؤرخ والجغرافي، وذكرها ''أرسطو'' الفيلسوف.. وقد يندرج انبهار الإغريق بحضارة قدماء الليبيين ضمن ما قرأوه وسمعوه وشاهدوه من غرائب وعجائب تجود بها الأرض الليبية دون غيرها، وخصال انفرد بها الليبيون عن غيرهم من شعوب المناطق المجاورة.. ففي ليبيا ظهر نبات ''السلفيوم'' الفريد من نوعه.. وفي ليبيا أكشفت أول آلة موسيقية في العالم.. وفي ليبيا عُرفت العربات التي تجرها الخيول الأربعة.. وفي ليبيا اشتهرت المعبودات بأسمائها أثناء رحلة البحث عن خالق هذا الكون.. وفي ليبيا أقدم الرسوم الجدارية الكهفية.. وفي ليبيا اكتشفت أقدم مومياء محنطة في العالم.. وفي ليبيا كثير من المقومات الحضارية الرائدة التي جعلت الإغريق يطلقون مقولة ''من ليبيا يأتي الجديد''.. فكان لنا ذلك حافزاً ومنطلقاً أساسياً لخوض غمار هذه المقولة وشرحها بقدر ما أتاحته لنا المصادر التاريخية.. وقد قمنا خلال السنتين الماضيتين بالتركيز عليها ومحاولة إثارتها عبر محاضرات تحمل نفس العنوان: ''من ليبيا يأتي الجديد'' لاحظنا من خلالها اهتماماً كبيراً من قبل العديد من المختصين خصوصاً الشباب منهم، مما دفعنا إلى كتابة هذا البحث تحت نفس المسمى لعلّه يجد الاهتمام ومواصلة البحث في إطار إعادة قراءة تاريخ ليبيا القديم وكتابته من جديد.

تمهيد:

في زمن انهيار الحضارة العربية بسبب الأحداث التاريخية التي توالت على الوطن العربي بدءاً بالحملات الصليبية على الشرق العربي الإسلامي، ومروراً بما عُرف بحركة الاسترداد المسيحي، والاجتياح المغولي وتحطيم الدولة العباسية في الشرق، وسقوط الأندلس في أيدي الفرنجة في الغرب، وبداية الكشوفات البرتغالية والإسبانية ثم الأوروبية عموماً وانتزاع مصادر الاقتصاد والتجارة والثراء من أيدي العرب، وحركة الاستعمار الأوروبي المنتهية عسكرياً عقب الحرب العالمية الثانية. ووصولاً إلى الغزو الثقافي الذي تحمله اليوم رياح تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في إطار ما يُعرف بالعَولمة.

عبر هذه الفترة التي دامت أكثر من ثمانية قرون، فقدَ أبناءُ الأمة العربية مقوّمات حضارتهم التي تركّزت دعائمُها منذ زمن الأكاديين والعموريين في سومر وبابل وآشور على ضفاف دجلة والفرات، وقدماء المصريين زمن الفراعنة على ضفاف النيل، والكنعانيين في سوريا والشام وفلسطين، وقدماء الليبيين زمن الجرمنتيين والقرطاجيين والنوميديين في الشمال الأفريقي. إلى ظهور الإسلام وانتشاره شرقاً وغرباً وقيام الإمبراطورية العربية الإسلامية من الصين إلى إسبانيا. وما أضافته تلك الإمبراطورية للإنسانية من عناصر حضارية، علمية وثقافية، كانت قبلةَ شعوب العالم، وسبباً مباشراً في إرساء نهضة إسلامية قوامها التسامح والإخاء والسلام، ونشر المعرفة والعلوم بكل فروعها بعيداً عن الأنانية والتعصب وحب الذات. إلاّ أن الغربيين المنتعشين بأوكسجين العرب المسلمين والمتتلمذين في مدارس الشام ومصر والأندلس وصقلية وشمال أفريقيا وغيره، بعدما اشتدت سواعدهم تنكّروا لأساتذتهم، فانطبق عليهم قول مالك بن فهم الأزدي لابنه سُليمة (أعلّمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعدُه رماني). فنسبوا العلومَ لغير أهلها، ولم يكتفوا بذلك، بل دفعتهم غريزةُ التملّك وحب السيطرة والاحتكام للقوة إلى تنصيب

أنفسهم حرّاساً على الشعوب التي استعمروها في السابق وجعلوها تابعةً لهم اقتصادياً وثقافياً، مما فسح أمامهم المجال لتأويل تاريخ المنطقة وتراثها الحضاري بالأسلوب الذي رأوه متماشياً مع أهدافهم ومحققاً لمآربهم ومكرّساً لسيطرتهم على مقدرات تلك الشعوب.

ولم يكن المغربُ العربي استثناءً من ذلك. فقد حاول الاستعمار الفرنسي والإسباني والإيطالي إخراجَه من دائرته المغاربية والعربية والإسلامية، وقذفوا بتاريخه وحضارته وثقافته خارج تلك الدائرة، وذلك من أجل خلق نوع من التمايز بين أبنائه. مركّزين بالخصوص على الأصول والانتماءات الأولى من حيث السلالات البشرية أنثروبولوجياً، وأصول اللغات والكتابات ثقافياً وحضارياً. مما شكّل مشكلةً لدى الأجيال الحاضرة، التي لم تعرف غير المصادر الغربية سبيلاً لمعرفة ماضيها البعيد، أما المصادر العربية التي أنجزت في فترة ما بعد الفتح الإسلامي للمغرب فلم تتناول تلك الحقب القديمة، مما فسح المجال أمام الرحّالة والمستكشفين والمستشرقين الأجانب أن يتناولوا ذلك حسب وجهات نظرهم، أو حسب ما كانت تمليه عليهم حكوماتهم.

والأسئلة التي تطرح نفسها في بداية هذا البحث هي: (**من هم قدماء الليبيين؟ وما هي انتماءاتهم؟ وما هي الآثار الثقافية التي تركوها؟ وما هي صلة تلك الآثار بأصولهم القديمة؟ وما علاقتهم بقدماء المصريين والكنعانيين والعبرانيين والإغريق والرومان؟**).

للإجابة على هذه الأسئلة، كان لا بد من العودة إلى المصادر النادرة التي ذكرت الليبيين وعلاقتهم بجيرانهم، وأماكن تواجدهم، وأسماء قبائلهم، وطريقة عيشهم، وفترات انتقالهم من سكن الكهوف إبّان العصور الحجرية القديمة وانتشارهم في الفضاءات الواسعة بحثاً عن الماء والكلأ، ومحاولتهم بناء حضارة جديدة قوامها الاستقرار والزراعة، ونبذ أساليب الالتقاط والصيد.. والبحث –من خلال تلك المصادر– عما يشير إلى صلة قدماء الليبيين مع الشعوب القديمة المحيطة بهم. ومثل هذه البحوث قليلة وتكاد تخلو منها المكتبةُ العربيةُ عامّةً والليبيةُ على وجه الخصوص. والحقيقة التي لا يجب إخفاؤها، أن تاريخَ ليبيا القديم –ضمن محيطها المغاربي–

لم يكن هيّناً وبسيطاً حتى يتجاهله الكتّاب والمؤرّخون المعاصرون على هذا النحو، باستثناء بعض الجهود التي يمكننا الاستشهاد بثلاثة نماذج منها (ليبية وعربية وأجنبية):

1- النموذج الليبي ويتمثل في كتاب (**تاريخ ليبيا**) الصادر سنة **1973** لمؤلفه (**محمد مصطفى بازامة**).

2- النموذج العربي ويتمثل في كتاب (**التاريخ الليبي القديم**) الصادر سنة **1971** لمؤلفه (**د. عبد اللطيف محمود البرغوثي**).

3- النموذج الأجنبي ويتمثل في كتاب (**الليبيون الشرقيون**) الصادر باللغة الإنكليزية سنة **1914** لمؤلفه (**أوريك بيتس**).

بالإضافة إلى عدد من المقالات المترجمة التي اهتم بها مركزُ جهاد الليبيين للدراسات التاريخية[1] عبر مجلّد ضخم بعنوان (**الصحراء الكبرى**) من إعداد (**د. عماد الدين غانم**) الصادر بمناسبة انعقاد الندوة العلمية العالمية للتجارة عبر الصحراء بطرابلس سنة **1979**. والملاحظ أن الاهتمام بتاريخ ليبيا القديم بدأ يتزايد -شيئاً فشيئاً- مع بداية سبعينات القرن الماضي، ورغم ذلك لا تزال البحوث فيه قليلةً.

وقد نلتمس العذرَ للكتّاب والمؤرّخين -العرب منهم والأجانب- لعدم اهتمامهم بالتاريخ الليبي القديم، ونعتقد أن هذا الالتماس مدفوعٌ بسببين رئيسيين، هما:

1- إعتقادُهم أن ليبيا يغلب عليها طابعُ الصحراء والجفافُ وندرةُ الأمطار، فلا تكون مرشّحةً لقيام حضارات تستحق البحثَ والدراسةَ.

2- تركيزُهم على حضارة وادي النيل شرقاً والحضارة القرطاجنّية غرباً، بحجّة كثرة الوثائق

---

(1) تغيرّ اسمه سنة 2009 إلى: (المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية).

والقرائن، خصوصاً المصرية منها، فكانت بقايا تلك الحضارات قبلةَ البُحّاث والدارسين ينهلون منها ما يثري أبحاثهم ودراساتهم.

لهذين السببين نظر هؤلاء الكتّاب إلى ليبيا كما لو كانت معبراً للحضارات وليست مهداً لها. وهذا الاعتقاد -إن وُجد- فهو خاطئٌ وفاسدٌ من أساسه. فالحضارات القديمة التي أقيمت على هذه الرقعةِ من الأرض قبل أن يصيّرها الانقلاب المناخي إلى صحراء، كانت حضارات إنسانية رائدة وأصيلة قبل أن تتبلور حضارة قدماء المصريين في الألف الثالث قبل الميلاد، وحضارة الفينيقيين القرطاجنّية في الألف الأول قبل الميلاد. غير أن الحضارات الليبية القديمة لم تترك آثاراً كتابية يمكن فك رموزها ومعرفة ماهيتها بالدقّة والكثافة اللازمتين، بل كانت بدايتها -ككل الحضارات التي ظهرت فيما قبل التاريخ- حجريةً موغلةً في البدائية، ثم بدأت تتطور في محيطها الإقليمي، إلى أن نبذ أصحابُها حياةَ الصيد والالتقاط وجنحوا إلى حياة الاستقرار والزراعة واستئناس الحيوانات، ثم ارتقوا إلى مرحلة التعبير بالرسم على جدران كهوفهم قبل أن يغادروها تحت وطأة الجفاف والتصحّر.

تلك الرسوم التي يتراوح زمن إنتاجها بين الألف السابع والألف الرابع قبل الميلاد، على أقل تقدير، كانت قبلةَ البُحّاث والرحّالة والمؤرّخين والجغرافيين الأجانب، الذين اكتفوا بالوصف والنسخ وإحصاء قوائم اللوحات وتحليل المخلّفات القريبة منها وتحديد أعمارها، إلى جانب إبداء الدهشة والإعجاب والاستغراب والاعتراف بقدرة صانعي تلك اللوحات على إرساء دعائم حضارة لم تسبقهم عليها أوروبا، على حد ذكرهم. ولكنّهم عجزوا -إلى حد الآن- عن استخراج نصوص تاريخيةٍ مكتوبةٍ نظراً لعدم احتواء تلك الرسوم على كتاباتٍ تستوجب الترجمة والتحليل اللغوي، فنظروا إليها على أنها مجرّدُ لوحات تشكيلية تُعطي لمشاهدها فرصةَ اختيار العناوين الأدبية التي يراها مناسبةً أثناء المشاهدة.

هذه الحضارة لم تطرأ هكذا فجأةً، وإنما احتاجت بضعةَ آلاف من السنين حتى وصلت إلى هذا المستوى الفني الرفيع، إذ كان القوم من سكّان الكهوف الليبية مثل (هوافطيح) و(الضبع) و(الطير) في الشمال، وكهوف (تاسيلي) و(تيبستي) و(العوينات) في الجنوب، يمارسون حياةَ العصور الحجرية البدائية القديمة، وينتقلون من عصر متطور إلى عصر آخر أكثر تطور. ولا بد أنهم لم يستقرّوا طويلاً في كهوفهم، فقد جُبلوا -كغيرهم من الأمم القديمة- على التنقّل وتغيير المكان بحسب الظروف المعيشية والمناخية، تاركين كهوفَهم لمن سيعمّرها من بعدهم، مما أدّى إلى تراكم طبقات المخلّفات الحضارية في المكان الواحد، وخلق نوع من التشابه بين الأماكن المختلفة يمكن للباحث ربط الصلة بينها. وعندما صارت الحياةُ غير ملائمة في تلك الكهوف، نزلوا إلى السهول والأحواض والأودية باحثين عن وسائلَ جديدةٍ للحياة، فبدأت المظاهرُ القبلية تتشكّل على هيئة جماعات متآلفة أحياناً ومتنافرة أحياناً أخرى، وباتت تُعرف بأسمائها، خصوصاً في الفترة التي تشكّلت فيها السلالات والعائلات الحاكمة في وادي النيل، وبدأ سكّانُه يوثّقون أيامَ ملوكهم برموز هي أقربُ إلى الكتابة من الرسم. وقد اعترفت الوثائقُ المصريةُ -منذ بداية عهدها- بتهافت قدماء الليبيين كالتحنو أو التمحو والليبو أو الريبو على الوادي مستخدمين القوةَ أحياناً والطرقَ السلميةَ أحياناً أخرى. إلى أن تمكّن المشواش من التغلغل في الدلتا والاستقرار فيها، ومن ثم اعتلاء سدة الحكم، ثم اجتازوا مصر إلى فلسطين والشام وأنهوا سيطرة اليهود عليهما. ومثل هذا الانجاز ما كان له أن يتحقق لولا الأصلُ الواحدُ الذي اندمجت فيه الدماءُ بين قدماء الليبيين والمصريين والفلسطينيين والكنعانيين عموماً، وشعورُ الجميع بوحدة الهوية. تلكم الشعوب التي أصطُلح على تسميتها حديثاً باسم (الشعوب العروبية)[2] أو (الشعوب الجزرية) نسبةً لشبه الجزيرة العربية وهروباً من التسميات التوراتية كالسامية والحامية.

---

(2) عندما نذكر مصطلح ''عروبية'' لا نذكره تعصباً لفئة بشرية معينة، وإنما استئناساً بما ذكره بعض العلماء استعاضة عن مصطلح ''حامية وسامية'' التوراتي الذي ثبت فساده.

هذه الوحدةُ العرقيةُ -مهما تباعدت مراكزها- فتحت أعينَ الأقوام الأجنبية المجاورة لها على مقوّمات تلك الحضارات المثيرة للإعجاب والحسد من جهة، والباعثة عن القلق والخوف من جهة ثانية. فاندفع العيلاميون والأخمينيون من بلاد فارس، والحيثيون والميديون والليديون من آسيا الصغرى، ثم الإغريق والرومان من سواحل البحر المتوسط الجنوبية، نحو المراكز الحضارية الشرقية، ينهلون من معينها الثقافي، ويقتبسون لغتَها وحروفَها وفنونَها وطُرُزَ عمارتها، ويقتدون بسلوكها الحضاري عموماً. أما الاحتلالات التي حصلت بين قدماء المصريين والبابليين والآشوريين والآراميين والفينيقيين والكنعانيين عموماً، فلا يمكن اعتبارها احتلالات أجنبية بقدر ما هي صراعات محليّة داخلية تحصل عادة بين الأخوة وأبناء العمومة، رغم ما تسبّبه من أذى لهذا أو ذاك. والدليل على ذلك أنه في نهاية المطاف تحصحص الحقُّ لأصحاب الأرض الحقيقيين، وعاد المحتلُّ إلى حيث كان، فاستقرّ الفرسُ في الهضبة الإيرانية، والحيثيون وغيرهم في هضبة الأناضول، والإغريقُ في أرخبيلهم، والرّومُ في شبه جزيرتهم، وانتهت إلى الأبد إمبراطورياتهم التي فشلوا في فرضها بالقوة. وبقيت العراقُ وسوريا ومصرُ وأقطارُ المغرب العربي في أيدي أهلها، ولعلّ انتشار الإسلام في نفس البؤر الحضارية العروبية بسرعة مذهلة خير دليل على وحدة الأصل والعرق والحضارة والثقافة والمصير المشترك منذ أقدم العصور إلى يوم الناس هذا.

ويبدو أن الإنسان القديم كان يخاف من الظواهر الطبيعية المبهرة والمزمجرة والحيوانات الضخمة والخطيرة، فكان ذلك دافعاً للبحث -من خلال تلك الظواهر والحيوانات- عن معبود مادي يُشبع الإنسانُ فيه غريزتَه الروحيةَ والنفسيةَ كالتعبير عن الخوف والضعف والاستكانة والخضوع أملاً في الحماية من الأرواح الشريرة ومخاطر الطبيعة الغامضة. وكانت الموتُ إحدى الأسرار التي حيّرت ذاك الإنسان، فاهتم بقبور موتاه بدلاً من إلقاء جثثهم في الخلاء لتنهشها الضواري، وصارت القبور مصدر استشارة وإلهام وتنبؤات، وهذا ما يُعرف لغوياً بالوثنية التي تعني عبادةَ ما لا يجوز عبادتُه. وقد مارس الإنسانُ الليبي القديمُ كافة مظاهر الوثنية، من عبادة

الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والرياح، والحيوانات كالكباش والثيران، إلى أن صنع آلهته بيده واتخذها رمزاً للحماية ومباركة المحاصيل ورعاية الأرزاق والنصرة في الحروب وغيرها.. ولم تُعرف الديانات السماوية في ليبيا إلاّ في زمن الفينيقيين، حيث اعتنق البعضُ الديانة اليهودية رغم أنها غيرُ قابلة للانتشار والتبشير بها خارج نطاق شعب الله المختار من بني إسرائيل. أما الديانةُ المسيحيةُ فكانت ليبيا، وبالتحديد منطقةُ برقة، منطلقَها الأول عن طريق (مُرقس الرسول) مؤسس الكنيسة الأرثوذكسية الأولى في مصر. كما أن برقةَ الواقعةَ شرقي ليبيا كانت مبعثَ المذهب الآريوسي المعارض لتلك الكنيسة التي اعتبرت تعاليمه نوعاً من الهرطقة، فحاربته بضراوة. وقد ظهر في ليبيا أيضاً المذهبُ الدوناتي المعارض للآريوسية، فكان له نشاطٌ كبيرٌ في طرابلس وما جاورها قبل أن يتحوّل أتباعُه إلى قُطّاع طرق. ويلاحَظ أن هذا التذبذبَ الديني والهرطقةَ المذهبيةَ قد هيّأت قدماءَ الليبيين لاعتناق الإسلام بكل يسر وتلقائية، فكانت قبائلُ لواتة في برقة -التي تأجج فيها الصراعُ الديني- أولُ من أسلم على أيدي عمرو بن العاص القادم إليهم من مصر وفلسطين. فلم يبق في ليبيا وفي المغرب كلّه أيُّ أثر للمسيحية والمذاهب المؤيدة لها والمتحاملة عليها على الإطلاق.

لم تبق الحضاراتُ الليبية القديمة في ثوبها المحلّي الخالص على الدوام، فهي -مثل أخواتها الشرقيات- ابتليتْ بالتدخل الأجنبي. فقد جاء الإغريقُ إلى منطقة برقة بالجبل الأخضر، وأسّسوا فيها دولتهم ذات المدن الخمس (بنتابولس) وعاصمتها (قورينا) شحّات حالياً. وقد شهد زمنُ هذه الحضارة -ليبية الموقع إغريقية الهوى- نزوحَ العديد من اليهود والكنعانيين من فلسطين، خصوصاً في العصر البطلمي. فانطلقت من منطقة برقة ثورة اليهود المشهورة. كما انطلقت منها المسيحية نحو الإسكندرية حيث تأسست الكنيسة الأرثوذكسية هناك بعد الكنيسة الليبية قرب مدينة درنة.

وكان الرومان -الورثةُ الشرعيون للحضارة الإغريقية- قد تغلّبوا على قرطاجة وحرّقوا معالمها الشرقية وحرثوا أرضها الزراعية بالملح، وأسّسوا على أنقاضها أول ولاية أفريقية تأتمر بأوامر روما. فاختلطت في المدن الليبية السماتُ الحضارية بين فينيقية وإغريقية ورومانية، مع عدم إغفال الدور الليبي المحلّي. وكان للإمبراطور الروماني -ليبي الأصل سرتي المولد شرقي الثقافة- (سبتيموس سيفيروس) بصمتُه الخاصةُ في مدينته ومسقط رأسه (لبدة) عاصمة إقليم سرت الكبرى. ولعلّ المدن الثلاث (لبدة وأويا وصبراتة) في الغرب الليبي، والتي اجتمعت في الاسم الجديد (طرابلس) : المدن الثلاث، خير شاهد على تعاقب الحضارات عليها، خصوصاً الفينيقية والرومانية. أما الحضارة الفينيقية في الشمال الأفريقي عموماً فلا يجوز اعتبارها أجنبيةً كالإغريقية والرومانية، فالكنعانيون -بحكم ميلهم للتنقّل والبحث عن الثراء- كانوا سادةَ التجارة والصناعة وترويج البضائع والسلع عبر العالم القديم. فمثلما اتجه الآراميون برّا واختلطوا مع أبناء عمومتهم من سكّان بابل وآشور في بلاد ما بين النهرين، اتجه الفينيقيون بحراً واختلطوا مع أبناء عمومتهم قدماء الليبيين من سكّان الشمال الأفريقي، وكوّنوا معهم الشعب الليبونيقي الذي أقلق روما فقضت على حضارته الشرقية وأنهت نفوذه في حوض البحر المتوسط.

خلاصة القول، إن الحضارات الليبيةَ القديمةَ -الأصيلةَ منها والدخيلةَ- كانت قد تأسست على هذه الأرض منذ ظهور الإنسان الأول، وعبر العصور الحجرية القديمة والوسيطة والحديثة، لاسيما منذ فجر التاريخ حتى عشية الفتح الإسلامي. هذه الحضارات لم تحظ كثيراً باهتمام الكتّاب والمؤرّخين -العربِ منهم والأجانب- بالكيفية التي تستحقّها، فكان الحديث عنها مقتَصراً على ذكر عابر ضمن الحديث عن حضارات الشمال الأفريقي أو المغرب العربي عموماً، بل وقد يصل الأمر أحياناً إلى التجاهل الكامل، حيث يذكر البعضُ ليبيا على أساس تبعية برقة إلى مصر خصوصاً في العصر البطلمي، وتبعية المدن الطرابلسية إلى قرطاجة خصوصاً في العصر الليبونيقي. لهذا السبب كان هذا البحثُ محاولةً منا لإيفاء ليبيا جزءًا من حقّها في هذا الصدد بالقدر الذي استطعنا، وقد توخينا -في طرح الموضوعات- أسلوبَ التبسيط وعدم الإطالة والبعد عن التعقيد، وذلك بهدف تسهيل الفهم عند القارئ وفتح شهية الطالب لمزيد البحث والاطلاع. والله من وراء القصد.

سواني بنيادم 2012

الفصل الأول

بداية التكوين

أولا: نظرة عامة حول بداية التكوين (الساميون والحاميون)[1]:

قد لا نجد معلومات صريحةً وشافيةً عن المصدر الأول الذي انطلق منه قدماءُ الليبيين، ولكن كل الدلالات تشير إلى أن هجرات حصلت إلى المكان من عدة اتجاهات، فهذا (ف. فون زودن W. von Soden) الألماني يقول أن (الحاميين والساميين) كانوا يعيشون منذ نحو **9** آلاف إلى **12** ألف سنة في شمال غربي أفريقيا وغربي أوروبا، انفصلوا عن بعضهم مع مرور الزمن، فاحتل (الحاميون) أجزاءً كبيرةً من الشمال الأفريقي، وبقي (الساميون) في شمال غربي أفريقيا. أما القسم الآخر فقد انتقل نحو الشرق في أواسط الألف الخامس قبل الميلاد، فاستوطن (الحاميون) مصر، بينما واصل (الساميون) إلى جنوب غربي آسيا، وربما انطلقت مجموعةٌ أخرى من ليبيا إلى غربي الجزيرة العربية عبر مصر السفلى وشبه جزيرة سيناء[2]. وهذا المذهب الذي ذهب إليه (زودن) ربما يندرج ضمن محاولة كتّاب القرن التاسع عشر الميلادي الأوروبيين لإثبات أيلولة سكّان الشمال الأفريقي إلى أوروبا دون تقديم الحجة الدامغة على صحة ذلك، علاوة على أن مسألة سامية وحامية تلكم الشعوب إنما هي دعاية توراتية لا تمت للتاريخ الإنساني وللسلالات البشرية بأية صلة. ونحن لا نرفض ولا نؤيد مسألة مجيء قدماء الليبيين الأول من أوروبا، ولكن آخرين يرون عكس ذلك تماماً، فهذا (أرنولد توينبي A.Toynbee) البريطاني يقول أن السلالات (السامية) كانت تعمّر أفريقيا قادمة إليها من شبه الجزيرة العربية عن طريق

---

(1) هذا التقسيم (سامي وحامي ويافثي أو آري) أصبح مستهجنا، لعدم إثبات صحته لا تاريخيا ولا لغويا ولا أنثروبولوجيا.. ولكن لا مفر من ذكره عند استقائه من المصادر، حتى يجد العلماء – خصوصا العرب منهم – بديلا عنه، مع العلم أن بعضهم يستخدم الآن مصطلح (عروبي) وهو الوحيد المقبول إلى حد الآن.

(2) زودن، ف. فون: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ترجمة: د. فاروق إسماعيل، ط1، 2003، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق/ سوريا، ص25.

برزخ السويس وباب المندب[3]. ويؤيده في ذلك تقريباً (ج. كامب) الفرنسي فيقول بأنهم ينحدرون في -غالبيتهم- من المجموعات المتوسطية القديمة التي جاءت من المشرق في الألف الثامن -أو حتى قبله- وانتشرت ببطء في المغرب الكبير والصحراء[4]، ويؤكد أن الهجرات المشرقية تجاه الشمال الأفريقي لم تتوقف لآلاف السنين، أي منذ العصر الحجري الحديث، وأن بعضها كان يتجه من الجنوب إلى الشمال خصوصاً بعدما زحف التصحر هناك خلال الألف الثالث قبل الميلاد[5].

ربما يعود سببُ الاختلاف إلى تباين الفترات الزمنية، أو أنه بسبب التنوع في الهجرات واتجاهاتها. إلاّ أن هجرات أخرى مبكرةً سبقت كل ذلك حيث كانت تأتي إلى الشمال الأفريقي من جنوب شرق أفريقيا في الأزمان السحيقة، ربما منذ زمن إنسان النياندرثال Neanderthal الذي انتقل من شمال تنزانيا إلى فلسطين قبل انتقاله إلى أوروبا وقبل أن يتطور إلى الإنسان العاقل[6]، والدليل على ذلك وجود جماجم بشرية في كل من الجزائر وليبيا

---

(3) توينبي، أرنولد: **تاريخ البشرية**، ترجمة: د. نقولا زيادة، ج1، ط؟، 1981، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، ص100.

(4) كامب، ج.: **البربر.. الذاكرة والهوية**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، تقديم: محمد الطاهر الجراري، ط1، 2005، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا ص 45، وعن الأصول الشرقية أنظر أيضا ص ص 73 –74.

(5) كامب: **نفس المصدر**، ص78.

(6) محيسن، د. سلطان: **عصور ما قبل التاريخ**، ط؟، 2003–2004، منشورات كلية الآداب بجامعة دمشق/ سوريا، ص ص115–148.

واليمن وفلسطين تتطابق مع بعضها البعض تطابقاً تاماً[7]. ويبدو أن التواجد البشري في السهول والبوادي والصحارى الليبية كان في زمن الجفاف الذي أصاب المنطقة بفعل مناخ الهولوسين Holocene الحار وتراجع البليستوسين Pleistocene المطير، فخرج الناس من كهوفهم بـ(الجبل الأخضر وطرابلس) شمالاً، و(جبال تاسيلي وتبستي والعوينات) جنوباً، تاركين آثارهم الحجرية والطينية ورسومهم الملونة على جدران كهوفهم، وراحوا يبحثون عن مقومات لحياة جديدة.

وإلى جانب تطابق الجماجم سالفة الذكر، هناك إشارات عدة تؤكد وصول أفواج من المهاجرين الكنعانيين إلى ليبيا والشمال الأفريقي. فقد اكتشف عالم الآثار الفرنسي (هنري لوت H. Lhote) في منطقة جبال (أكاكوس) بالجنوب الليبي **5000** لوحة كهفية[8] على ضفتي وادٍ قديم قبالة مدينة (مرزق) يطلق عليه الأهالي اسم (وادي جبّارين) أي (العمالقة) الكنعانيين، وقدّر عمر محتويات بعض تلك الرسوم بعصر ما قبل تأسيس الأسرات في مصر، وقرر أنها أغنى بقعة في العالم بالفن قبل التاريخي[9]، وهذا يعني أن أولائك الليبيين قضوا –في ذاك المكان– فترة طويلة من الزمن قبل أن ينجزوا تلك اللوحات. أما (موري F. Mori) فقدّر

---

(7) سعدي، د. عثمان: **عروبة الجزائر عبر التاريخ**، ط؟، 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ الجزائر، ص11.

(8) لوت، هنري: **لوحات تسيلي**، تعريب: أنيس زكي حسن، ط1، 1967، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص70.

(9) غير أننا سمعنا – مؤخرا– خبرا علميا مفاده أنه اكتشف في سوريا رسوم تعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

عمر الرسوم الصخرية في جبال أكاكوس بـ **6122** سنة ق.م. مع فارق بحدود **100** سنة[10].
وحدد (ماك بيرني Mc Burney) الذي أجرى حفريات (كهف الفتايح) بمدينة درنة بداية العصر الحجري الحديث بالألف السادس أو الخامس قبل الميلاد[11].

أما في مرحلة انتقال إنسان النياندرثال Neanderthal إلى الإنسان العاقل Homo Sapience، فقد تأكدت صلة الإنسان الليبي القديم بالإنسان الفلسطيني، وذلك من خلال البقايا العظمية المكتشفة في (كهف الفتايح) أو (هوا فطيح) غرب مدينة درنة قُدّرت بـ **43000** ق.م.[12]، أي في العصر الحجري الوسيط. كما أن الأواني الفخارية المكتشفة في منطقة الجبل الأخضر والتي تعود إلى النصف الثاني من الألف الخامس ق.م. لها شبهٌ كبيرٌ بتلك المكتشفة في منطقة الفيوم المصرية، مما يؤكد صلة قدماء الليبيين -سواءً أكانوا في الشمال أو في الجنوب- بسكان الشام وفلسطين ومصر منذ أقدم العصور.

---

(10) موري، فابريسيو: حول تأريخ الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى، ترجمة: مكاييل محرز، موسوعة الصحراء الكبرى، 1979، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا، ص158.

(11) بازاما، محمد مصطفى: تاريخ ليبيا، ج1، ط؟، 1971، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي/ ليبيا، ص167.

(12) الناضوري، د. رشيد: المغرب الكبير، ج1، ط؟، 1981، دار النهضة العربية، بيروت/ لبنان، ص61.

ومثلما أبعد سِفرُ التكوين (الإصحاح العاشر) الكنعانيين من مجموعة العائلة السامية[13]، حسب تصنيفه، أبعد أيضاً الليبيين (لهوبيم أو لوبيم) والمصريين (مصراييم) من تلك العائلة. وقد انساق الكثيرون وراء تلك التصنيفات، واعتقدوا أن الفلسطينيين (الذين أسماهم نفسُ السِفر: فلشتيم) ليسوا كنعانيين، بل هم من شعوب البحر الذين غزوا فلسطين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فقط لترويج فكرة قدوم الفلسطينيين بعد استقرار اليهود في المنطقة أو أنهم ليسوا من أصول كنعانية، وهو توجه سياسي وعرقي مدسوس لا علاقة له بحقائق التاريخ. ومن جانب آخر يلمّح البعضُ أن الليبيين استعانوا أيضاً بـ(شعوب البحر) عند توغلّهم في الدلتا، وسنناقش هذا الأمر في الفصول القادمة.

ثانياً: حضارة الكهوف الليبية:

قد يكتنف تاريخ ليبيا القديم غموضٌ عميقٌ، ويعتريه نقصٌ كثيرٌ، وتتخلله نقطُ استفهام لا تحصى، خصوصاً فيما يتعلق بأصول سكانها القدامى ومصدر انبعاثهم الأول. ولكن المتتبع لحركة التاريخ –تاريخ البشرية عموماً– سيجد لهؤلاء القوم موقعاً مناسباً لهم بين مواقع الأقوام الأخرى التي جاورتهم وتفاعلت معهم حضارياً وتاريخياً وثقافياً وقاسمتهم الأرض جغرافياً ومعيشياً. فهم –بطبيعة الحال– جزءٌ من تلك الحركة وذاك التفاعل، وركيزةٌ من ركائزه الأساسية. ولكن مثل هذا البحث والتقصي لا يمكنه أن يبلغ غايته ما لم يحدَّد عاملا الزمان والمكان المتعلقان بتاريخ هذا القوم وموطنهم.

(13) أنظر مثلا: سليمان، د. عامر: **اللغة الأكدية (البابلية–الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها**، ط2، 2005، الدار العربية للموسوعات، بيروت/ لبنان، ص66.

1: الزمان:

لا يمكننا في هذا المقام أن نغوص في عمق الأساطير التي نُسجت حول ليبيا القديمة جداً، أو نتوه في مسارب التاريخ المتشعبة التي لم يحسن الخوضَ فيها كثيرٌ من المؤرخين والجيولوجيين والأنثروبولوجيين وغيرهم ممن عني بتاريخ الإنسان القديم. ولا يمكننا أيضاً أن نسمح لخيالنا أن يمتد طويلاً لمعرفة أصل الإنسان الأول والجزم بأن الإنسان النياندرثالي والإنسان العاقل هل تناسلا من بعضهما البعض أم أنهما منفصلان، وما علاقتهما بإنسان بكين أو الإنسان الأسترالي القديم، ونورط أنفسنا في ملايين السنين. لأن التاريخ الموثق والموثوق فيه والأكثر وضوحاً من غيره والأقل تورطاً لا يتعدى الخمسة آلاف سنة، أو قبلها بقليل. وذلك يعود لعدة أسباب، أهمها ظهور الكتابة التي تقلّبت على عدة أطوار ثم ترسّخت حروفاً رمزيةً ذات دلالات ومعان بعدما كانت رسوماً ومخربشات قد لا تتحلل إلى كلام. وقد سمي عصر الكتابة والتدوين بعصر التاريخ، أي أن التاريخ بدأ في العد رسمياً منذ ذاك العصر. يقول (توينبي) في هذا الخصوص: "..**وهكذا فإن معلوماتنا عن الخمسة آلاف السنة الماضية من التاريخ –الخمسة آلاف السنة الموثقة– هي أغزر وأشد وضوحاً منها من المليون الأول أو نصف المليون الأول من السنين التي تلت فجر الوعي الذي يُحتمل حدوثه**»[14]. وبناءً على ذلك فإن العصر الحجري الحديث الذي سُجلت مخلفاته في كهوف الشمال الأفريقي يعود إلى حدود الألف الخامس قبل الميلاد، أي مرحلة الاستقرار النسبي وامتهان الرعي والزراعة، بعد مرحلة الاصطياد والالتقاط، حيث أوجد الإنسان وقتذاك وسائل تحقق له رغباته، فواصَل استخدام الحجر الذي يعتبر أقدم مادةٍ صُنعت منها الأدواتُ الأولى، ثم تحول إلى عجن الطين صانعاً منه بعضَ الأواني المساعدة على تخزين المؤن والمياه.

هذا في المناطق الشمالية (الساحلية)، أما في المناطق الجنوبية (الصحراوية) فكانت أبرز

---

(14) توينبي: **مصدر سابق**، ص27.

المعالم الأثرية الدالة على حضور الإنسان هناك، تلك الرسوم الصخرية التي اكتشفت بأعداد كبيرة تعد بالآلاف، والتي قُدّر زمنها بزمن ما بين الألف السادس والألف الرابع السابقين لميلاد المسيح عليه السلام.

فإذا كانت الحضارة الكهفية الساحلية اعتمدت على الأدوات الحجرية ثم انتقلت إلى صناعة الأواني الفخارية بعد الاستقرار النسبي، فإن الحضارة الكهفية الصحراوية اختلفت عنها من حيث المقومات المعيشية. لأن البيئة والمناخ والتضاريس الأرضية لها دورها الفاعل في تشكّل حياة الإنسان، مما ينعكس على سمات حضارته وتحديد خصوصيتها. ومن خلال تلك الرسوم التي تركها سكان جبال أكاكوس وتادرارت يتضح أن رسّاميها كانوا ينعمون بحياةٍ مرفّهةٍ ومنعّمةٍ، على أرضٍ دائمةِ الخضرةِ والخصوبةِ، وتحت سماءٍ دائمةِ المطرِ والرطوبةِ، تجري في أوديتهم المياهُ، ثم تتجمع في برك ومستنقعات وبحيرات تتيح للإنسان والحيوان حياةً هانئةً، في غمرة غاباتٍ وأشجار وارفةِ الظلال. وأشهرُ حضارة وُجدت رسومُها منقوشةً على جدران الكهوف هناك، حضارةُ (وادي جبّارين) التي حدد مكتشفُها الفرنسي (هنري لوت) زمنَ بعض محتوياتها بزمن ما قبل تأسيس الأسرات المصرية[15]، أي قبل الألف الرابع قبل الميلاد، وهي الفترة التي ازدهرت فيها الحياةُ في تلك المنطقة قبل أن تزحف عليها الرمالُ وتتصحر. وقد حصل ذاك التصحرُ بفعل التغيير المناخي الذي تزامن مع ذاك الذي حصل في الصحراء العربية، فهاجر الليبيون نحو الشمال الشرقي، واستقروا على ضفاف النيل، وقد ذُكر أن الليبيين سكنوا الدلتا (رسميا) سنة **3200** قبل الميلاد[16]. والتقوا مع أبناء عمومتهم المهاجرين من شبه الجزيرة العربية هروباً من نفس العوامل المناخية التي ابتليت بها منطقتهم أيضاً.

---

(15) لوت: **مصدر سابق**، نفس الصفحة.

(16) خشيم، د. علي فهمي: **آلهة مصر العربية**، ط1، ج1، طرابلس/ ليبيا، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1990، ص 51.

2: المكان:

الزمن المتحدَّث عنه الآن سابقٌ لزمن القبائل الليبية المعروفة، مثل: التحنو والليبو والمشواش بشرق ليبيا الحالية والنساميون بوسطها والجرمنتيون بجنوبها، والقرطاجنيون أو الليبونيقيون بشمال تونس، والقبائل النوميدية بشمال ووسط الجزائر، وقبائل المور بالمغرب الأقصى وموريتانيا.. تلك القبائل والأقوام التي ذكرها المؤرخون الإغريق وعلى رأسهم (هيرودوتس) كانت قد اشتهرت في الفترة ما بين بداية الألف الأول قبل الميلاد ونهايته. أما صنّاعُ الحضارة الكهفية الحجرية فهم أسبق بكثير، ولم يسمّهم أحدٌ بأسماء معينة. وكل ما قيل عنهم أنهم كانوا يسكنون الجبال الشمالية والجنوبية لما يسمى الآن بشمال أفريقيا أو المغرب العربي الكبير.

تعتبر نهايةُ العصر الحجري القديم الأعلى من أهم المراحل التي انتقل فيها الإنسان إلى مرحلة إنتاج الطعام والأسلحة الحجرية الدقيقة وولوج مرحلة العصر الحجري الحديث. وقد تمثلت تلك الحضارة في المواقع المنتشرة بين منطقة الجبل الأخضر بليبيا شرقاً حتى ساحل المحيط الأطلسي غرباً. وذلك حسب الكهوف المكتشفة على امتداد سلاسل الجبال الساحلية. مثل كهف (الفتايح) قرب درنة، وحقفة (الطير) قرب بنغازي، ورمّاديات (بئر العاتر) في قفصة بتونس، وموقع (وهران) بالجزائر، وكهف (سيدي عبد الرحمن) بالمغرب الأقصى.. تتخللها أماكن أخرى متعددة ومتنوعة، ولكنها في نفس الخط الجغرافي تقريباً.

أما في الجنوب فكانت الشواهدُ الحضاريةُ ملحوظةً على طول سلاسل الجبال الممتدة من جبل (العوينات) شرقاً إلى جبال (تاسيلي) غرباً مروراً بجبال (تيبستي). وقد كانت أكثرها غزارةً وأشدّها تنوعاً تلك الصخور المنقوشة المكتشفة بجبال (أكاكوس) الواقعة ضمن سلسلة جبال (تاسيلي) شمال شرقي منطقة (الهجار) الأفريقية.

إذن، إن الحضارةَ الليبيةَ الأولى كانت حضارةً حجريةً كهفيةً بدائيةً، أخذت في التطور والرقي بحسب التكاثر السكاني، وازدياد الحاجة لاكتشاف سبل أرقى للحياة، والتفاعل مع الطبيعة وقهر قسوتها من أجل البقاء حفاظاً على النوع وتكاثره.. وبالتالي فهي حضارة الخوف من العراء وما تفعل فيه الطبيعة من كوارث، وعدم اطمئنان الناس لجيرانهم الحيوانات المتوحشة وما تسببه لهم من إزعاج. فالتجأوا إلى الكهوف وأقاموا فيها حضارتهم، وتركوا لنا على جدرانها آثارَهم، كأنّ لسانَ حالهم يقول: (كنّا هنا).

ثالثاً: الأصول والهوية:

المتتبع لتلك الحركة السكانية يجد أنها كانت تنطلق دائماً صوب منابع المياه أو الأماكن غزيرة الأمطار، فكانت تأتي الجماعات البشرية إلى ليبيا من جهة الشرق، بينما يتحرّك الليبيون في اتجه الشرق صوب مصر وربما يتجاوزونها إلى شبه الجزيرة العربية والشام. تلك هي حركة الهجرة البشرية منذ القديم. والشيء الذي يؤيد هذا الرأي وجود سمات حضارية مشتركة بين صناعات هذه الكهوف وصناعات الحضارة الفلسطينية. كما تشترك -أيضاً- مع صناعات منطقة الفيوم بمصر. أما عن بقايا الهياكل العظمية فهي الأخرى تؤكد تلك الصلة الشرقية. ويقول الناضوري في هذا الخصوص: "**وكل ذلك يؤكد وجود صلات حضارية وبشرية بين جنوب غربي آسيا وبصفة خاصة منطقة فلسطين وبين المغرب وبصفة خاصة منطقة شمال شرقي ليبيا أي برقة في ذلك الوقت**»[17]. ويشير عثمان سعدي إلى اكتشاف أربع جماجم بشرية "**الأولى في الجزائر والثانية في ليبيا والثالثة في اليمن والرابعة في فلسطين،**

(17) الناضوري: مصدر سابق، ص98.

ووُجد بين هذه الجماجم الأربع تطابق كامل»[18]. وهذا يشير إلى أن الهجرة القديمة من الشرق إلى الغرب كانت هكذا: من فلسطين فمصر فليبيا فتونس فالجزائر فالمغرب فموريتانيا فجزر الكناري. وهذا بدوره يرتب الصلة بين كل أصحاب تلك الحضارات المتشابهة ويوثقها. غير أن الحضارة العترية (القفصية) كُتب لها الشيوع في ربوع غرب ليبيا الحالية، تمشياً مع أسلوب الهجرات العكسية الذي كان سائداً وقتذاك، ولكن في فترات متقطعة ونادرة الحدوث. أما هجرة الليبيين نحو مصر فلها ظروفها الخاصة، حيث اشتدّ الرحيل إلى وادي النيل عقب التصحّر الذي ابتليت به المناطق الخصبة فيما يُعرف حالياً بالصحراء الكبرى.

إلى حد الآن لم يجرؤ أحدٌ من المؤرخين أن يسمي هذه الأقوام بأسماء معينة. فكل ما استطاعوا قوله هو إثبات أصلهم الشرقي (الفلسطيني) أي (الكنعاني) بحكم دراسة الهياكل العظمية المكتشفة، وانتماء الواحد منهم إلى الآخر بحكم دراسة المخلفات الصناعية التي كانت مستعملة. ثم أطلقوا على حضاراتهم أسماءً بحسب الأماكن والكهوف التي شغلوها، فقالوا: الحضارة البرقاوية والحضارة العترية والحضارة الوهرانية والحضارة الرحمانية..

1- السلالات الأولى في الشمال الليبي:

ثبت مؤخّراً أن تقسيم الأجناس البشرية على أساس أبناء آدم (عليه السلام) الثلاثة: السامية والحامية واليافثية أو الآرية، لا أساس له من الصحة، فهو مجرّد تقسيم توراتي لا يستند على أية قاعدة تاريخية ولا علمية ولا حتى لغوية، كما سبق الذكر في إحدى هوامش الصفحات السابقة. أيضاً يكون من العسير على العلماء -رغم جهودهم المحمودة- تحديدُ السلالات البشرية بالدقة اللازمة على أساس لون البشرة والشعر والعيون والبُنى الجسمية والهياكل العظمية

(18) سعدي: مصدر سابق، ص11.

والجماجم، وحتى فصائل الدم والجينات الوراثية والحامض النووي وغيرها من الفحوصات التي يسعى العلماءُ من خلالها إثبات نظرية النشوء والتطور والبقاء للأفضل التي ابتكرها (تشارلز داروين). ولكن لا بأس من التفصيص والتفكيك بالقدر الذي تتيحه تلك الأفكار في فهم جزئيات علوم الأحياء والتركيز عليها ودراستها إلتماساً للحقيقة التي لا يعلمها إلاّ صاحب العلم (سبحانه وتعالى). واستكمالاً لهذه الجهود العلمية يبدو أنه من الضروري أيضاً دراسةُ الظروف المناخية التي كان يعيش فيها هذا النوع أو ذاك وكل ما يتصل بها من تأثير على الغطاء النباتي والتربة، لأن البيئة الطبيعية لها دورُها الفاعل في تشكّل الإنسان أو تغيير ملامحه وبُناه الجسدية، وبالتالي تحديدُ أماكن تواجده ونقاط انطلاقه الأول.

فالبعضُ يرى أن الإنسانَ الأولَ كان قد ظهر في الصين ثم انطلق إلى بقية الأصقاع. والبعضُ الآخر يرى أنه ظهر في كينيا وتنزانيا ثم انساح في كل الاتجاهات. وهذا التنوّع في الآراء يؤكد تنوّع الهجرات الإنسانية منذ ظهور الإنسان الأول مهما كان مصدره، إلى أن استقرت الأقوام أخيراً داخل محيطاتها الإقليمية الحالية، فظهر التمايز والاختلاف بأكثر وضوح على ملامحها وبُنى أجسامها. ومن هنا -أيضاً- بدأ علماءُ السلالات يميزون الأقوام على أساس لغاتها المحكية وهو أمر يصعب إثباته خصوصاً عند دراسة سلالات الأقوام الموغلة في القِدم التي لم تخلّف لنا وثائقَ مكتوبةً، علاوة على أن اللغةَ -في الأصل- واحدةٌ ولكنّها تنوّعت وتفرّعت وارتحلت مع أصحابها إلى أن تقوقعت داخل محيطها الذي استقرت فيه فتأثرت بطبيعته وبيئته، ومن ثم تطورت وابتعدت عن أصلها اللغوي، فلا يجوز لنا -والحال هكذا- الاعتماد على اللغة إلاّ في العصر التاريخي.

وعند الحديث عن السلالات البشرية التي عمّرت الشمال الأفريقي، والتي عُرفت لاحقاً باسم قدماء الليبيين، فيَفترض بعضُ العلماء أن الجماعات القوقازية كانت قد وفدت

إلى القارة الأفريقية سالكةً طريقين رئيسيين، هما: باب المندب وبرزخ السويس[19]. أما مضيق جبل طارق فكان معبراً إلى أوروبا وليس العكس إلاّ في عصور متأخرة وذلك بعد تراجع الجليد إلى القطب الشمالي. وهذا المذهب يشير إلى وجود الجنس القوقازي في ليبيا القديمة منذ عصور موغلة في القدم، بينما الواقع الإنثروبولوجي يؤكد -أيضاً- وجودَ الجنس الزنجي في أفريقيا، وهو الأسبق تاريخياً. ولحسم هذا الجدل رأى العلماءُ إمكانيةَ قيام حروب بين الجنسين أدت -في النهاية- إلى تقهقر الزنوج صوب الغابات الاستوائية، بينما استقر القوقازيون في شمال القارة وشرقها[20]. وفي العصر الحجري الحديث بدأ الحديثُ يدور حول سلالة البحر الأبيض المتوسط. ومن هنا بدأ الاختلاط بين الأجناس يحيّر العلماء، فلم يجدوا غير اللغة المحكية والأدوات الحجرية والمشغولات الفخارية للتفريق بين تلك السلالات، فقالوا بأن هذا القوم لغته (سامية) أو (حامية) أو (أفروآسيوية).. وذاك القوم أدواته (برقاوية) أو (عترية) أو (وهرانية) أو (رحمانية)..

ويقال أن سكّان الشمال الأفريقي القدامى يغلب عليهم قصرُ الرأس (Brachycephaly) والشُقرة (Blonde) أو (Xanthochroid)[21]. فقصرُ الرأس يوجد بقلّة على السواحل الشمالية، وهي سمةٌ يبدو أنها متأصّلة في أفريقيا منذ القديم، أما الشُقرةُ فيبدو أنها من أصول غير أفريقية، ويُعتقد خطأً أنها من بقايا الوندال، لأن الوندال اكتسحوا شمال أفريقيا في القرن الخامس الميلادي ولم يستقرّوا فيه، إلاّ أن كتّاب القرن التاسع عشر في أوروبا أرادوا طبع سكّان

(19) الجوهري، د. يسري عبد الرزاق: **الإنسان وسلالاته**، ط8، 1991، منشأة المعارف، الإسكندرية/ مصر، ص ص 365-367.

(20) الجوهري: **نفس المصدر**، ص 367.

(21) Bates, Oric: **The Eastern Libyans**, 1st edition, 1914, Macmillan and Co. limited, London, pp 3940-.

شمال أفريقيا بالطابع الأوروبي دون إثبات علمي، كما سبق الذكر. ثم أن المعلومات عن شُقرة قدماء الليبيين كان قد استقاها العلماءُ من الوثائق الفنية المصرية القديمة التي تعود إلى ما بين الـ 4000 سنة و1300 سنة ق م. حيث ترجم بعضُهم كلمة (تحنو Tehenu) وهي اسم إحدى القبائل الليبية القديمة الواردة في تلك الوثائق على أنها تعني (نظيف Fair) أو (صافٍ bright)، وصفة النظافة والصفاء ليس بالضرورة أن تقتصر على الأوروبيين دون غيرهم. بينما لم يظهر قدماء الليبيين في النقوش المصرية بتلك الأوصاف فقط وإنما ظهر بعضُهم -أيضاً- بشعر أحمر وعيون زرقاء[22]. وقد ذكر الإغريقُ تلك الأوصاف في القرن الرابع قبل الميلاد، وربما استمر الحال عند بعض سكان المغرب العربي إلى الآن[23]. تلك الأوصاف جعلت علماء السلالات الأوروبيين يُرجعون أصول قدماء الليبيين إلى سلالات أوروبية، ولكن أوروبا كانت مغطاة بالجليد والحياةُ فيها تكاد تكون معدومةً، في الوقت الذي كان فيه الشمالُ الأفريقي مكشوفاً للشمس ويعجّ بالحركة السكّانية، فلماذا لا تكون شُقرةُ البشرة وحُمرةُ الشعر وزُرقةُ العيون منتقلةً تدريجياً من الشمال الأفريقي إلى أوروبا؟ خصوصاً وأن مضيق جبل طارق (أعمدة هرقل) كان -في زمن من الأزمان- معبراً جليدياً يقطعه الإنسان سيراً على الأقدام. وقد أثبت علم السلالات أن كلاً من سكّان المغرب العربي وسكّان أوروبا الحاليين تنتمي غالبيتُهم إلى سلالة البحر المتوسط التي يبدو أنها من أصل المجموعة القوقازية القادمة من موطنها الأصلي في جنوب غربي آسيا والهند. كما ثبت أن طرازَ البحر المتوسط الأطلسي يظهر واضحاً بين سكّان شمال أفريقيا وفلسطين وأجزاء من جزيرة العرب، ويمتازون بالرأس الطويل والأنف الطويل المستقيم والشعر الأسود والعيون الفاتحة في بعض الأحيان والقامة التي يبلغ متوسطُها **161**

---

(22) Bates: **Ibid**, p 40.

(23) أنظر الجوهري: **مصدر سابق**، ص371. وكذلك Bates نفس المصدر والصفحة.

سم، وأصحاب هذه السلالة يشبهون سكّان العصر الحجري القديم الأعلى في غرب أوروبا[24].

على أية حال، إننا نرى أن الموجات البشرية الهائلة التي توافدت على شمال أفريقيا منذ أزمان موغلة في القدم، لم تكن مطبوعةً بطابع واحد يكون هو الغالب، وإنما تنوّع الهجرات -من جهة الشرق بصورة خاصة- كانت قد حملت معها هذا التنوّع في الملامح التي كانت تختلط -في كل مرّة- مع السمات المحلية السابقة لها، فلا يمكننا -والحال هكذا- تغليب جنس على آخر، فالشمال الأفريقي له خصوصيةُ رحابةِ المساحةِ وتنوع التضاريس واختلاف المناخات وتعدد البيئات الطبيعية، وهي عناصر مؤثّرة في التشكّل البشري وطبعه بطابع مميز قد يقترب وقد يبتعد عن غيره وعن أصله أيضاً، خصوصاً إذا طال أمدُ تشكّله. علاوةً على أن الشُقرةَ المتحدّث عنها لم تكن وحدها السمة المميزة لقدماء الليبيين، فقد نجد -إلى جانب ذلك- السُمرة وتجعّد الشعر وسواد العيون، كما نجد سمات أخرى متنوعة بين الشُقرة والسُمرة وبين السُمرة والبياض، وكذلك نجد تنوّعاً في أطوال القامات، فهناك العمالقة طوال القامة والأقزام قصار القامة ووسط بينهما. فلا يوجد في هذا الكون شيءٌ ثابتٌ على الدوام، فالزمنُ كفيلٌ بإحداث تغيّرات في الطبيعة، والإنسان جزءٌ من الطبيعة.

ولم يتوقف الزحف نحو الشمال الأفريقي منذ آلاف السنين، إلى أن وصلت الموجاتُ الكنعانيةُ من صيدا وصور، وضخّت الدماءَ الشرقيةَ من جديد في شرايين قدماء الليبيين، إنهم الفينيقيون، ذاك الشعب الصغير في عدده العظيم في انجازاته الحضارية، فشكّلوا مع الليبيين الشعبَ البونيقي (أو الليبونيقي) الجديد عبر التزاوج والمصاهرة والاندماج الكامل الذي ما فتئ يتوسّع على سواحل بحيرة المتوسّط حتى قضى عليه الرومان. أما الاندماج الأكبر الذي أعطى للشمال الأفريقي طابعَه الحالي فكان بعد الفتح الإسلامي وانصهار العرب مع العنصر المحلّي المتراكم في المكان عبر المراحل التاريخية سالفة الذكر، فصارت له مميزات إثنية وعرقية أعطته

---

(24) أنظر الجوهري: **نفس المصدر**، ص ص350-351.

خصوصيته المستقلّة رغم كل الفروقات والتنوّعات. وعندما وصل العربُ إلى الأندلس فاتحين، لم يضيفوا شيئاً جديداً على التكوين الجنسي لشبه جزيرة أيبيريا[25]، لأن كلاهما يكاد ينتمي إلى نفس فصيلة البحر المتوسط القوقازية الأصل كما سبق الذكر.

(25) أنظر الجوهري: **نفس المصدر**، ص350.



1- خريطة توزيع القبائل الليبية وطريق التجارة القديم بين مصر وليبيا. 2- تحنو. 3- تمحو. 4- ريبو. 5- مشواش. 6- إسبت. 7- قبت. 8- ثكتن. 10- كيكش. 11- سبد. كما تخيلهم الفنان (N. Dear). (أنظر: موسوعة تاريخنا، ص ص112-96).

2- السلالات الأولى في الجنوب الليبي:

ذكرنا -في ما مضى من صفحات- أن إحدى البوّابات الرئيسية التي كانت تنفذ منها الجماعاتُ البشريةُ من الشرق إلى قلب أفريقيا، كانت بوّابة (مضيق باب المندب). ويفترض (ميخائيل رسّل Michael Russell) أن الهجرةَ من الشرق نحو أفريقيا كانت تتدفق -منذ أقدم العصور- من مصبّ نهر الفرات في الاتجاهين الشرقي والغربي بمحاذاة سواحل آسيا، ويصل بعضُها إلى مضيق باب المندب تفادياً للبحر الأحمر لخطورته وصعوبة الملاحة فيه. لذا تكون أثيوبيا -المواجهة لليمن- بوّابةً تسهّل الدخول إلى أفريقيا، ومن ثم يبدأ الصعود شمالاً وغرباً عبر الممر الواقع بين الجبال التي تفصل شبه الجزيرة العربية عن أعالي النيل. وقد تكون بعضُ الهجرات قادمةً من غرب الهند أيضاً، فقد لاحظ بعضُ الباحثين الشبهَ بين الألفاظ والفنون والمعتقدات الخرافية والأساطير المستخدمة في الهند الغربية وتلك التي وُجدت عند أول المستقرّين في أعالي النيل[26]. وربما تتواصل الرحلةُ نحو الغرب، أي بين أثيوبيا وجنوب ليبيا حالياً، خصوصاً وأن الزمن المتحدَّث عنه قد يوافق أواخر زمن البليستوسين المطير، فيكون حوض فزّان وجباله نقاط جذب للإقامة والاستقرار فيها، وذلك قبل سيادة مرحلة الجفاف. وقد دأب قدماء المؤرّخين على تقسيم الأفارقة إلى قسمين كبيرين: الليبيون والأثيوبيون[27]، ويربطون العلاقة بين القسمين برباط وثيق. أما العلاقة بين أعالي النيل وقدماء المصريين في الدلتا والصعيد بصورة خاصة فهي واردة منذ أقدم العصور بحكم امتداد الوادي وجريانه من تنزانيا جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً، حتى أن جنوب مصر يسمى ببلاد النوبة منذ القديم.

---

(26) Russell, Michael: **Nubia and Abysinnia**, edition ?, HAPPAR & BROTHERS, New-Work, 1842, pp 1617-.

(27) Russell: **Ibid**, p 20.

هذه التوليفة العرقية بين الآسيويين والأفارقة، كانت محط استغراب المحلّلين، فالآسيويون لهم -مثلاً- شعورٌ مستقيمة ومسترسلة، أما الأفارقة فلهم شعور صوفية مجعّدة ومكتظّة، بينما سكّان أعالي النيل -رغم سواد بشرتهم- فشعورهم ليست مجعّدة ولا هي صوفية[28]. ويضيف (رسّل) أن الأثيوبيين عموماً منحدرون أساساً من العرق العربي، علاوة على التشابه في اللغة[29]. مما يؤكد أن الجنس العربي كان قد تشكّل -هو الآخر- جرّاء الهجرات السابقة الذكر، ولعل قدماء اليمنيين خير دليل على ذلك، علاوة على أن أثيوبيا -إلى جانب تسميتها من قبل (هيرودوتس) بهذا الاسم- فهي تُسمّى أيضاً (الحبشة) وهي إما أن تكون قبيلة أو آلهة يمنية قديمة.

نجد -في وقتنا الحاضر- سكّانَ الجنوب الليبي، على طول الخط الصحراوي الفاصل بين أدغال أفريقيا الاستوائية وسواحل الشمال الأفريقي، أنهم من ذوي بشرةٍ متوسطةٍ بين السواد والبياض. وقد صدق العربُ عندما جعلوهم فاصلاً بين (السودان) و(البيضان)، ويقصدون الزنوج في الجنوب والبيض في الشمال. وتتنوع هذه الأقوام في مسمياتها بين التبو والفزازنة والتوارق.. وجميعهم يشترك في السُمرة المتوسطة بين السواد والبياض، وكان قديماً الجرمنتيون وتوابعهم يعمّرون نفس الأماكن ويجاورون الزنوج في الجنوب، وسيحين الحديث عنهم لاحقاً. وهنا يتساءل المرءُ عن سبب هذا التلوّن: هل له علاقةٌ ما بما حصل من اندماج في السلالات والأعراق بين الآسيويين والأفارقة كما سبق الذكر، أو نكتفي فقط بإرجاع ذلك إلى البيئة الطبيعية التي تفعل فعلتها في الإنسان عندما يطيل فيها البقاء؟

وللبحث عن إجابة مناسبة لهذا السؤال، يمكننا -من حيث المبدأ- اعتماد نظرية الاختلاط في الأجناس كما هو موضّح أعلاه، ولا ننكر الأثر البيئي أيضاً. وقد نجد ذلك جلياً

---

(28) Russell: **Ibid**, the seame page.

(29) Russell: **Ibid**, p 21.

على ملامح قدماء الليبيين التي احتفظت بها الوثائق المصرية القديمة، وهي أدلّةٌ حيةٌ يمكننا مشاهدتها والحكم عليها. حدث ذلك عندما بدأت القبائل الليبية القديمة تُعرف بأسمائها الخاصة لدى الأوساط الحكومية المصرية. وهي قبائل يبدو أنها انساحت من الجنوب الليبي بعد أن غلب عليه التصحر والجفاف، فطفقت تبحث عن مروج ومياه بديلة. وذلك مثل قبائل (التحنو أو التمحو) و(الليبو أو الريبو) وغيرهما. فأفراد قبيلة التحنو التي ذُكرت في وثائق تعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، تشوب وجوهَهم السُمرةُ المحمرّة مع شعر مُجعّدٍ ولحى قصيرة. وأفراد قبيلة التمحو التي هي جزء من التحنو ظهروا في بعض اللوحات ببشرة فاتحة وشعر يميل إلى الشُقرة وعيون زرقاء. أما الليبو أو الريبو فيبدو أنهم امتداد للتمحو فظهروا أيضاً ببشرة بيضاء وشعور حمراء وعيون زرقاء. ومع ظهور المشواش على النقوش المصرية بدأت ملامح قدماء الليبيين تتضح بشيء من الخصوصية باعتبارهم من الموجات المستقرّة سلمياً بالدلتا وبكثافة غير مسبوقة، ويمتازون منذ القديم باللحية المدببة والريشة فوق الرأس والأشرطة المتقاطعة عند الصدر والمعطف والأزرار والذيل. ومع المشواش اشتركت قبائل ليبية أخرى في الغزوات على مصر والدخول السلمي إليها. وجميعها يغلب عليها ملامح السُمرة في البشرة والحمرة في الشعر، وأحياناً يكون الشعر على هيئة ضفائر سوداء منسدلة على الجانبين. ومثل هذه القبائل: الإسبت، والقبت، والشكتن، والبقن، والكيكش، والسبد، والقهق) وغيرها[30].

3- ولكن كيف ومتى عُرف سكان تلك الأماكن بالليبيين؟

اختلف الدارسون في سبب تسمية ليبيا وسكانها الليبيين بهذا الاسم. فمنهم من أرجع ذلك إلى كتب العهد القديم التي ذكرت علاقة العرق أو الأخوّة بين كل من (فلشتيم) وهو جد

(30) للمزيد حول هذه القبائل وملامحها، أنظر: موسوعة تاريخنا، الكتاب الأول: **<u>ليبيا من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن السابع الميلادي</u>**، ط؟، ؟، دار التراث، ؟، ص ص97-112.

الفلسطينيين، و(مصراييم) وهو جد المصريين، و(لوبييم) وهو جد الليبيين. وهذا الاسم الأخير ذُكر بعدة صيغ، مثل: (لوهابيم) و(لهابيم) و(لوبيم).. والمعروف عن اللغات العروبية الأولى المشتقة منها اللهجةُ العبريةُ تستعمل الـ(يم) للجمع أو التنوين أو التنسيب، وفي العربية الحديثة استبدلت الـ(يم) بالـ(ين) وتفيد الجمع أو التنوين (بالكسر)[31]. وهذا يعني أن هذه الأسماء إما أن تكون أسماء أقوام أو أسماء أشخاص معيّنين. وقد ورد في أسفار اليهود ذكرُ الليبيين عندما فتح الفرعون الليبي/المصري (شيشنق الأول) بيت المقدس وأخضع فلسطين والشام لحكمه.

أما النقوشُ المصريةُ فقد كانت تذكرُ كلَّ القبائل الواقعة غرب النيل بأسمائها أحياناً، مثل (التحنو أو التحمو) و(الريبو أو الليبو).. وتسميهم جميعاً أحياناً أخرى باسم (إمنت)، وهو لفظ اتضح بعد شرحه أنه يعني (اليمين) بحكم وجود الليبيين على يمين النيل عندما يقف المصريُّ القديمُ قبالة منبع النيل، فتأتي ليبيا على يمينه. قيل أيضاً أنها تعني أرض (الموت) لأن الشمس تغرب أو (تموت) فيها على حد اعتقادهم. ومن المعروف أن كثيراً من العلوم المصرية القديمة برزت بفضل اهتمامهم بحركة جريان النيل ومواسم انحساره وفيضانه وكافة تصرفاته، كذلك دراسة الاتجاهات. ومن المعلوم -أيضاً- أن الصحراءَ التي تلي النيل من جهة الغرب كانت تسمى في الخرائط القديمة (الصحراء الليبية) ثم تغيرت لاعتبارات -ربما تكون سياسية- إلى (الصحراء الغربية).

هكذا وُجدت أسماءُ القبائل الليبية في النقوش المصرية القديمة، إلى أن بدأوا يُعرفون بـ(الليبيين) ربما كان ذلك مشتقاً من أكبر القبائل التي كانت لها تفاعلات على نحو ما مع جيرانهم المصريين، وهي قبيلة (الليبو) أو (الريبو) لأن حرفي الراء واللام يتعاقبان في اللغة المصرية القديمة. وعندما جاء المؤرخون الإغريق إلى ليبيا زمن الدولة (القورينية) ومن أشهرهم

---

(31) تعرّض كثير من العلماء لمسألة الفرق بين التمييم الأكدية والتنوين العربية، أنظر مثلا: سليمان **مصدر سابق**، ص 205.

(هيرودوتس) اعتمدوا في تاريخهم اسم (ليبيا) و(الليبيين) في مواقع كثيرة ضمن كتاباتهم التي وصفوا فيها هذه المنطقة وأهلها. ولم يخصصوا هذا الاسم فقط للمنطقة الشرقية التي تشغلها القبائل المذكورة آنفا، وإنما وسّعوه ليشمل كل القبائل الأخرى البعيدة عن (قورينا) بما في ذلك قبائل (الجرمنت) التي كانت تسيطر على الخط الصحراوي بين جبل العوينات شرقاً وجبال تاسيلي غرباً. وهي الجبال التي وجدت فيها كهوف من سبقهم من أقوام إبّان العصور الحجرية الأولى. ويتضح من الخريطة التي تخيّلها هيرودوتس للعالم القديم أنه سمّى القارة الأفريقية المجهولة وقتها باسم (ليبيا) جاعلاً الصحراء الكبرى نهايتها من جهة الجنوب، كما اعتقد أن النيل كان ينحدر من جبال أطلس.



نموذج الخريطة التي تخيّلها هيرودوتس للعالم القديم، حيث قسّمه إلى ثلاث قارّات: أوروبا وآسيا وليبيا (تُرجمت عن Wikipedia).

تلك القبائل الليبية التي نبذ أجدادُها الكهوفَ وخرجوا إلى العراء، وامتهنوا أنواعاً مختلفة من الأنشطة الحياتية، سواء أكانوا من سكان الشمال أو من سكان الجنوب، ربما يكونون من سلالة ساكني الكهوف الأوائل. أو ربما اختلطت بهم أقوام أخرى جاءت مهاجرة عبر

برزخ السويس من جهة الشمال (الوجه البحري)، وعبر باب المندب من جهة الجنوب (الوجه القبلي). علاوة على الاختلاط الدائم الذي حصل بينهم وبين جيرانهم المصريين. وحتى هؤلاء الجيران لم يكونوا غرباء عنهم. فقد ذكر المؤرخون أنه عندما زحف التصحر على المنطقة الجنوبية من ليبيا، هاجر أهلها إلى الشرق وسكنوا الصعيد ثم الدلتا. واختلطوا مع من هاجر من وسط الجزيرة العربية بعدما تصحّرت هي الأخرى، وشكل جميعهم نواة الأسرات المصرية الأولى، التي قام الفرعون (نعرمر) أو (مينا) بتوحيدها فيما بعد.

4- أسماء القبائل الليبية في العصر الكلاسيكي:

يعتقد (أوريك بيتس **Oric Bates**) أن أسماء القبائل الليبية القديمة الواردة في الوثائق المصرية قد لا تكون كلها أسماء قبائل، وإنما أسماء مجموعات مكوّنة للقبائل التي دخلت إلى مصر وتعرّف عليها المصريون عن كثب. ويقسّمها كما يلي[32]:

أولاً: المجموعات:

1- تحنو (**Tehenu**): لم تُفرّق الوثائق المصرية بادئ الأمر بين الـ(**thnw**) كمجموعة بشرية والـ(**thnw**) كإقليم، إلى أن كثرت الغزواتُ، فبدأت تلك الوثائق تشير إلى الأماكن الآهلة بالسكّان غربي النيل وشمالي منطقة الزنوج على أساس أنها بلاد التحنو. وتذكر ذلك بصيغ الجمع مثل: (بلدان التحنو) و(رؤساء التحنو).

2- تمحو (**Temehu**): وتذكرها الوثائق المصرية على أنها بلد (**tmh**). ويبدو واضحاً أن التمحو جزءٌ من التحنو، وأنهم يُعدّون أكثر من قبيلة واحدة، حيث توسّعوا كثيراً في محيطهم الجغرافي. لقد ظهر التمحو في الوثائق على أنهم مجموعة قبائل، مثل: (إرطت، مازُوِي،

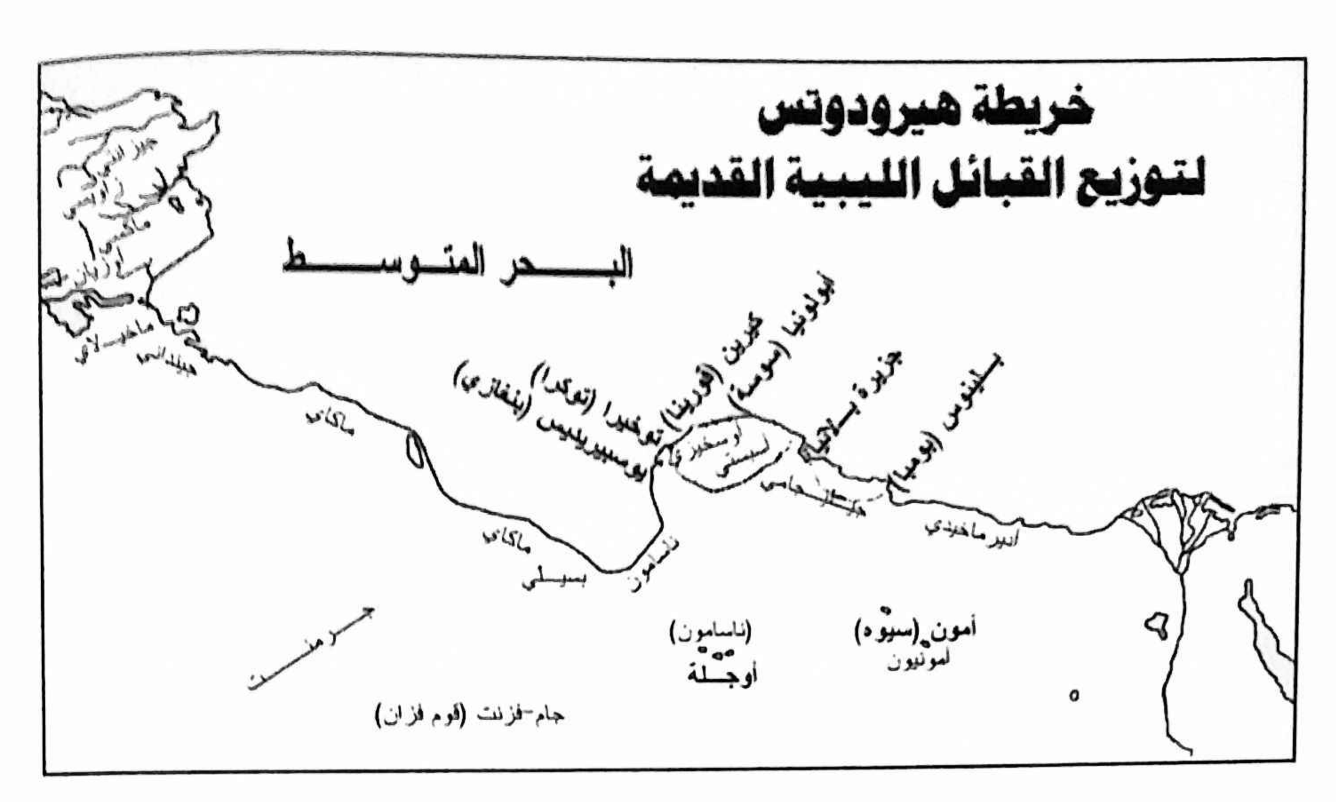
---

(32) About the Old Libyan tribes see: Bates: <u>**Op. Cit**</u>., p p 46 ...

يام، وَاوَات، كذلك زنوج الكاو الجنوبيين).

3- ريبو (**Rebu**): لقد استقرّت فرقة الـ(**r'bw**) في الشمال كمجموعة واحدة. ثم تفرّعت إلى قبائل، خصوصاً في العهد الكلاسيكي. وهي القبيلة التي قادت الإغريق إلى إطلاق اسمها على كل سكّان الشمال الإفريقي، أي الـ(ليبو) مع إبدال اللام براء. إلاّ أن المصريين اعتبروها أقوى القبائل التي غزتهم. ولا يزال اسمُهم مقروناً بـ(مرماريكا) التي تُسمى حالياً (حيطة الليبوك) جنوبي سيوه، كذلك (منقار الليبوك).

4- مِشْوِش (**Meshwesh**): ويشكّل الـ(**mšwš**) اتحاداً قوياً من مجموعة قبائل، تمكّنت من التغلّب على جيرانها الشرقيين واعتلاء سدّة الحكم في مصر. ويعتقد (بيتس) أن اسم (**mšwš**) قد يؤول إلى الاسم القديم (**mšu**) الذي يكافئ الاسم (**MZGH**) وهو بهذه التركيبة اللغوية يشبه اسم إحدى القبائل الليبية القديمة المذكورة في الكتابات الكلاسيكية هكذا (**MaXY-es**)، ويعلّق (بيتس) على أن الـ(**Maxyes**) ليس بالضرورة أن يكونوا أسلاف الـ(مشوش)، ويشك في صحة ما ذهب إليه أحد البُحّاث الذي اعتقد أن تلك الأسماء لها علاقة -ما- بالجذر (مازيغ).



خريطة توزيع القبائل الليبية القديمة حسب هيرودوتس (تُرجمت عن أوريك بيتس ص53)

ثانياً: القبائل:

أما القبائل المتفرّعة من المجموعات السابقة فقد أوردها المؤرخون والجغرافيون والكتّاب الإغريق كل حسب رؤيته ومعلوماته، ونكتفي -هنا- بالتصنيفات التي قام بها (هيرودوتس) في تاريخه المشهور. علماً بأن الكتّاب الكلاسيكيين إجمالاً يعتبرون أن ليبيا بمفهومها الجغرافي والتاريخي القديم تمتد من النيل شرقاً إلى الأطلسي غرباً ويحدّها جنوباً الأثيوبيون من ذوي البشرة السوداء والشعر الصوفي:

-1 أديرماخيدي (**Adyrmachidæ**): شغلوا المنطقة من دلتا النيل إلى خليج (بومبا) الذي يقع شرقي ليبيا حالياً (ميناء بلينوس قديماً).

-2 جيليجامي (**Giligamæ**): شغلوا المنطقة من خليج بومبا إلى الشرقية أو جزر الحمام.

3- أسبستي (**Asbystæ**): شغلوا منطقة غرب (قورينا) شحات حالياً، ولكنهم لم يقتربوا من الساحل المحتل من قبل القورينيين الإغريق.

4- آوسخيزي (**Auschisæ**): شغلوا المنطقة الملاصقة لبرقة من جهة الجنوب، ووصلوا إلى البحر من جهة بنغازي (Euesperis).

5- بكالي (**Bacales**): قبيلة صغيرة محاطة بقبيلة ال(آوسخيزي) وتلامس الساحل من جهة توكرا (Taucheira).

6- نساموني (**Nasamones**): أناس كثيرون جاوروا ال(آوسخيزي) من الجنوب الغربي، وامتدت أراضيهم من الساحل إلى العمق الداخلي، حيث كانوا يترددون على واحة أوجلة (Augila).

7- بسيلّي (**Psylli**): أناس انسحبوا من أرضهم على الساحل السرتي (حدث ذلك أيام هيرودوتس)، ويبدو أنهم استقرّوا بالأرض التي يشغلها النساموني.

8- ماكاي (**Macae**): شغلوا سواحل خليج سرت الكبرى غربي النساموني.

9- جينداني (**Gindanes**): جاوروا الماكاي من جهة الغرب. ويبدو أنهم من قبيلة أكلة اللوتس (Lotophagi) السابقة لهم في نفس المكان.

10- ماخلي (**Machlyes**): شغلوا الأرض الواقعة غربي (أكلة اللوتس) والقريبة من نهر تريتون.

11- آوزيون (**Auseans**): وهم مثل الماخلي الذين انشقوا عنهم وفصل بينهم نهر تريتون، حول بحيرة تريتونس (شط الجريد حالياً).

12- ماكسيي أو ماسيي (**Maxyes**): شغلوا الأرض الواقعة بعد الآوزيين.

13- زاويسي أو زابيسي (**Zaueces or Zabyces**): شغلوا الأرض الموالية لأرض الماكسيي.

14- جيزانتي (**Gyzantes**): موالون للزاويسي.

15- الجرمنت (**Garamantes**): في الدواخل، على بعد مسيرة عشرة أيام غربي واحة أوجلة (Augila) وشمالي فزّان (Phazania)، جيران الأثيوبيين وقبيلة التروجلودايت (Troglodyte) ربما التي تُعرف اليوم بالدوّادة (بحيرة قبر عون).

16- جامفزانت (**Gamphasantes**): توحشوا في الصحاري جنوبي النسامون، يصفهم هيرودتس بالتفسخ وقلة الحيلة، ويسميهم أحياناً بالجرمنت.

17- الأمّونيون (**Ammonians**): سكّان واحة سيوه (أموني).

وإلى جانب خريطة هيرودوتس قدّم بعضُ الجغرافيين الإغريق الآخرين خرائط قد لا تختلف كثيراً عن خريطة هيرودتس، وذلك مثل (سيلاس Scylax) و(سترابو Strabo) و(ديودور سيكولوس Diodorus Siculus) وغيرهم.

وقد شهدت المدة الواقعة بين الألف الأول قبل الميلاد وبداية الألف الأول بعده، حركةً تاريخيةً وسكانيةً وحضاريةً شديدةَ التنوع، لم تشهد المنطقة مثيلاً لها في السابق. ففي تلك الفترة كان الجرمنتيون يحرسون صحراءهم ويذودون عنها، وكان التحنويون والمشواشيون مشغولون باصطياد الفرصة للاستيلاء على حكم مصر، حتى تمكنوا منه أخيراً بقيادة (شيشنق الأول). وكان الفينيقيون يجوبون سواحل حوض البحر المتوسط، حتى استقروا أخيراً في بحيرة تونس، وبنوا فيها مدينتهم الجديدة (قرطاج). وكان البدو من سكان (نوميديا) بالجزائر، والموريتانيون بين المغرب وموريتانيا الحاليتين، يلتفون حول زعمائهم (أغاليدهم)، في محاولة منهم لتقوية شوكتهم أمام ما ينتظرهم من تحديات. وكان الإغريق يبنون مدينتهم في الجبل الأخضر (بليبيا حاليا)

ويوسعونها بإنشاء الموانئ والمرافق المكملة لها. وكان العرب من اليمن يتوافدون على الشمال الأفريقي زرافات زرافات على هيئة قبائل شتى. وكان الرومان المزاحم الرئيسي للإغريق يتحين الفرص لابتلاع الأرض والقضاء على قرطاج وبناة حضارتها من الليبونيقيين. ثم جاء (الوندال) عبر مضيق جبل طارق ليلقي بثقله في خضم الأحداث، ويخرّب ما عن له تخريبه..

في تلك الأثناء عرفت بلاد الشمال الأفريقي التي اصطلح على تسميتها بـ(ليبيا) كثيراً من الأحداث والصراعات والحروب. كما شهدت كثيراً من المعالم الحضارية على كافة الأصعدة، خصوصاً في مجالات الزراعة، فغُرست أشجار الزيتون والنخيل، وأقيمت معاصر الزيت ومطاحن الحبوب. وعُرف الحصان والجمل واستعملا خير استعمال. وتم استطلاع العديد من الأماكن عن طريق الرحلات البحرية التي عُرف بها المغامرون البونيقيون.. وغيرها من الخصال التي سجلها التاريخ لقدماء الليبيين بعد اختلاطهم بإخوانهم الفينيقيين أصحاب الحضارة الراقية، فنبذوا الترحال والبداوة واستقروا وتحضروا.

أما الإغريق والرومان والوندال فلم يبق لهم أي أثر يُذكر في ليبيا، إذ عاد معظمهم من حيث أتى، وأما الفينيقيون واليمنيون وكل القادمين من الشرق، فاختلطوا مع إخوانهم الليبيين الأوائل وصاهروهم. فاندمجت دماؤهم، وانصهر جميعهم في بوتقة المجتمع الليبي الجديد، إلى أن جاء الإسلام، فزاد من وحدتهم وتماسكهم. وصار المغرب العربي الكبير تاجاً مرصعاً باللآلئ يزدان به رأسُ القارة السمراء، ورافداً عظيماً من روافد أمة العروبة والإسلام.

رابعاً: الجرمنتيون (في الجنوب): الأصول الأولى:

تميل بعض المصادر الغربية إلى وضع الجرمنتيين بقائمة شعوب البحر، ربما شعوب البحر التي كان قدماء الليبيين يستجيشونها من حين لآخر عند غزواتهم على دلتا النيل. وربما اعتمد

أصحاب هذا الرأي على البحوث الأنثروبولوجية التي أجريت على مخلفات قبور الجرمنت **أنهم كانوا ينتمون إلى أربع مجموعات رئيسية: إثنان منها بيضاء وواحدة زنجية والأخرى مزيج من هذه السلالات معاً**. ولكن واقع الحال يقول أن معظم الشعوب التي جاءت من المناطق البحرية أو الشمالية لم يسجل لها التاريخُ استقراراً في الصحراء. وذلك مثل الفينيقيين القادمين من سواحل الشام الذين استقروا في الأماكن الشبيهة ببيئتهم الأولى: قرطاج وسواها. والإغريق القادمين من الجزر اليونانية الذين استقروا في الجبل الأخضر الشبيه بجبالهم الأولى. وكذلك الحال بالنسبة للرومان باستثناء فرق أوغستا المكلّفة بحراسة الحدود الفاصلة بين مدنهم الساحلية ورمال الصحراء وقد استخدموا العنصر الوطني في الغالب. بينما نرى الجرمنتيين يتوغلون في الصحراء بخبرة ومهارة نادرتين ويسيطرون عليها بطريقة لا يمكن أن يقوم بها غير متمرس بالصحراء وخبير بمجاهلها، فسكنوا الواحات وغرسوا أشجار النخيل واستأنسوا الحصان، وتحكموا في مداخل ومخارج طرق القوافل التجارية الصحراوية ومارسوا –في البداية– حياة أشبه ما يمكن بحياة العرب بما فيها من بداوة وترحال. علماً بأن زمنهم (في حدود الألف الأول قبل الميلاد) لم يكن مطيراً ورطباً كما كان منذ أربعة آلاف سنة، بل كان التصحر قد استفحل وفعل فعلته في تلك الأماكن القاحلة، باستثناء ما خلفه العصر المطير من مخزون مائي مدفون تحت الأرض، فاستخرجوا منه ما يكفيهم في حياتهم البسيطة، والتي من خلالها بنوا إمبراطورية مترامية الأطراف وتركوا أثراً حضارياً هائلاً على صفحات تاريخهم الصحراوي.

ولعل إحدى الأسباب التي أوحت إلى أصحاب فكرة أن الجرمانتيين منحدرون من أصول شعوب البحر هي التسمية (جرمنت) لشبهها مع تسمية (جرمان) نسبة لتلك الموجات البشرية التي تأتي عادة من بلاد الجرمان (الألمانية) مكتسحة بهمجيتها وصلفها أوروبا وشمال أفريقيا، وكان آخرها موجة الوندال في القرن الخامس الميلادي. إلاّ أن أصحاب هذه الفكرة لم يتعرضوا لمسألة التسمية هذه صراحةً وإنما تركوها تلميحاً وإيحاءً. وعند تفحصنا لهذه التسمية ومقارنتها بالبيئة الحياتية العامة التي كان الجرمنتيون يعيشون فيها، لاحت لنا بوادر تشير إلى

علاقات ما بالعرب تستحق الدرس ومزيد التمحيص للخروج بنتيجة تخلّص الجرمنتيين من تبعيتهم لشعوب البحر المفترضة، لأن (الجرم) في اللغة العربية (حسب ابن منظور) **يعني القطع: جرمه يجرمه جرما (أي قطعه)، وشجرة جريمة (أي مقطوعة)، وجرم النخل والتمر، يجرمه جرما وجراما، وجرمه (أي صرمه) وهو جارم، وقوم جرم وجرام، وتمر مجروم. وأجرم التمر (أي حان جرامه وقطعه)، والجرام والجريم (هما النوى وهما التمر اليابس أيضا)، والجرمة: القوم يجترمون النخل (أي يصرمونه ويقطعونه)**[33]. إذن، فالجرمنتيون أو الجرميون هم قوم يجرمون النخل ويصرمونه ويقطعونه، وجرمة هي مكان جرم النخل والتمر. والواقع أن مدينة جرمة -كواحة صحراوية- تمتاز بشجرة النخيل التي تمنح صاحبها مزايا عديدة: تفيء عليه بظلالها وتجود عليه بثمارها وتسقيه من رحيقها وعصيرها وتساعده على بناء مسكنه وصنع أدواته.. وليس جرمة وحدها من أُخذ إسمها من خصوصيتها، فهناك مثلا مدينة (صرمان) هي أيضاً من صرم وجرم وقطع النخيل المشهورة به، وهناك (تاورغا) من الورغ أو الورق أو اللون الأخضر الذي يضفيه عليها نخيلها. وفي المغرب الأقصى، وكذلك في الجزائر، هناك (سجلماسة) وهي في أصل (تجلمت) س:ت مؤنث (جلم): جرم (أي القطع والصرم) لأن مقص الصوف يسمى (جلم) وخصوصيته القطع أيضا.[34]

في هذه الحالة يكون الاسم (جرمنت وجرمة) بعيداً كل البعد عن التسمية الألمانية (جرمان)، والشق الثاني من هذا الاسم (مان: **Men**) نجده في إحدى أسمائهم في العصور الوسطى (نورمان: **North Men**) فيزيد في توسيع الهوة بين (الجرمان) الألماني و(الجرم)

---

(33) إبن منظور: **معجم لسان العرب المحيط**، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، ط؟. بيروت/لبنان، دار لسان العرب، ؟.

(34) ظاهرة استبدال التاء بسين ظاهرة لهجية قديمة تسمى (الوتم) مثل: النات: الناس.. أما ظاهرة استبدال اللام براء والعكس فهي قديمة أيضا، ولعلها أوضح في اللغة المصرية القديمة، مثل: ليبو: ريبو..

العربي. وانطلاقاً من عربية الاسم يمكن استنتاج الأصول الأولى لهذه القبائل، والتي بدأتها البحوث الأنثروبولوجية حين أكدت بياض البشرة على غالبية الجرمنت. والبياض هنا ليس بالضرورة أن يختص به الأوروبيون وشعوب البحر. فالكنعانيون أيضاً يغلب عليهم البياض. وقد تأكد وجود الكنعانيين في شمال أفريقيا منذ فترة ما قبل التاريخ. وكان منهم سكان الجبال الجنوبية بأكاكوس وغيرها في العصر المطير. ولا تزال بقايا رسومهم على صخور تلك الجبال. إذ يبدو أن اختلاطاً قد حصل بينهم وبين الأجناس الزنجية منذ ذاك التاريخ الموغل في القدم. ومسألة اختلاط الجنسين الأبيض والأسمر واردة في تاريخ المنطقة، فالمؤرخ اليوناني هيرودوتس يسمي تلك الشعوب بالإثيوبية أي السمراء، والعرب أسموهم (السودان) عكس (البيضان)، وفي بشرة الأحباش مزيج بين هذا وذاك حتى يوم الناس هذا. وليس خافياً على أحد اختلاط الأحباش مع عرب اليمن منذ زمن حضارة سبأ وحمير وغيرهما، حتى أن (حبشت) في الأصل هي قبيلة أو آلهة يمنية، كما سبق الذكر. والمعلوم أيضاً أن خط الهجرة من الشرق إلى الغرب عبر باب المندب كان يسير على خط عرض متواز مع مدار السرطان من الصحراء العربية في الربع الخالي إلى الصحراء الكبرى في أفريقيا. وقد وُجدت في جرمة آثار لمزارع مدرجة على منحدرات الجبال ومصارف للتحكم في توزيع المياه وهي طرق يمنية. أما طلاء الجدران بروث الحيوانات فهي أيضاً عادة شرقية أكثر منها غربية. وقد ذكرنا في ما مضى من صفحات أن سكان جبل أكاكوس خرجوا من كهوفهم للعيش في العراء بعد أن توصلوا إلى صناعة المساكن خارج قواقعهم في المغارات والكهوف السابقة. وبعد الانقلاب المناخي هاجر منهم من هاجر واستقر منهم من استطاع التأقلم تدريجياً مع المناخ الطارئ. وبالنظر إلى الواقع الذي تعرضت له المنطقة لا يمكن أن نتصور أنها كانت منطقة جذب تغري أقوام البحر -أو من كان على شاكلتهم- للعيش فيها وتعريض أنفسهم للعنف المناخي الذي فرضته قسوة الطبيعة، إلاّ إذا كان من أهلها الأصليين أو كان قادماً من بيئات متشابهة. وبالنظر أيضاً إلى الرقعة الجغرافية التي كان الجرمنتيون يشغلونها ويتحركون فيها، وهي من الحمادة الحمراء شمالاً وجبال تيبيستي

جنوباً وجبال أكاكوس وتدرارت غرباً وجبال العوينات والكفرة شرقاً، ندرك أن الجرمنتيين قد جُبلوا على الحياة في تلك الصحاري وورثوها أباً عن جد، أو أنهم حملوا مقوماتها معهم من طبيعة مماثلة وبيئة مشابهة، ولم يكونوا طارئين عليها فجأة. وتبعاً لهذه القرائن يمكننا أن نفترض الفروض التالية:

-**الفرض الأول:** هجرات متواصلة منذ العصر المطير إلى ما بعد التصحر، قادمة من الشرق عبر المنفذ المشهور (باب المندب)، ربما كان ذلك عن طريق الحبشة الحالية في اتجاه الغرب، وهو الاتجاه المعهود لمثل تلك الهجرات. ولعل وجود (سلجماسة) وهي (تافيلالت حاليا) بالمغرب الأقصى على نفس خط العرض تقريباً مع جرمة يدعّم هذا الافتراض، كما لو كانت سجلماسة في الغرب (جنوب المغرب الأقصى حالياً) امتداداً طبيعياً لجرمة في الشرق (جنوب ليبيا حالياً).

-**الفرض الثاني:** أن سكان هذه المنطقة هم أحفاد سكان الكهوف القريبة من عاصمتهم (جرمة)، حيث آثروا البقاء في محيطهم ولم يتزحزحوا عنه بعيداً حتى بعد التصحر وزحف الرمال عليه.

-**الفرض الثالث:** توالت الهجرات المماثلة على نفس المكان، ربما من نفس المصدر، حتى تكوّنت تلك القبائل، مبتدئةً حياتها بالبداوة المفروضة على أفرادها، ثم عملوا بالزراعة الصحراوية المناسبة لجفاف المكان كالنخيل البعلي الذي يتحمل العطش خلافاً لغيره من الأشجار المروية.

-**الفرض الرابع:** كانت هجرات أخرى سوداء منهالة على المكان من الجنوب. ويبرر ذلك وجود آثار البياض والسواد وهجين بين هذا وذاك على مخلفات قبور الجرمنت.

-**الفرض الخامس:** لا نستبعد الرأي القائل بأن التوارق هم أحفاد الجرمنتيين. ويؤكد

أولاً: الجغرافيا الطبيعية (Physiography):

1- الموقع والتكوين الجيولوجي:

تشغل ليبيا الحالية مساحةً تبلغ **1,759,540** كلم مربع (**680,000** ميل مربع) من شمالي القارة الأفريقية. وهي تمتد من البحر المتوسط شمالاً حتى النيجر وتشاد جنوباً، ومن مصر والسودان شرقاً حتى تونس والجزائر غرباً. وبمقتضى هذا التحديد تقع ليبيا بين خطي طول **9°** و**25°** شرقاً، وأقصى امتداد لها في الشمال يصل إلى **33°** شمالاً في الشمال الشرقي، وأقصى امتداد لها في الجنوب يصل إلى **45' 18°** في طرفها الجنوبي الشرقي. وتمتد شواطِئُها على ساحل البحر المتوسط الجنوبي لمسافة **1900** كلم. كما أنها تتوغل في الداخل الأفريقي بمسافة حوالي **2000** كلم[1]. وأقدم التكوينات الجيولوجية تظهر على السطح غالباً في جنوب البلاد، وتتدرج في الحداثة كلما اتجهنا شمالاً نحو سواحل البحر المتوسط. ففي الأجزاء الجنوبية للبلاد تسود تكوينات الزمنين الأركي الأول وبعض تكوينات الثاني، أما في جبال نفوسة فتسود تكوينات الزمن الثاني، بينما تسود تكوينات الزمن الثالث في إقليم خليج سرت وفي الجبل الأخضر إلى الشمال من خط عرض **29°** شمالاً. ولكن يلاحظ في جميع الأقاليم أن مناطق كبيرة من التكوينات الجيولوجية القديمة قد اختفت تحت طبقات سميكة من الإرسابات الهوائية والفيضية التي تراكمت خلال الزمن الرابع والحديث، أو تحت صخور بركانية تراكمت نتيجة ثورات بركانية خلال عصور مختلفة[2]. ويعتبر **95%** من مساحة ليبيا صحراءً، وإن كان قسم من تلك الصحراء يتكوّن في الواقع من سهول استبس شبه صحراوية ومقفرة وقليلة التنوع، أما الـ**5%**

---

(1) شرف، د. عبد العزيز طريح: <u>جغرافية ليبيا</u>، ط3، 1996، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية/ مصر، ص ص4-5.

(2) شرف: <u>نفس المصدر</u>، ص ص14-15.

الباقية فتعتبر صالحة للاستغلال الاقتصادي[3]. ونتيجةً لعصر (البليستوسين) المطير، لم تكن الصحراءُ الليبيةُ قاحلةً كما هي عليه الآن، بل كانت غنيةً بالأوديةِ والمستنقعات وصهاريج المياه ومكتظةً بالأعشاب والغابات والأدغال ومليئةً بأنواع عديدة من الحيوانات وعامرةً بالعديد من السلالات البشرية المتنوّعة. والدليل على ذلك خزّاناتُ المياه المتراكمة تحت طبقات الرمال الحالية، علاوة على مخزون النفط المتكّون من البقايا العضوية لعظام الحيوانات وجذوع الأشجار المتخمّرة في باطن الأرض. لقد زحف التصحّرُ وغمرت الرمالُ المكان عقب تغيّر المناخ خلال عصر (الهولوسين) الحارّ الذي بدأ يحيل مناخَ المنطقة من مطير إلى جاف منذ بداية العشرة آلاف سنة قبل الميلاد.

2- التضاريس:

الصحراء الليبية عبارة عن هضبة مترامية الأطراف تنحدر تدريجياً بصفة عامة نحو الشمال حتى تنتهي -في بعض المناطق- عند ساحل البحر المتوسط، مثل المنطقة الوسطى الممتدة حول خليجِ سرت، وحوافّها الشمالية المتمثلة في الجبل الأخضر وهضبة البُطنان في الشرق وجبل نفوسة في الغرب، وكلاهما قليل الارتفاع إذ يتراوح ارتفاعُهما بين **600** و**700** متر فقط على مستوى سطح البحر، ويقلّ الارتفاعُ عند هضبة البطنان والدفنة. وتفصل هذه الجبال عن البحر أحياناً بعضُ السهول مختلفة الاتساع، إلاّ أن أوسعَها على الإطلاق يكون سهلُ الجفارة المحصور بين جبل نفوسة والبحر. أما في الجنوب فنجد بعضَ المناطق الجبلية التي يزيد ارتفاعها عن ارتفاع الجبال الساحلية، وهذه الجبال هي: العوينات في أقصى الجنوب الشرقي، وجبال الهروج الأسود والأبيض ثم جبل السودة التي تحد حوض فزّان من ناحية الشمال

(3) البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: **التاريخ الليبي القديم**، ط1، 1971، دار صادر، بيروت/ لبنان، ص10.

الشرقي، وكذلك جبال تاسيلي وتمو وتيبستي التي تحد نفس الحوض من ناحية الغرب والجنوب.

وفي قلب الصحراء هناك عدة أحواض منخفضة ساعدت على نشأة كثير من الواحات بسبب سهولة الحصول على المياه الجوفية فيها، وذلك مثل الواحات الشمالية التي تبدأ بالجغبوب شرقاً وتنتهي بغدامس غرباً مروراً بجالو وأوجلة ومرادة والجفرة. والواحات الجنوبية التي تبدأ بمجموعة واحات الكُفرة شرقاً وتنتهي بواحات فزّان التي تتبعها أيضاً واحة غات. إضافة إلى الواحات هناك عدة أودية كانت في الزمن المطير مجار لأنهار دائمة، فصار بعضُها جافّاً وبعضها الآخر موسمياً، مثل وادي الفارغ الذي ينتهي في خليج سرت، ووادي البي الكبير الذي ينتهي في سبخة تاورغا، والواديان الكبيران اللذان يخترقان حوض فزّان وهما الشاطئ والآجال.

وإلى جانب الكثبان الرملية وأعظمها بحر الرمال على الحدود المصرية، يغطي الحصى مناطق واسعة أخرى مثل منطقة السرير بين واحتي جالو وتازربو، ومناطق أخرى أصغر منها، وهي أشد مناطق الصحراء فقراً في مظاهر الحياة النباتية والحيوانية، ولكنها أسهل من بحور الرمال في السفر والتنقل. بينما توجد كتل صخرية بلا رواسب رملية أو حصوية تسمى محليّاً (الحمادة) وأعظمها اتساعاً الحمادة الحمراء في الغرب، وأصغر منها حمادة مرزق في الجنوب[4].

بكل تأكيد أن هذه الظروف القاسية التي آل إليها المناخ الليبي لم يكن كذلك قبل الألف العاشر قبل الميلاد على أقل تقدير. فقد كانت هذه المناطقُ مناطقَ جذب تغري الإنسان للعيش فيها، تماماً كما حصل -فيما بعد- في كل من وادي النيل وبلاد ما بين النهرين. لذلك نرى أن حضارات رائدةً كانت قد قامت على نفس هذه التضاريس خصوصاً الجبلية منها، سواءً كانت الشمالية أو الجنوبية، وما الفرق بين ذاك الزمن وهذا الزمن إلاّ الانقلاب المناخي الذي طرأ عليها، فغادرها سكّانها تدريجياً بحثاً عن أماكن تتوفر فيها المياه، فكانت الوجهة غالباً إلى البلاد المصرية التي يجري فيها النيل بصورة دائمة. أما الأقوام التي استطاعت التأقلم مع

(4) للمزيد حول تضاريس ليبيا يُرجع مثلًا إلى: شرف: **مصدر سابق**، ص ص22-27.

تلك الظروف المناخية القاسية، فقد سكنت الواحات واستقرّت فيها معتمدة فقط على الزراعة البعلية وبعض الآبار التي تتيح ما يكفي من مياه الشرب، وذلك مثل واحة جرمة التي أقيمت فيها حضارة الجرمنتيين ذائعة الصيت لدى الكتّاب اليونانيين القدامى.

وإذا تجاوزنا الحدود الوهمية إلى زمن ما قبل ترسيمها من قبل الحكومات التي احتلّت المنطقة: بريطانيا في الشرق وفرنسا في الغرب، والاتفاقيات التي أجرياها مع الدولة العثمانية، سنجد أن الصحراء الليبية تمتد شرقاً بدون فواصل لتشمل واحات سيوة والداخلة والخارجة والفرافرة[5] وغيرها من الواحات الصحراوية التي تدخل حالياً ضمن حدود القطر المصري الشقيق، وهي الأماكن التي كان ينطلق منها قدماءُ الليبيين نحو النيل، والتي كانت مسرحَ صراعِهم مع فراعنة مصر. أما في الغرب فكان سهلُ الجفارة ينتهي في خليج قابس[6] ويضم إقليمي ورغمّة ونفزاوة الواقعين حالياً ضمن حدود القطر التونسي الشقيق، وكانت طرابلس وموانيها الشرقية القديمة تقع ضمن حدود الدولة القرطاجية، خصوصاً بعد ترسيم الحدود بين قرطاجة وقورينا (قوس الأخوين فيلليني)، وكذلك زمن الدولة النوميدية. وهذا يعني أن الحدودَ الوهميةَ الحاليةَ لم تكن واردةً على خارطة ليبيا الكبرى القديمة التي كانت تمتد من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً حسب تعريف المؤرخين والجغرافيين اليونانيين الكلاسيكيين.

---

(5) See Bates, Oric: **The Eastern Libyans**, 1st edition, 1914, Macmillan & Co. London, p p 119-.

(6) See also Bates: **Ibid**, the same pages.

ثانياً: عصور ما قبل التاريخ (Prehistory):

1- تقسيم عصور ما قبل التاريخ:

يُقسِّم علماءُ الجيولوجيا (Geology) الزمنَ الرابعَ، وهو ما اصطلح على تسميته بعصر ظهور الإنسان، إلى قسمين رئيسيين:

* **القسم الأول**: ويسمى البليستوسين (Pleistocene)، أي الجديد، وهو عصر الجليديات الشمالية، وامتد قسمُه الأدنى **Lower** من **3** ملايين سنة إلى **700** ألف سنة، وقسمُه الأوسطُ **Middle** من **700** ألف سنة إلى **150** ألف سنة، وقسمُه الأعلى **Upper** من **150** ألف سنة إلى **15** (أو **10** آلاف سنة قبل الميلاد، حسب اختلاف الأماكن).

* **القسم الثاني**: ويسمى الهولوسين (Holocene) أي الجديد جدًا أو الحديث، وهو العصر الدافئ الجنوبي، وامتد من **15** (أو **10** آلاف سنة) قبل الميلاد إلى الآن[7].

ويُقسِّم علماء السلالات (Anthropology) تطورات النوع الإنساني إلى المراحل الرئيسية التالية، وهي تصنيفات تساير نظريات التطور والنشوء والبقاء للأفضل التي بدأها أول مرة العالم البريطاني (شارلز داروين):

* الأوسترالوبيتيك (Australopithecus) ظهر بكافة مراحله بين **6** و**3** مليون سنة في أثيوبيا وتنزانيا وكينيا وغيرها من المواقع الأفريقية.

* الهومو-هابيل (Homo-Habilis) أو الإنسان الصانع، ظهر بأفريقيا ويبدو أنه لم يغادرها، أرّخ بحوالي **2,5** مليون سنة.

---

(7) أنظر مثلًا: محيسن، د. سلطان: **عصور ما قبل التاريخ**، ط؟، 2003-2004، منشورات جامعة دمشق/ سوريا، ص22.

* الهومو-إيريكتوس (**Homo-Erectus**) أو الإنسان منتصب القامة، عُثر عليه في جزيرة جاوا، أرّخ بحوالي **1,5** مليون سنة.

* إنسان النياندرثال (**Neanderthal**) وهو الأكثر تطور من حيث شكله الفيزيولوجي وإنجازاته، عُثر عليه أول مرة في وادي (النياندر) بألمانيا، أرّخ بحوالي **200,000** سنة.

* الإنسان العاقل (**Homo-Sapiens**) عُثر عليه أول مرة في موقع (كرومانيون) بفرنسا، أرّخ بحوالي **40 – 35** ألف سنة ق.م.[8]

ويُقسِّم علماءُ الآثار (**Archaeology**) زمنَ نشاط الإنسان على الأرض إلى عصور حجرية نسبة إلى الأدوات الحجرية التي استخدمت منذ العصر الحجري القديم **Paleolithic Age** إلى ميلاد المسيح (عليه السلام)[9]، فكانت كالتالي:

* العصر الحجري القديم الأدنى **Lower Paleolithic**- (2,500,000-200,000 سنة).

* العصر الحجري القديم الأوسط **Middle Paleolithic**- (200,000-40,000 سنة). أو (80,000-180,000 سنة).

* العصر الحجري القديم الأعلى **Upper Paleolithic**- (40,000-15,000

---

(8) للمزيد يُرجع إلى: محيسن: **نفس المصدر**، ص ص35-51.

(9) وردت اختلافات طفيفة بين محيسن: **نفس المصدر**، ص ص61-62، والبرغوثي: **مصدر سابق**، ص ص47-53، أوردناها كما هي، ويعود سبب الاختلاف أصلاً إلى اختلاف المواقع، فتاريخ بداية عصر حجري معين في هذا المكان ليس بالضرورة أن يكون هو نفسه في مكان آخر، وهكذا تنوعت التواريخ بتنوع المواقع الأثرية الموزعة بين القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأوروبا.

سنة ق.م.). أو (10,000-80,000 سنة ق.م.)

* العصر الحجري المتوسط (15,000 **Mesolithic**-10,000 سنة ق.م.). أو (7,500-10,000 سنة ق.م.).

* العصر الحجري الحديث (10,000 **Neolithic**-5,000 سنة ق.م.). أو (3,000-7,500 سنة ق.م.).

* عصر المعادن (5,000 **Chalcolithic**-3,400 سنة ق.م.) أو (3,000-1,400 سنة ق.م.) مضاف إليه العصر الحديدي من 1,400 ق.م. إلى مطلع التاريخ الميلادي.

ويُقسِّم علماءُ تسلسل التاريخ **Chronology** الزمنَ إلى قسمين، الأول: عصرُ ما قبل التاريخ **Prehistory** والثاني: العصرُ التاريخي **History**. ويعني عصر الكتابة والتدوين وما بعده، ويبدأ إجمالاً من الثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

كما تُقسَّم الحضارات الإنسانية القديمة (**Ancient Civilizations**) بحسب مواقعها وأدواتها الحجرية، فميّزها العلماءُ بأسماء المواقع المكتَشف فيها تلك الأدوات، مثل الحضارة (الآشولية **Asheulian**)[10] نسبةً للموقع الأثري المكتشف بفرنسا، وكذلك تعبيراً عن قدم العصر الزمني، وتعتمد على صناعة الفؤوس الحجرية القديمة. أو بنوعية الأدوات نفسها، مثل الحضارة (الميكروليثية **Microlithic**)[11] نسبةً إلى مرحلة متطورة وأكثر دقّة في صناعة الأدوات الحجرية، وفيها -مثلاً- إضافة المقبض إلى نصل الأداة الحادة وغيرها من الأدوات الدقيقة، وكذلك تعبيراً عن حداثة العصر الزمني. وكذلك الحضارة (العترية

---

(10) محيسن: **مصدر سابق**، ص57 وغيرها.

(11) محيسن: **نفس المصدر**: ص155.

Aterian) أو (القفصية Capsian)[12] نسبةً إلى (بئر عتر بقفصة)، أو الحضارة (اللفلوازية Levallois)[13] نسبةً للأدوات الحجرية المخطط لها سلفاً.

مناقشة جانبية: يتضح لنا -من خلال هذه التقسيمات- سببُ إصرار كتّاب القرن التاسع عشر الغربيين على إرجاع بعض سكّان الشمال الأفريقي (قدماء الليبيين) إلى أصول أوروبية. ويمكننا حصر ذلك -حسب اعتقادنا- في الفرضين التاليين:

الفرض الأول: الفرنسيون أول من اهتدى لاكتشاف المواقع الأثرية الحجرية في بلادهم، كان أشهرُها موقع وادي (سان آشول **Saint Acheul**). فامتلكوا -بذلك- قصبَ السبق في ارتياد علم الآثار وتأسيس المتاحف ما قبل التاريخية. ومن ثم نشطت حركةُ التنقيب الأثري حتى عمّت أوروبا. وعندما ارتادوا مواقع آسيا وأفريقيا التي لم تكن في بؤر اهتماماتهم، حملوا معهم مصطلحاتهم وأطلقوها على الحضارات المشابهة للمواقع الأوروبية. فإذا وجدوا موقعاً أثرياً محتوياً على فؤوس حجرية قديمة في آسيا أو في أفريقيا -وإن كانت أقدم زمنياً من المواقع الأوروبية- أطلقوا عليها مصطلح (آشولية) حفاظاً على توحيد المصلح حسب ادّعائهم. وتبعهم في ذلك البُحّاثُ والمؤرخون حتى وإن لم يكونوا أوروبيين. فبات الاعتقاد يميل إلى أنّ أوروبا هي موطنُ الإنسانِ الأول ومنطلقُ حضارته مهما كان نوعها. غير أن إطلاق مصطلح (آشولي) على موقع -ما- ليس بالضرورة أن يكون فرعاً ملحقاً بحضارة وادي (سان آشول) في فرنسا، بل لأنه -كما يقول الغربيون- مصطلحٌ أوليٌّ تعارف عليه العلماءُ وحافظوا على

(12) تشايلد، غوردن: **ماذا حدث في التاريخ**، ترجمة: د. جورج حدّاد، ؟، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/ مصر ص31.

(13) تشايلد: **نفس المصدر**، ص 32.

استخدامه تلافياً للازدواجية وتعدد المصطلحات المحلية، وكذلك من باب الحرص على توضيح الرسالة بين الكاتب وقارئه والأستاذ وتلميذه.

ب- قد تلعب النواحي التضاريسيةُ دورَها في هذه القضية. فأوروبا كانت مغطاةً بالجليد في عصر (البليستوسين)، بينما كانت أفريقيا تنعم بالعصر المطير. ومع دخول الكرة الأرضية تحت تأثير عصر (الهولوسين) الحار، انقشع الجليد عن أوروبا وتراجع إلى الشمال فانكشفت أرضُها، وانكشفت فوقها المواقعُ الأثرية وظهرت للعيان. بينما غمرت الرمالُ منطقةَ الحزام الصحراوي الحالي في كل من أفريقيا وآسيا، وربما غمرت معها مواقعَها الأثريةَ فلم تعد ظاهرةً للعيان كما هو الحال في أوروبا. ومن يدري أن هذه الجبال الهائلة من الرمال تجثم على صدر التاريخ وتخفي تحتها مواقعَ أثريةً موغلةً في القدم، مثلا: كشفت الأقمار الاصطناعية في السنوات الماضية عن آثار مدينة "**إرم ذات العماد**» المذكورة في القرآن الكريم مردومة تحت الرمال في منطقة ظفار بسلطنة عُمان، والتي يعود تاريخها حسب التقديرات الأولية إلى **2000** سنة ق.م. أو قبلها بكثير[14].

نستخلص من هاذين السببين المفترضين، أن علماءَ الآثار الغربيين أكثرُ عدداً وعدّةً ودرايةً بالعلوم الأثرية من سواهم، وأن المواقعَ الأثريةَ في أوروبا أكثرُ عدداً وأغنى مادةً من سواها. ونعتقد أن ذلك كان دافعاً مقنعاً -للبعض على الأقل- إلى القول بأن أوروبا كانت مهد الحضارة الإنسانية الأولى. ورغم أهمية موقع (أولدوفاي **Olduvai**) بشمال تنزانيا من حيث القدم والقيمة التاريخية، إلاّ أن بعض الأوروبيين يصرّ على القول بأن الإنسانَ العاقلَ انتقل من شرقي أفريقيا إلى فلسطين، ولم يمكث فيها طويلاً، إذ سرعان ما انتقل إلى أوروبا، فاستقر فيها وأسس حضارته الأولى، ومنها جاء أناس وعمّروا الشمال الأفريقي. ومع الاحترام الشديد لأية

---

(14) **International Herald Tribun**, Paris, Thursday, February 6, 1992, N° 33,884.

نظرية علمية غير مدحضة بنظرية أحدث وأقوى برهاناً، إلاّ أننا نعتقد أن ما ورد في الفقرتين السابقتين لا يزال مؤثراً ومسيطراً على العقلية الأوروبية ما لم ينهض علماءُ أفريقيا وآسيا بعلوم الآثار وتكثيف حملات التنقيب والنبش في أعماق التاريخ وامتلاك الأداة التي تمكّنهم من إظهار الحقيقة بدل النقل والأخذ الحرفي مما تجود به القريحة الأوروبية في هذا الصدد. ويعلّق الدكتور الناضوري عن شح الدراسات التي خُصّ بها التاريخ الليبي القديم: ''..**نستطيع أن نقول أن ليبيا بحدودها الحالية إنها متحف آثار كبير لم تُكتشف منه حتى الآن إلاّ زوايا قليلة، ولم يُفتح من مغالق كنوزه الحضارية سوى النزر اليسير**»[15].

2- العصر الحجري القديم في ليبيا:

ضمن نطاق الزمن الرابع، قد لا يبقى عصرُ (البليستوسين) المطيرُ بارداً ورطباً على الدوام، إذ تتخلله مراحلُ جفاف عندما تتراجع الموجات الباردة إلى الشمال، ما بالك في تراجع الجليد كلياً وإحلال عصر (الهولوسين) الحار محلّه. وهذه الحركة، حركةُ هجوم الجليد من الشمال إلى الجنوب، وانحساره من الجنوب إلى الشمال لها عدةُ تأثيرات على تضاريس الكرة الأرضية وأقاليمها المناخية، وذلك من حيث انخفاض أو ارتفاع مستوى المياه في البحار والمحيطات، فإذا انخفضت يجد الإنسانُ ملاجئ في المخابئ والكهوف المقابلة للشواطئ، وإذا ارتفعت وغمرت تلك الكهوف يغادرها أصحابها تاركين فيها مخلّفاتهم التي تترسب مع مرور الزمن. وكذلك التأثير على المناخ من حيث نزول الأمطار في الزمن المطير أو انعدامه في زمن الجفاف. مما يؤثر في امتداد أو تراجع الأقاليم النباتية والحيوانية التي تؤثر بدورها في تحركات الإنسان من حيث الاستقرار أو الهجرة.

---

(15) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص54.

وهذا يعني أن الصحراءَ الليبيةَ الحاليةَ كانت خلال العصر الحجري القديم والمتوسط تعج بالنباتات والحيوانات والناس، ولكن تزايد الجفاف في مناطق مختلفة من الأرض وخاصةً شمال أفريقيا والشرق الأوسط أدّى إلى هجرة الإنسان والحيوان وانقراض النباتات. لقد عُثر في صحراء سرت –مثلاً– على هيكل حيوان ضخم يسمى (المستدون Mastadon) وهو يضاهي حجم الفيل كامل النمو وله أربعةُ أنياب طول الواحدة ثمانية أقدام[16]، كومةُ عظامِه محفوظةٌ الآن بمتحف السراي بطرابلس. كما وُجدت في الصحراء الليبية أيضاً آثارُ حيوانات ضخمة أخرى كالفيل والزرافة والأيل ووحيد القرن وفرس النهر والنعامة، وغيرها من الحيوانات التي انقرضت ولم يبق منها بعد سنة **2500** ق.م.[17] سوى بعض الزرافات والنعامات التي لا يزال بعضُها يعيش حتى الآن.

ومن خلال الدراسات الجيولوجية التي يتم بواسطتها قياسُ ارتفاع أو انخفاض مياه البحار نتيجة هجمات الجليد أو تراجعه، تمكّن العلماءُ من دراسة الرسوبات المختلفة التي تجمّعت على الشواطئ. وعلى هذا الأساس فإن دراسةَ هذه الطبقات تُعطي الباحثَ صورةً عن الأحوال الجوية في عصور معيّنة، إلى جانب ما تكتنفه من آثار عظمية حيوانية وإنسانية وصناعات حجرية هامة. وإضافةً للدراسات الجيولوجية يقوم الجغرافيون وعلماء الجوّ القديم بالبحث عن أدلة أخرى تُثبت حدوثَ الهجمات المطيرة في تلك العصور، فاتجهت أبحاثُهم إلى دراسة الصحراء الكبرى التي تحدّثت المصادرُ الكلاسيكية عن خصوبتها. فقد عُثر فيها على عدد كبير من الأودية والبحيرات تعود إلى العصر المطير، مثل وادي (أغرار) الذي يبدأ من جبال (الهجار)

---

(16) البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: **التاريخ الليبي القديم**، ط1، 1971، منشورات الجامعة الليبية، ص28.

(17) البرغوثي: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

وينتهي في شرقي الجزائر. وكذلك عُثر على رسوبات في هضاب (تاسيلي) جنوب غربي ليبيا، وأيضاً في وادي (مردوم) شرقي طرابلس[18]. وعقب استقرار النواحي التضاريسية على الأرض بعد انتهاء الزمن الجيولوجي الثالث وبداية الزمن الجيولوجي الرابع، كانت في ليبيا عدة جبال التجأ الإنسانُ الليبيُ القديمُ إلى كهوفها، وأسّس فيها حضارته الحجرية، فكانت موزعةً على النحو التالي: الجبل الأخضر في الشمال الشرقي، وجبل نفوسة في الشمال الغربي، وجبال تاسيلي في الجنوب الغربي، وجبل العوينات في الجنوب الشرقي، وجبال تيبستي وتمو في الجنوب الأوسط. ومن خلال الحفريات التي أجريت في تلك الكهوف اتضح أن زمنها كان ضمن البليستوسين المطير، وأن حضاراتها بدأت بالعصر الحجري القديم الأدنى والأوسط والأعلى وتطورت إلى العصر الحجري الحديث واستئناس الحيوان، وأن الإنسان الذي عاش فيها كان من سلالة (النياندرثال) ثم الإنسان العاقل، ولم تتضح بعد إشاراتٌ واضحة للسلالات السابقة.

---

(18) الناضوري، د. رشيد: **المغرب الكبير، ج1، العصور القديمة**، ط؟، 1981، دار النهضة العربية، بيروت/ لبنان، ص52.

أ- كهف (هوافتيح) (**Haua-Fteah**) أو (الفتايح):

قام بحفرياته العالم البريطاني (شارلز مكبرني **Charles McBurney**) لعدة مرات ابتداءً من سنة **1948** إلى سنة [19]**1955**، وفي سنة **1967** نشرت جامعةُ كمبريدج أبحاثَه تحت عنوان: (**هوافتيح «برقة» والعصر الحجري لجنوب شرقي البحر المتوسط** The Haua Fteah "Cyrenaica" and the stone age of the south-east Mediterranean).

يقع الكهفُ غربي مدينة درنة وسط إحدى مناطق الجبل الأخضر الخصبة، على بعد بضعة مئات الأمتار عن ساحل البحر، ويشرف على الطريق القديم الذي كانت الهجرات تعبره من مصر إلى المغرب[20]. تمكّن (مكبرني) من حفر **12,5** متراً ولم يصل إلى قاعدة الرصيد الحضاري للكهف[21]. وتورد موسوعة (تاريخنا) أن الطبقة الأولى تصل إلى **14** متراً، وبها أدوات حجرية من العصر الحجري القديم الأسفل، وتؤرّخ بما قبل **90,000** سنة. والطبقة الثانية من **60,000** سنة إلى **40,000** سنة، وبها أدوات حجرية من العصر الحجري الأوسط وفك إنسان من نوع النياندرثال الشبيه بإنسان فلسطين. والطبقة الثالثة من **40,000** سنة إلى **14,000** سنة، وبها أدوات حجرية من العصر الحجري القديم الأعلى من النوع الذي وُجد في حقفة الضبع الشبيهة بالصناعة العمرونية في الأردن وفلسطين ولبنان. والطبقة الرابعة من **14,000**

---

(19) ?: **Recording the Haua Fteah stone artifacts**, Faculty of Arts, the Australian National University, (the University website), 2009.

(20) موسوعة تاريخنا: **من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن السابع قبل الميلاد**، الكتاب الأول، ؟، ؟، دار التراث، ؟، ص26.

(21) Faculty of Arts: **Op. Cit**.

سنة إلى **10,000** سنة، وبها أدوات حجرية تشبه الدور الوهراني بالجزائر. والطبقة الخامسة من **10,000** سنة إلى **7,000** سنة، وبها أدوات حجرية تشبه الصناعة القفصية (العترية بتونس). والطبقة السادسة منذ **7,000** سنة، وبها أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث وأول علامات استئناس الحيوان(22). وكانت الأدوات التي تم العثور عليها في الكهف تُعدّ بالآلاف: بين **500** و**600** قطعة في كل طبقة، وكل هذه الأدوات مصنوعة من أرقى أنواع الصوان ذي اللون البنّي أو الرمادي(23). ورغم أن (مكبرني) أقرّ بمحلية أسلوب الصناعة الحجرية لكهف الفتايح، خصوصاً المكاشط وأدوات نقش الحجارة، إلاّ أنه قارنها أو شبّهها بالصناعات الحجرية التي وُجدت في أماكن أخرى حول حوض البحر المتوسط، بل واعتبر النماذج الحجرية المعثور عليها في (حقفة الضبع **Hagfat Dabba**) قرب بنغازي، بأنها مرحلة انتقالية متطورة من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري القديم الأعلى، وأن إنجازات كليهما يشبه أدوات العصر الحجري القديم الأعلى والعصر الحجري المتوسط في جنوب غربي آسيا وأوروبا والمغرب الأقصى(24). وتحتوى صناعات حقفة الضبع الحجرية على فؤوس يدوية، ونصال ذوات ظهر، وأدوات نحت الحجارة باتت مألوفةً بين مخلفات الكهف، وكذلك المكاشط(25)، وكلها

---

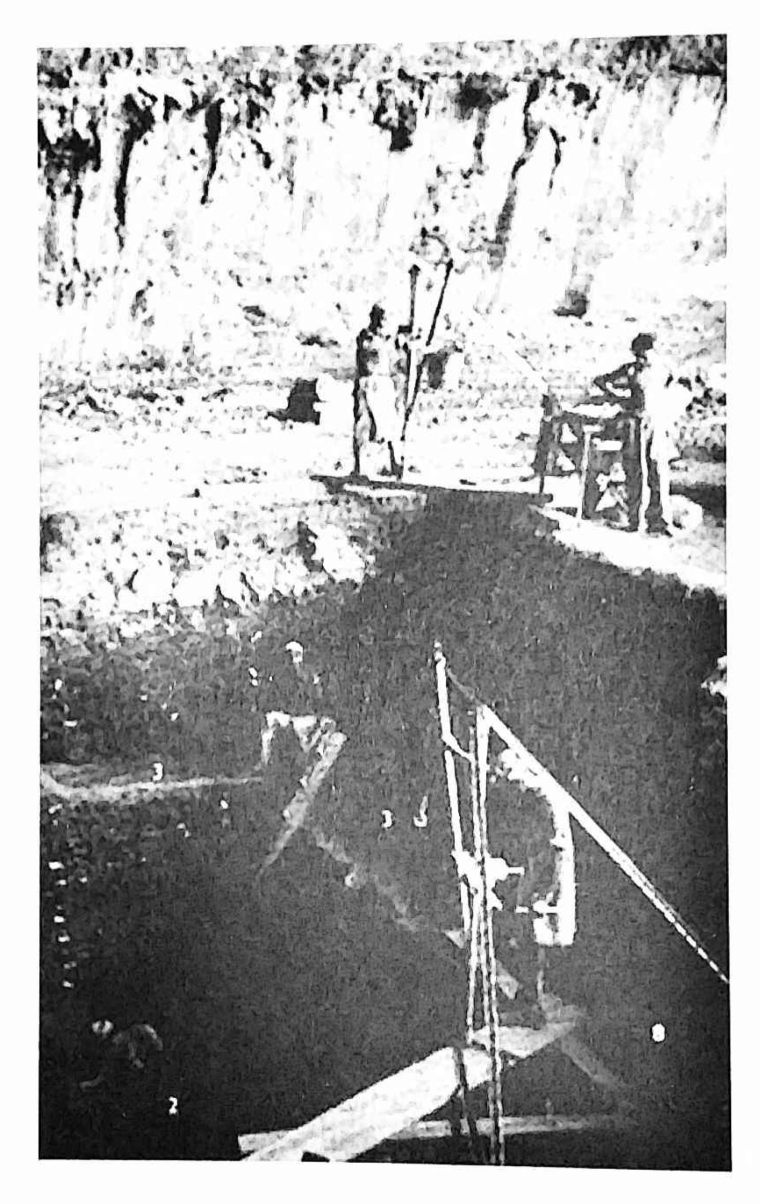
(22) موسوعة تاريخنا: مصدر سابق، ص ص26-27.

(23) Faculty of Arts: Op. Cit. also see: museums.ncl.ac.uk/ website: article tittled by: **Slide 135: The cave site of Haua Fteah, Cyrenaica, Libya**, 2009.

(24) McBurney, C.B.M.: **Haua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of the South-East Mediterranean**, Cambrige University Press, 1967, p 135.

(25) Faculty of Arts: **Op. Cit.**

من نوع الصناعات الحجرية التي اصطلح على تسميتها بـ"اللفلوازية-الموستيرية الفلسطينية" التي تعود إلى نفس تلك الحقب التاريخية، حيث قام (مكبرني) بأخذ عينات منها إلى المعامل الأثرية بقصد تحليلها، وهي الآن محفوظةٌ في المتحف الخاص بعلوم الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا بجامعة كمبريدج البريطانية[26].



حفرحفريات مكبرني تحت أرضية كهف الفتايح (هوافتيح)، في منتصف القرن الماضي (عن موقع كلية الفنون بجامعة أستراليا العالمية: arts.anu.edu.au).

(26) Faculty of Arts: **Ibid**.

وتكمن أهمية كهف الفتايح في أنه أكبرُ كهف في حوض البحر المتوسط بكامله، وأن ترسّباته تضم سلسلة متكاملة من أهم وثائق ما قبل التاريخ على صعيد أفريقيا والقارات الأخرى، ولا تناظره في الأهمية -على مستوى المنطقة العربية كلها- إلاّ كهف (شانيدر) في شمال العراق[27]. وأن صناعته الحجرية التي يسمّيها البعض ''نموذجية'' والتي أطلق عليها (مكبرني) اسم الحضارة ''الضبعانية'' انتشرت في برقة ثم اتجهت غرباً إلى الجنوب الشرقي من الجزائر وتونس في منطقة سادت فيها من قبل الحضارة الوهرانية[28].

أما على الصعيد الأنثروبولوجي فقد عُثر في كهف الفتايح على فك إنسان يعود إلى العصر الحجري القديم والأوسط، وعند استخدام الكربون المشع (**C–14°**) في اختبار عمر الفحم الخشبي الذي وُجد في مواقد هذه الطبقة والمنتمية لهذه المرحلة، أعطي سنة **43,000** ق.م. كتاريخ له[29]. وقد ثبت من الدراسات المقارنة تشابه هذا الإنسان مع إنسان النياندرثال الفلسطيني كما سبق الذكر. ولمزيد التفاصيل نستطلع الجدول الزمني الذي وضعه مكبرني بعد تحليل مخلّفات طبقات كهف الفتايح (هوافيح) بواسطة (الكربون المشع14–)[30]:

(27) العرباوي، محمد المختار: **في مواجهة النزعة البربرية وأخطارها الانقسامية**، ط1، 1998، دار نقوش عربية، تونس، ص ص91-92.

(28) العرباوي: **نفس المصدر**، ص92.

(29) الناضوري: **مصدر سابق**، ص61.

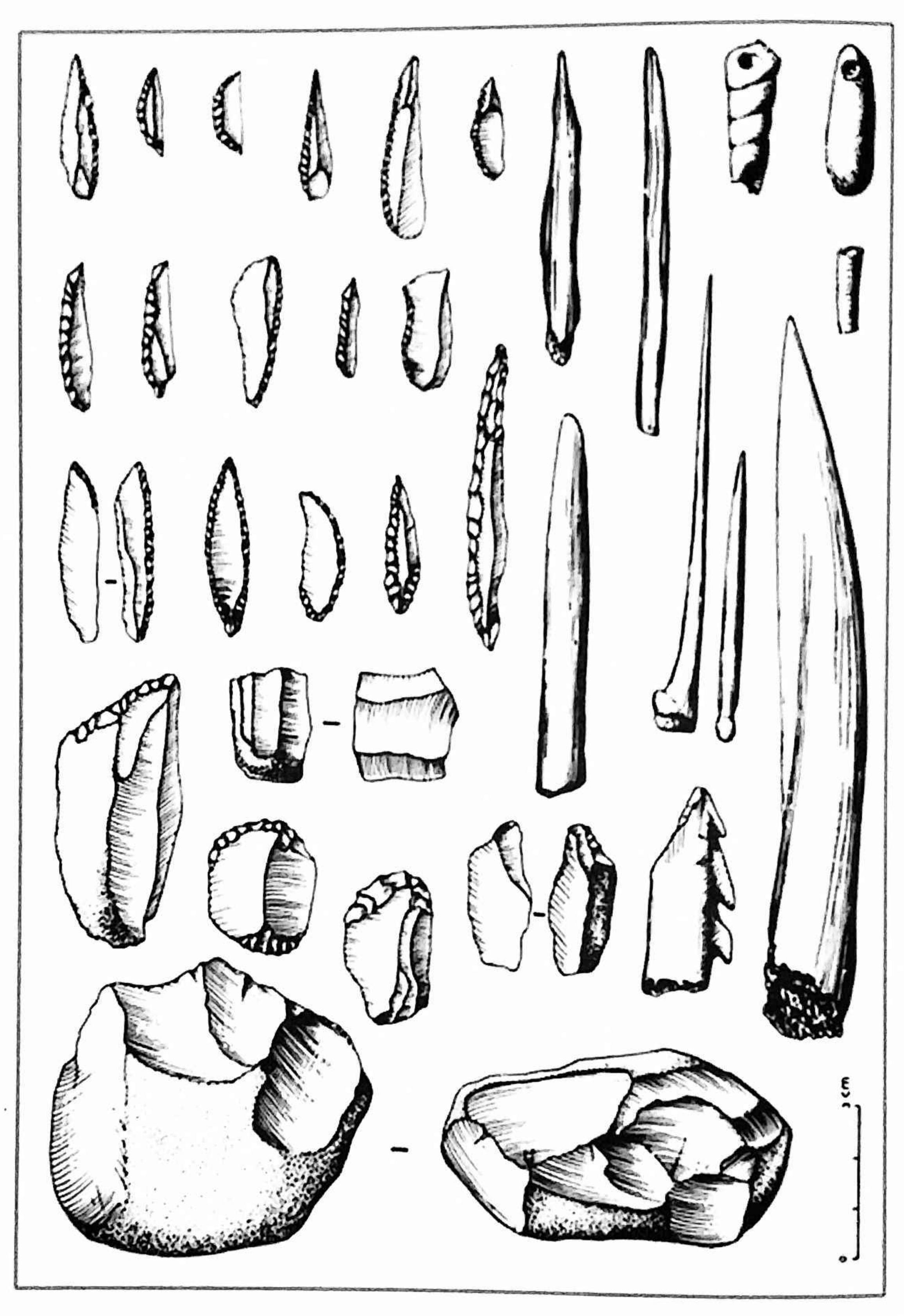
(30) McBurney: **Op. Cit**. p71.

الطبقة (الحضارة)	تواريخ غير المعيّرة (ق.م.)	تواريخ معيّرة (ق.م.)
السادسة1- (حجري حديث)	97 ± 4,860	5,500 :
السادسة2- (حجري حديث)	108 ± 5,800	6,400 :
الثامنة1- (حجري حديث)	103 ± 6,370	7,000 :
الثامنة2- (حجري حديث)	350 ± 6,800	7,400 :
العاشرة1- (ليبية-قفصية)	110 ± 7,000	7,600 :
العاشرة2- (ليبية-قفصية)	300 ± 7,300	7,900 :
العاشرة3- (ليبية-قفصية)	150 ± 8,400	9,200 :
الحادية عشر/ الثانية عشر (أورانية شرقية)	300 ± 10,600	11,800 :
الرابعة عشر1- (أورانية شرقية)	350 ± 12,300	13,800 :
الرابعة عشر2- (أورانية شرقية)	172 ± 12,580	14,000 :
الرابعة عشر/ الخامسة عشر (أورانية شرقية)	173 ± 12,750	14,250 :
الثامنة عشر1- (ضبعانية متأخرة)	100 ± 16,070	18,500 :
الثامنة عشر2- (ضبعانية متأخرة)	150 ± 18,620	21,800 :
العشرون/ الثانية والعشرون (ضبعانية مبكرة-متأخرة إنتقالية)	800 ± 28,500	31,500 :
العشرون (ضبعانية مبكرة-متأخرة إنتقالية)	400 ± 33,100	36,000 :
الثامنة والعشرون1- (حجري متوسط)	35,950 <	38,500 ≤
الثامنة والعشرين2- (حجري متوسط)	1,300 ± 43,400	44,000 ≤
الثالثة والثلاثون (حجري متوسط)	3,200 ± 47,000	47,000 ≤
	‡ تاريخ صعب تحديده	

ورغم قِدم هذا الكهف الذي يُعدّ أقدم كهف حول حوض البحر المتوسط، إلاّ أن الطبقات الأثرية -المعروض جزءٌ منها أعلاه- تشير إلى تعدد الحضارات بحسب تعدد الحقب الزمنية، إذ يكاد يكون شاملاً لمجمل حضارات العصور الحجرية المختلفة. لهذا السبب تعددت الآراء والتخمينان حوله، مما فتح الفرص أمام البعض لإرجاع مخلفات تلك الحضارات إلى غير أصولها الشرقية، مثل نفي السمات الحضارية العترية واعتبارها سمات حضارية قادمة من أوروبا عن طريق المغرب الأقصى، ليس من قبيل التشبيه والمقارنة العلمية فحسب، وإنما من باب التأكيد على الأصل الأوروبي، كما لو كان هؤلاء يستعيدون أفكار أسلافهم من كتّاب القرن التاسع عشر(31).

---

(31) See some of them in, for example,: Moyer, Colin Campbell: **The organisation of lithic technology in middle and ear– ly upper palaeolithic industries at the Haua Fteah, Libya**, dissertation submitted for the degree of Doctor of Philosophy presented to the Corpus Christi College, Cambridge, May 2003, pp 4445- and others.



أدوات حجرية (هندسية) من الحضارة البرقاوية بتأثير قفصي (كهف الفتايخ)، عن مكبرني (الصحراء الكبرى، ص61).

ب- امتداد الحضارة الحجرية إلى طرابلس:

وفي كتاب آخر لمكبرني وزميله (R. W. Hey) بعنوان (Prehistory and Pleistocene Geology in Cyrenaica, Libya) : (**جيولوجيا ما قبل التاريخ والعصر المطير في برقة، ليبيا**)، أثبتا فيه أن ليبيا مرت بجميع مراحل عصر ما قبل التاريخ. ففي منطقة طرابلس وبالتحديد في موقع (بئر دوفان) قرب إحدى مصبّات رافد (وادي مردوم) الذي هو رافد من روافد (وادي سوف الجين)، عُثر على مخلفات من صناعة الفؤوس الحجرية اليدوية، تدل على أنها سادت خلال فترة تتفق مع فترة انتشار هذا النوع من الصناعة في الصحراء الغربية وفي واحة الخارجة[32] بمصر، ربما امتدت عبر برقة ضمن حضارة العصر الحجري القديم الأدنى. وقد تشابهت أيضاً الصناعة الحجرية المكتشفة في الشرق الليبي مع مثيلاتها في الغرب خلال العصر الحجري القديم الأوسط. فقد وُجدت أدوات حجرية في (وادي مردوم) و(وادي غان) وسفوح (جبل نفوسة) بمنطقة طرابلس، تُشبه تلك التي وُجدت في موقع (الحاج كريّم) في (وادي الناقة) و(عين مارا) ومواقع أخرى غربي درنة، وفي (راس عامر) على ساحل برقة[33]، وكلها تؤول إلى العصر الحجري القديم الأوسط. أما العصر الحجري القديم الأعلى فخير مثال له ما اكتُشف من أدوات حجرية في كهف (حقفة الضبع) سالف الذكر، ويقع على حافة (وادي الكوف) بالجبل الأخضر، وهو يماثل كهف (الفتايح) قرب درنة وكهف (حقفة الطير) قرب بنغازي، وهذا الأخير كان قد اكتشفه سنة **1939** الأركيولوجي الإيطالي السنيور بتروكي (**Signor C. T. Petrocchi**)، حيث وجد فيه المخلّفات بالوضع الذي كانت عليه دون أن تمتد إليها يد العبث، وهي عبارة عن أدوات حجرية وعظام[34]، علاوة على آثار

---

(32) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص55.

(33) أنظر: البرغوثي: **نفس المصدر**، ص56.

(34) أنظر: البرغوثي: **نفس المصدر**، ص57.

مرحلة الانتقال من العصر الحجري القديم الأوسط إلى العصر الحجري القديم الأعلى، بالإضافة إلى الصناعات النصلية خاصةً الأسلحة الميكروليثية والأزاميل الدقيقة[35]. وبهذا الوضع يشترك كهف (حقفة الطير) مع كهف (حقفة الضبع) في الانتقال بين المرحلتين المذكورتين. وفي عموم الكهوف الليبية تتضح الصلات الحضارية بين شرقي البحر المتوسط خاصةً في فلسطين وبين هذه المواقع الليبية في تلك المرحلة الانتقالية. أما عن أصول حضارة (برقة) بليبيا و(قفصة) بتونس و(وهران) بالجزائر، فيعتقد الغربيون -كالعادة- أن مصدرَها جميعاً شبهُ جزيرة أيبيريا، أي قادمة من أوروبا، بينما يرى البعضُ الآخر عكسَ ذلك. إلاّ أن مكبرني -مكتشف كهف هوافتيح- يقترح بعضَ الآراء أراد من خلالها حسم هذا الجدل، وتتلخص آراؤه في أربع نقاط[36] أوردها في كتابه المنوه عنه في الفقرات السابقة، كما يلي:

النقطة الأولى: من **15,000** ق.م. بدأت الحضارة (الوهرانية) في المغرب نتيجة تأثيرات جرافيتية أو هجرات من جنوب غربي أوروبا، كما أن حضارة (حقفة الضبع) تعتبر معاصرة لها، وربما كانت نتيجة هجرة من شرقي البحر المتوسط.

النقطة الثانية: بين **12,000-10,000** ق.م. انتشرت حضارة (حقفة الضبع) في برقة واتجهت غرباً إلى جنوب شرقي الجزائر وتونس في منطقة سادت فيها من قبل الحضارة (الوهرانية)، كما امتدت الحضارة الأخيرة إلى الساحل الغربي.

النقطة الثالثة: بين **10,000-9,000** ق.م. انتشرت الحضارة (الوهرانية) بحذاء الساحل الغربي حتى برقة وحلّت محلّ حضارة (حقفة الضبع) وربما وصلت إلى مصر السفلى.

النقطة الرابعة: بين **9,000-5,000** ق.م. سادت الحضارة (القفصية) العليا جنوب

---

(35) الناضوري: **مصدر سابق**، ص ص106-108.

(36) الناضوري: **نفس المصدر**، ص ص117-118.

شرقي المغرب، كما اتجهت شمالاً وأثرت في الحضارة (الوهرانية)، واتجهت شرقاً حتى خليج سرت مما أدى إلى ظهور الحضارة (السرتية) الميكروليثية.

مناقشة جانبية: يبدو أن مكبرني كان متحفّظاً في تبني أفكار أقرانه الأوروبيين بحذافيرها، وهو الخبير المحنّك في دراسة الحضارة الحجرية البرقاوية الليبية، فكان ميّالاً أكثر إلى تبني فكرة التأثير الحضاري بين أفريقيا الشمالية ومثيلاتها في فلسطين ومصر، مرجّحاً هجرة الحضارة من الشرق إلى الغرب لا العكس. وفي المحيط المغاربي تكون حضارتا طرابلس وقفصة وسطاً بين الحضارة البرقاوية في الشرق، والحضارة الوهرانية في المغرب الأدنى. أما الحضارة (الرحمانية) في المغرب الأقصى فيَفترض البعضُ مقارنةَ إنتاجها الحجري منذ العصر الحجري القديم الأسفل بما يناظرها في شرق ووسط أفريقيا وغربي آسيا وكذا في أوروبا، مما يساعد على تفسير هذه الحضارات من حيث أصولها وتطوراتها وصلاتها الحضارية ومستواها الفني. ولكن يصعب التثبت في هذه المرحلة الأولى من الجهد الإنساني الأول من الصلات الحضارية إلاّ على سبيل الافتراض النظري الذي يحتمل تدعيمه مستقبلاً بالأدلة الأثرية[37].

ج- الحضارة الحجرية في الصحراء الليبية:

لا يخلو كيلومتر واحد في الصحراء الكبرى من شواهد ما قبل التاريخ، وتكون أحياناً كمياتُ الأدوات الحجرية الموجودةُ على السطح كبيرةً بشكل لا يصدّق، إذ توجد أدواتُ العصر الحجري القديم بالقرب من أدوات العصر الحجري الحديث[38]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصحراءَ الليبيةَ الحاليةَ لم تكن هكذا قبل الـ **10,000** سنة الماضية، بل كان

---

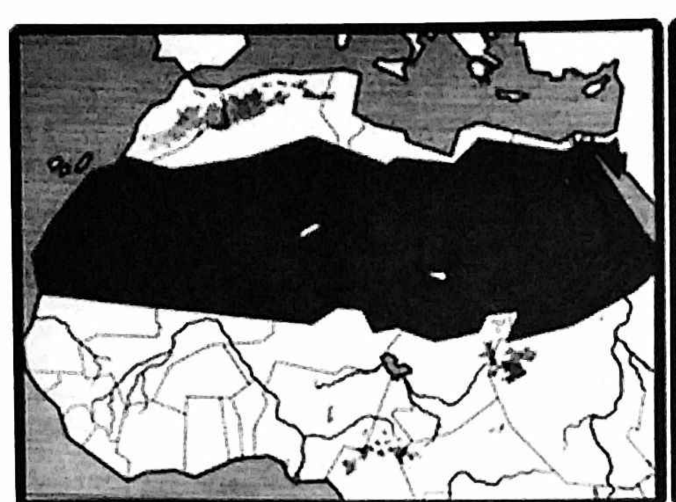
(37) الناضوري: **مصدر سابق**، ص90.

(38) غبرييل، بَالدور: **تحوّل الطبيعة والمناخ في الصحراء الكبرى**، ترجمة: مكاييل محرز، **الصحراء الكبرى**، إعداد: د. عماد الدين غانم، ط؟، 1979، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا، ص ص34-35.

مناخُها مطيراً وغاباتُها كثيفةً وبساطُها أخضرَ وحيواناتُها متنوعةً والحياةُ البشريةُ فيها أفضل، خصوصاً في المناطق الجبلية. (أنظر الخريطتين التاليتين)[39].



الخريطة الأولى: الصحراء الكبرى بين 6,500-5,000ق.م



الخريطة الثانية: الصحراء الكبرى الآن.

وتزامناً مع فترات التبدّل المناخي من الرطوبة إلى الجفاف، والتي استغرقت آلاف السنين، فإن نتائج دراسة الترتيب الحضاري في فزّان أكّدت وجود الاستيطان ذي المراحل الآشولية في جميع مناطق الصحراء الكبرى[40]. ويمكن التعرّف على آلاف المحاجر وأماكن العمل في القطاع الجبلي الغني بالخدمات، مثل الآشولية القديمة في شرق فزّان، والآشولية الوسطى في جبل (بن غنيمة) و(وادي الآجال)، أما الآشولية الحديثة فقد دلّت عليها بقايا بيت سكني في (بوردينة) بوادي الآجال اتُخذت كتلُ بعض جدرانه -بعد التخلّي عن البناء- كمواد أولية لإنتاج العدّة[41]. وبالتالي فإن موقعاً مثل موقع جبل (بن غنيمة) شرقي فزّان، قد جمع بين كل الحضارات الحجرية: الآشولية القديمة والوسطى والحديثة، إلى جانب الحضارة العترية. وحسب

---

(39) غبرييل: <u>نفس المصدر</u>، ص ص 33-32.

(40) تسيغرت، هلموت: <u>حضارات العصر الحجري القديم في الصحراء الكبرى</u>، ترجمة: مكاييل محرز، <u>الصحراء الكبرى</u>، ص44.

(41) تسيغرت: <u>نفس المصدر</u>، ص ص50-51.

رأي (هلموت تسيغرت **Helmut Ziegert**) الألماني، فإن هذا التنوع في الحضارات الحجرية التي ظهرت في الصحراء الليبية وهذا الشبه الشديد بينها وبين الآشولية في (وادي آشول بفرنسا) والعترية في (بئر عتر في قفصة) يعودان إلى إنسان (أوسترالوبيتيك الأفريقي **African-Australopithecine**) الذي صنع بنفسه تلك الأدوات الحجرية المكتشفة شرقي وغربي فزّان. ويعتقد (تسيغرت) أن العلاقة بين أوروبا وأفريقيا كانت قد ارتبطت عبر الجسر البري الذي كان قائماً على جبل طارق أثناء العصر الحجري القديم، حيث كانت الصحراءُ الأفريقيةُ صالحةً للاستيطان في مراحل رطبة طويلة، مما أدى إلى وجود خصائص محلّية حسب المناطق. كما نشأت -على ما يبدو- أثناء فترة الآشولية الوسطى والحديثة إمكانياتُ تجوال بين مناطق ضخمة تصل إلى جنوب آسيا، التي يمكن التعرّف عليها في وقتنا الحالي[42]. ويختتم (تسيفرت) بحثه بالقول: ''**ولا يزال مجهولاً، فيما كان الناس في أدوار الآشولية، قد أصبح لون بشرتهم غامقاً وشعرهم مجعّداً، كنوع من التكيّف مع أشعة الشمس القوية. وهذا يؤيد الرأي القائل بأن الشعوب الأفريقية الحالية هي أحفاد الناس الذين عاشوا في الأدوار الآشولية**»[43]، علماً بأن مصطلح (آشولية) يُستخدم فقط لتمييز الصناعات الحجرية المشابهة للصناعات التي اكتشفت أول مرة في وادي آشول بفرنسا ولا يعني الانتماء إليها، كما سبق الذكر.

---

(42) تسيغرت: نفس المصدر، ص ص55-56.

(43) تسيغرت: نفس المصدر، ص56.

3- التحوّل إلى الزراعة والتدجين في العصر الحجري الحديث:

أ- انتشار حضارة العصر الحجري الحديث من الصحراء إلى الشمال والشرق:

رغم تقلّب حضارة الشمال الأفريقي على كل أطوار العصر الحجري القديم، إلاّ أن الباحثين يهتمون دائماً بمرحلة ما بعد العصر الحجري القديم، أي في الفترة الواقعة بين **17,000** و**4,000** ق.م.[44]، ولعل ذلك يعود إلى صعوبة الوصول إلى طبقات أعمق مما وصل إليها المنقّبون، وأن بعض المواقع الجبلية لا يمكن الوصول إليها بسبب خطورة التسلّق إلى أعالي الجبال الوعرة، زد على ذلك استحالة إزالة أكوام الرمل التي قد تُخفي تحتها مواقع أثرية مجهولة. وهذا التاريخ المقدّر المذكور آنفا يختلف عن مثيله في أوروبا بحكم تعرّض القارّتين لظروف مناخية متباينة خصوصاً في أواخر العصر الجليدي. وقد أثبتت الأبحاثُ التي تمت مؤخّراً أن تطوّراً تاماً قد حصل في العصر الحجري الحديث في منطقة الصحراء الكبرى، ساعدت عليه الظروفُ المناخيةُ الملائمةُ بالنسبة للرطوبة، وذلك مثل ما كان عليه الحال في منطقة (تيبستي) سنة **7,000** ق.م. حيث عرفت هذه المنطقة زراعة الذرة البيضاء وصناعة الخزف. أما في سنة **6,000** ق.م. فقد نشأت حضارةُ الرعاة وشملت مساحات شاسعة من الصحراء. لقد كانت أواسط الصحراء الكبرى -في تلك الفترة- تشكّل مركز إشعاع بالنسبة لحضارة العصر الحجري الحديث التي انتشرت من هناك باتجاه الشمال والشرق، وأدّى هذا الانتشار إلى تغييرات جذرية في حضارة مرحلة ما قبل العصر الحجري القديم[45]. فأما في الشمال فكان كهف (الفتايح) سالف الذكر، الذي قدّر (مكبرني **McBurney**) زمن حضارته الحجرية الحديثة بـ**5,000** ق.م. وأما في الشرق، فقد اتجه نشاط العصر الحجري الحديث إلى منطقة وادي النيل، ثم إلى

---

(44) تاوته، فولفغانغ: **نهاية العصر الحجري القديم في شمال أفريقيا**، ترجمة: مكاييل محرز، الصحراء الكبرى، ص57.

(45) تاوته: **نفس المصدر**، ص57.

المناطق المحيطة بالصحراء السورية وبلاد الرافدين في مرحلة متأخرة نسبياً، بعد 2,000 سنة تقريباً عن دخوله إلى أواسط الصحراء الكبرى، أي في حدود سنة 5,000 ق.م.(46)، وكان الشرقُ -قبل ذلك- المصدرَ الأساسي الذي جاءت منه حضارة العصر الحجري القديم إلى بئر (عتر) الذي انتشرت منه الحضارة العترية (القفصية) شرقاً وغرباً، كما سبق الذكر.

ونظراً لتحوّل سكان هذه المنطقة إلى ممارسة أعمال الزراعة الحقلية وتربية المواشي، جنباً إلى جنب مع الصيد والالتقاط، واجه الباحثون صعوبةً في التمييز بين آثار العصر الحجري الحديث وآثار العصر الحجري القديم، وذلك لعدم توفر الأبحاث الكافية عن نمط الحياة الاقتصادية في الأماكن التي كانت مأهولة بالسكّان في هذه المناطق. إلاّ أن كثيراً من العلماء الغربيين العاكفين على دراسة حضارات الصحراء الكبرى يرون أن مرحلة العصر الحجري القديم في شمالي أفريقيا عموماً قد انتهت بتطور اقتصادي متعدد الفترات الزمنية، حيث تميزت بإنتاج أدوات حجرية دقيقة تندرج ضمن قائمة الأدوات الحجرية (الميكروليثية الهندسية **Geometric–Microlethic**) الدقيقة، وهي أرقى الأدوات الحجرية صناعةً. لذا يكون العصر الحجري الحديث قد بدأ في الصحراء قبل أن يصل إلى المناطق الساحلية في الشمال، وأن العصر الحجري القديم قد انتهى في الصحراء الكبرى قبل 2,000 سنة من نهايته في الأقاليم الشمالية والمناطق المجاورة(47).

---

(46) تاوته: نفس المصدر، ص58.

(47) كامب، ج: البربر.. الذاكرة والهوية، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، ط1، 2005، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا، ص85، كذلك: تاوته: مصدر سابق، ص67.

ب- الصناعة الفخّارية:

ويميز علماءُ الآثار سمات العصر الحجري الحديث عن سمات العصر الحجري القديم بأن هذا الأخير كان يمتاز بالصيد والالتقاط **Hunting and Gathering** واستخدام أدوات حجرية بدائية خالية من البراعة والرونق (آشولية قديمة)، بينما يمتاز العصر الحجري الحديث ببداية الاعتماد على زرع الحبوب في الحقول وتربية الحيوانات، إلى جانب استخدام أدوات حجرية دقيقة كالسهام المدبّبة المصنوعة من الحجارة الملوّنة والمصقولة (ميكروليثية-هندسية). أي أن الإنسانَ الصحراوي -خلال هذا العصر- بدأ ينحت أدواته الحجرية ويزخرفها مضيفاً عليها لمسات فنية لم تكن معهودة في السابق.

فقد أدت الحفريات الحديثة المدعومة بنتائج أبحاث علم دراسة شكل الأرض **Geo-morphology** وعلم المناخ **Climatology** وعلم النبات **Phytology** وعلم الحيوان **Zoology** وغيرها إلى تغيير جذري في النظرية التاريخية التي كانت سائدة حول الصحراء. فقد كان علماء الآثار يتبنّون الرأي القائل بأن منطقة الهلال الخصيب كانت تشكّل مركز إشعاع حضاري رئيسي، ومثل هذا الرأي كان ينفي وجود ظواهر حضارية متشابهة ومستقلة، غير أن التحليل الكربوني الموضّح لصورة التطور في الصحراء الكبرى أثناء العصر الحجري الحديث مكّن العلماء من إيجاد العلاقة الزمنية بين مجموعة الاكتشافات في مناطق متعددة وسبل المقارنة بين أدواتها المستخدمة فيها[48]. ولقد اشتدت النزعة الاستقلالية للحضارة الليبية في الفترة ما بين انتهاء العصر الحجري الحديث وعهد استبدال الأدوات الحجرية بأدوات من مواد أخرى. ويقول (فريدريك وولسن **Frederick Wulsin**): "..**ولذلك فإنها لم**

---

(48) كوبر، رودلف: **من الصيد إلى الرعي، ما هو العصر الحجري الحديث في الصحراء الكبرى**، ترجمة: مكاييل محرز، الصحراء الكبرى، ص72.

تتأثر خلال تلك الفترة تأثراً يُذكر بالحضارات المجاورة، بل من الأرجح أن حضارة النيل المتقدّمة على الحضارة الليبية أخذت عنها الكثير»[49]. وكثيراً ما يقارن العلماءُ صناعةَ الفخّار الليبية المكتشفة في منطقة برقة بتلك المكتشفة في مصر خاصة الفيوم.

تحدّثنا في الفقرات الماضية عن اكتشاف بيت سكني في (بوردينة) بوادي الآجال، وها هو (كامب **Camps**) الفرنسي يكتشف بين سنتي **1965** و**1968** بيتاً آخر بين صخور الغرانيت في منطقة الهجار (على الحدود الليبية-الجزائرية حالياً)، ووجد فيه الصناعات الخزفية إلى جانب الصناعات العظمية والحجرية، كما عُثر أيضاً على حبتي لقاح للذرة البيضاء على عمق **140** سم[50]. ويُرجع (كامب) تلك الصناعة الفخارية -التي يقول عنها: **أنها لم تأخذ شيئاً من الخارج**- إلى ما بين سنتي **7,000** و**6,000** ق.م.[51]، وينسبها -مبدئياً على الأقل- إلى طقوس دينية أكثر من استعمالها لأغراض تخزين المؤن والمياه. ويقدّرها (كوبر **Kupper**) بسنة **6,100** ق.م. (مع فارق بحدود **80** سنة). ويتوافق عمر المصنوعات الخزفية المعثور عليها في كل من السودان وآسيا مع تلك التي في جبال (أكاكوس) غربي الجنوب الليبي حالياً، والمؤرّخة بسنة **6,122** ق.م. (مع فارق بحدود **100** سنة). كما عُثر في جبال (تيبستي) في وسط الجنوب الليبي حالياً على بقايا إناء للعجن (معحن) مزخرف بخطوط متموجّة قُدّر بسنة **6,115** ق.م. (مع فارق بحدود **100** سنة)[52]. وتشير الإيطالية (باربارا باريش) إلى أن

---

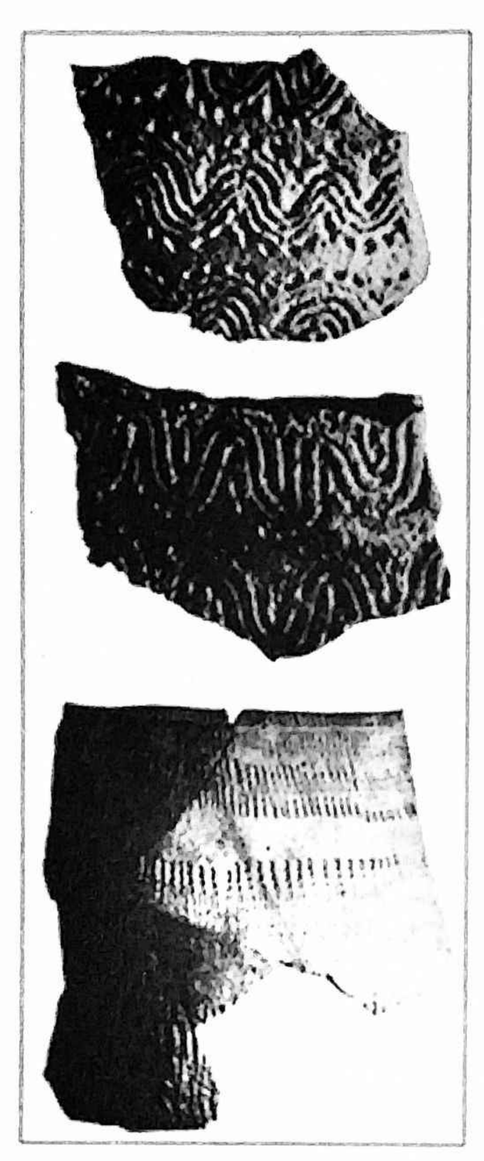
(49) البرغوثي: **<u>مصدر سابق</u>**، ص59.

(50) كوبر: **<u>نفس المصدر</u>**، نفس الصفحة.

(51) كامب: **<u>مصدر سابق</u>**، ص86.

(52) كوبر: **<u>مصدر سابق</u>**، ص73.

جبل أكاكوس كان مركزاً لإنتاج مبكّر جداً للخزف، وذلك في الأماكن السكنية على امتداد مسارات الأنهار. ومن أوصاف هذا النوع من الخزف أن لونه كان في أقدم الطبقات (الألف السابع قبل الميلاد) أحمراً بنياً ناعماً وله سطح أملس، ولكن لونه يتغيّر بسرعة إلى أسود وبني في الجزء الأكبر منه، وهو هش جزئياً، ويحتوي على مزيج من الكوارتز. أما أشكاله فمتنوعة: براميل كبيرة، صحاف كبيرة، طاسات، كؤوس صغيرة، محيطها دائري دوماً، وقاعدتها مقعّرة، بيد أن زخارفها متنوعة فوق العادة، كنموذج مدهش لأدوات متنوعة يتم ضغطها على الفخار الرطب: محفار، مسحاة، أختام، مطارق صغيرة، شِباك. وتوجد هنا علاقة مهمة بشكل خاص للأسلوب الفني المعروف بالخطوط المنقّطة المموّجة[53]. (أنظر المثال).



مناقشة جانبية: يشير استخدام الخزف إلى تحوّل الإنسان الليبي القديم إلى زراعة الحبوب في حقول قريبة من مقار السكن، بدل البحث عنها في الحقول البرية البعيدة، مما دفعه إلى التفكير في صناعة أوان حاوية تؤمّن له الغذاء السنوي وتحفظ له كميات الماء اليومية، وذلك بتخزينه في الأواني الطينية. غير أن أماكن أخرى قريبة من مواقع اكتشاف شظايا الخزف، لم يصل سكّانها إلى مثل هذه التقنية المتطورة، بل واصلوا حياة العصر الحجري القديم، ولم يتخلّوا عن

(53) باريش، باربرا: **حفريات جديدة في جبل الأكاكوس**، ترجمة: مكاييل محرز، الصحراء الكبرى، ص120.

ممارسة عملتي الصيد والالتقاط، إذ يبدو أن الانتقال من مرحلة متخلفة إلى أخرى متطورة قد تكون أحياناً شاقةً على النفس البشرية في كل العصور قديمها وحديثها. ومن يدري أن تأخر جماعة في هذه المنطقة عن جماعة متطورة في منطقة مجاورة لها وتعيش معها في نفس الفترة الزمنية ولم تُكتشف كل آثارها بعد، قد دفع بعض الخبراء إلى الاعتقاد بأن بؤر الحضارة الإنسانية قد لا تكون في الصحاري، وإنما في أماكن أخرى اشتهرت بغزارة آثارها ووثائقها مثل حضارتي وادي النيل وبلاد الرافدين. ولكن المجتمعات البشرية أينما سكنت ووقتما وُجدت تختلف عن بعضها في طرق عيشها ودرجات تطورها داخل محيطها الطبيعي، وبالتالي تختلف في مسيرتها على مضمار السباق الزمني الموصل إلى درجة الكمال (والكمال لله وحده). غير أن ذلك لا يتم -في جميع الأحوال- إلاّ بالاجتياز الموفّق للمراحل الرئيسية الثلاث التي حدّدها عالم الاجتماع المغاربي (ابن خلدون): مرحلة البداوة ورعاية المواشي، ثم مرحلة الزراعة والاستقرار، وأخيراً مرحلة بناء المدن.

يصعب على الباحث وضعُ تاريخ محدد لبداية مرحلة الزراعة والتدجين، لأن الانتقال بين المراحل لا بد أنه استغرق زمناً طويلاً قبل أن تتضح معا لم آثارها الباقية، وعادة ما يكون مختلفاً بين المناطق. وعندما يعثر الباحثون على نماذج معيّنة من المكتشفات لا يعني هذا بالضرورة أنها تمثل حضارة واحدة معينة، وإنما قد تمثل -في بعض الأحيان- سلسلة من الحضارات المختلفة التي قد تتشابه فيما استعملته من أدوات. علاوة على صعوبة تمييز المخلّفات وتحديد تواريخها والمقارنة بين مواقعها المتباعدة بالدقة اللازمة، ففي المراحل الأولى لعصر الزراعة والتدجين «**لا نستطيع بسهولة التمييز بين القمح البري وبين المزروع.. كما لا نستطيع التفريق بين الثور والغنم والماعز فيما إذا كانت مدجّنة أو برية**»[54]، كما يصعب على الباحث المطابقة التامة والمقارنة الدقيقة بين المواقع الأثرية لاختلاف بيئاتها ومناخاتها وتضاريسها وأساليب سكّانها

---

(54) محيسن: مصدر سابق، ص177.

المعيشية، فتبقى نتائج البحث فيها مجرّد تخمينات في قالب نظريات علمية قابلة للمناقشة والتمحيص وزيادة التأكيد. ورغم أن معظمَ البحوث العلمية كانت من إنتاج علماء غربيين، إلاّ أنهم يختلفون فيما بينهم حول العديد من المسائل، وقد يعود السببُ -في ذلك- إلى أن كلاًّ منهم يعمل مستقلاًّ عن الآخر، مما يدفع الواحدَ منهم إلى التعصّب لرأيه ومحاولة إثباته بالقرائن العلمية، وهذا بدوره وسّع عملية البحث فتشعّبت فروعُه وصارت عصيّةً على الدارس والمتتبع لتلك البحوث والساعي لمعرفة الحقيقة بأكثر دقة.

مثلاً: يقرر الألماني (فولفغانغ تاوته **Wolfgang Taute**)[55] وغيره، أن الزراعة والصناعة الفخارية ظهرتا أول مرة في الصحراء الأفريقية، وبالتحديد في منطقة (تيبستي) بالجنوب الليبي، فكانت بين سنتي **7,000** و**6,000** ق.م. وأن المنطقة كلها دخلت العصر الحجري الحديث ابتداء من سنة **17,000** ق.م. ثم انتشر شمالاً إلى السواحل الأفريقية، وشرقاً إلى وادي النيل والصحاري المحيطة بسوريا وبلاد الرافدين، ويصرّ على أن الصحراء الكبرى كانت مركز إشعاع حضاري أسبق من غيره في هذا المضمار. وفي الوقت نفسه ينقل الدكتور سلطان محيسن عن أكثرية الباحثين "**أن الزراعة الأولى قد نشأت في بلاد الشام القديمة وفي سوريا وفلسطين على وجه التحديد ثم انتقلت إلى مناطق أخرى في العالم**»[56] ويحددها بتاريخ **7,700** ق.م. كما أظهرتها تنقيبات قرية المريبط في حوض الفرات الأوسط[57]. ولا بد أن يكون هذا الكلام منقولاً عن أحد العلماء الغربيين أيضاً، ربما يكون (كوفان **Cauvin**) الفرنسي الذي أجرى تنقيبات موقع (المريبط) السوري[58].

---

(55) الصحراء الكبرى، **مصدر سابق**، ص ص57-68.

(56) محيسن: **مصدر سابق**، ص173.

(57) محيسن: **نفس المصدر**، ص176.

(58) محيسن: **نفس المصدر**، ص175.

وقد يرى علماء أو منقبّون غربيون آخرون أن العراق -خاصةً شماله- ومصر -خاصةً جنوبها- مرشّحتان لاحتضان أولى بوادر الزراعة التي تُعتبر أرقى درجات الحضارات القديمة، فانتقل -نتيجةً لذلك- التعصّبُ العلمي لدى علماء الغرب إلى تعصّب إقليمي وقطري لدى علماء العرب، فصار العراقي يتعصّب لعراقيته والسوري لسوريته والمصري لمصريته والليبي لليبيته والتونسي لتونسيته والجزائري لجزائريته والمغربي لمغربيته والخليجي لخليجيته واليمني ليمنيته.. وهكذا ضاعت معالم تاريخ هذا الوطن الذي قيّضت له السماءُ أن يكون مهدَ الحضارات ومهبطَ الديانات ومصدرَ تاريخ البشرية على الإطلاق. ويا حبّذا لو تضافرت الجهودُ وتوحّدت البحوثُ وتشابكت أيدي العلماء العرب في سبيل إظهار وحدة تاريخ هذه الأمة منذ أقدم العصور بتجرّد تام ودون انحياز، ولا نطمح لأكثر من ذلك. حتى يفخر العراقيُّ بالمغرب، والليبيُّ بسوريا، والمصريُّ بالجزائر والتونسيُّ باليمن.. رغم عدم إيماننا بالحدود السياسية الحالية التي لم تكن من صنع أجدادنا. وما حديثُنا عن ليبيا تحديداً في هذا البحث إلاّ من باب سد الثغرة التي تركها العلماءُ العربُ عندما تجاهلوا -ربما بحسن نية- تاريخَ هذه البقعة الهامة من وطنهم العربي الكبير.

ثالثاً: حضارة النقوش والرسوم الصخرية (The Petroglyph):

1- مكتشفو الرسوم الصخرية في ليبيا:

مثلها مثل أي اكتشاف آخر، اكتُشفت الرسومُ الصخريةُ المنتشرةُ بأعداد كبيرة على طول الصحراء الأفريقية وعرضها، بالصدفة. ولم يكن ذلك بهدف البحث العلمي، وإنما كان -في البداية على الأقل- عن طريق رحلات العسكريين الغربيين المبعوثين من قبل حكوماتهم الاستعمارية، تلك الرحلات التي يعبّرون عنها -هم أنفسهم- بـ(الظروف التاريخية) تلافياً للإجهار بحقيقة أهدافها ومراميها. ولكن -رغم كل ذلك- اهتم علماءُ الغرب -وهم أبناء وأحفاد ساكني الأقاليم الباردة- بالصحراء حُبّاً في المعرفة واكتشاف المجهول، بينما أغمض

علماءُ العرب -وهم أبناء وأحفاد ساكني الأقاليم الحارة- أعينَهم عن صحرائهم تأففاً وخوفاً من مجاهلها! فكان الفضل -شئنا أم أبينا- يعود إلى أولائك الأوروبيين الذين تجشّموا مشقة السفر والتوغّل في صحارينا واكتشاف كنوزها التاريخية التي لولاهم لضاعت في غياهب الماضي السحيق دون معرفتها. ومن أبرز المكتشفين للرسوم والنقوش الصخرية في ليبيا[59]:

* الألماني (**هنريتش بارث H. Barth**)، الذي اكتشف أولى النقوش في منطقة فزّان بالجنوب الليبي سنة **1850**.

* الألمانيان (**نختيغال Nachtigal**) **1869**، و(رولفس **Rohlfs**) **1874**، اللذان ركّزا على منطقتي (تيبستي) بالجنوب الليبي و(مزدة) جنوب غربي طرابلس.

* الفرنسي (**فورو Foureau**) **1894**، الذي أشار إلى احتمال وجود رسوم على صخور جبل (أكاكوس) جنوبي غرب ليبيا.

* الفرنسي (**النقيب كورتييه Capt. Cortier**) **1909**، الذي شاهد أو اكتشف الرسوم الصخرية في جبال (تاسيلي) جنوبي غرب ليبيا.

* الإيطالي (**كورادو زولي Corrado Zoli**) **1914**، الذي عثر على بعض النقوش في وادي (الآجال) جنوبي غرب ليبيا. وتوالت البعثات الإيطالية إلى الجنوب الليبي، واستخرجوا منه كنوز أدوار ما قبل التاريخ على أسس منهجية، في كل من طرابلس وفزان ووادي الشاطئ ووادي الآجال ومرزق ووادي برقوق وغات ووادي سلفوفت ووادي تاكيسيت ووادي إركين، وغيرها من المواقع التي تم اكتشافها من قبل الإيطاليين مثل: باشي، وسرغي، وكابوتو، وفروبينيوس، وغرازيوسي، وغيرهم ممن أثبت أن منطقة فزان هي إحدى المناطق التي وصل فيها

---

(59) موري، فابريتشيو: **تادرارت أكاكوس.. الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ**، ترجمة: عمر الباروني وفؤاد الكعبازي، مراجعة: عبد الرحمن عجيلي، ط؟، 1988، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا، ص25.

الفن الصخري الصحراوي في دور ما قبل التاريخ إلى أكثر الأشكال سمواً وتتطوراً.

* ولكن أهم الاكتشافات العلمية المعلن عنها كانت قد بدأت بين سنتي **1952** و**1956** في منطقتي (تاسيلي) و(فزّان). حيث اكتشف فيهما تلك اللوحات الرائعة كلٌّ من (**الملازم برينان Brenant**) الفرنسي، و(**يولانثا تشودي Yolantha Tschudi**) الإيطالي، وأهمها على الإطلاق اكتشافات: (**هنري لوت Henry Lhote**) الفرنسي، الذي درس لوحات تاسيلي، و(**فبريتزيو موري Fabrizio Mori**) الإيطالي، الذي درس لوحات الأكاكوس وتادرارت.

2- أهم مواقع الرسوم الصخرية وأهم أدوارها:

يصف (هنري لوت) هضبة تاسيلي بأنها هضبة رملية صعبة الاجتياز تقع في الشمال الشرقي من (الهجار) وتمتد إلى الحدود الشرقية لفزّان مكوّنةً عدداً من المرتفعات الصغيرة الثانوية، على هيئة ممرات ضيقة تطل عليها رؤوس صخرية متآكلة عند قواعدها ومجوفة تجويفاً يسمح باتخاذها بيوتاً للسكن، تذكّرك بالمدن المهجورة، إذ يبدو أنها كانت في يوم من الأيام على هيئة شوارع تحيط بها (البيوت). صحيح أن الأقوام -التي سكنت تلك المخابئ- اختفت منذ زمن بعيد، ولكنها تركت وراءها مئات اللوحات المرسومة على جدران مساكنها القديمة[60].

أما أكاكوس فهو اسم أُطلق على الكُتلة الصخرية الرمادية التي تُرى على يسار الطريق الرابطة بين منعطف (العوينات) وبين (البركت) مروراً بمدينة (غات) الأثرية. وعند زيارتنا الأولى للمكان هالنا جمال الجبل على يسار الطريق وروعة الكثبان الرملية على يمينه في منظر بهيج رغم تناقضه، وينتصب قبل غات بخمسة عشر كيلومتر جبلٌ منعزلٌ عن كتلة الأكاكوس، يقع على يمين الطريق، يبدو من بعيد كما لو كان أطلال مدينة إسلامية متحجرة تختفي صورتها عند

______

(60) لوت، هنري: **لوحات تيسيلي، قصة لوحات كهوف الصحراء الكبرى قبل التاريخ**، تعريب: أنيس زكي حسن، ط1، 1967، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص ص7-8.

الاقتراب منها، وتحوم الأساطير حول هذا الجبل الذي يسميه الأهالي (كاف الجنون) حيث يعتقدون أنه مسكون بالجان المسلمين، حتى أن الطريق المعبّدة تلتف حوله في شكل نصف دائرة تقريباً لتزيده مهابة، وجرت العادة على أن الأهالي لا يقتربون منه ليلاً احتراماً لسكّانه أو تجنباً للاحتكاك بهم أثناء حركتهم التي تبدأ مع بداية الظلام وتنتهي مع نهايته! وينتهي جبل أكاكوس في طرفه الجنوبي بجبل تادرارت، ومنه تمتد الطريق في اتجاه الغرب لتصل إلى أعلى مرتفعات تاسيلي مروراً بـ(جانيت) على الحدود الليبية-الجزائرية حالياً. ويشبّه (فابريتسيو موري) جبل الأكاكوس بالشكل المستطيل على وجه عام، تتجه أطوال أضلاعه من الشمال إلى الجنوب، وإلى شرقه تمتد أراضي الأمساك الواسعة، أما الغرب فإن وادي (تانيزوف) وحده يفصله عن المصدّات الأولى لتاسيلي، وطبيعة هذه السلسلة صخرية تتقاطع بها الأودية الكثيرة التي تشكّل البطون الجافة لطرق مائية غابرة[61].

ولعل أهم موقع للرسوم الصخرية في هضبة تاسيلي يكون موقع (جبّارين) ذو الخمسة آلاف لوحة، ومنها أكبر اللوحات قبل التاريخية المكتشفة حتى الآن. وهذا الموقع عبارة عن مرتفعات من الصخور الرملية تنهض بشكل اعتيادي من الهضبة، ولكنها تقع في منطقة فعل فيها التآكلُ أشدَّ فعله في قواعد الصخور فنشأت مخابئ وكهوفٌ أعمقُ من مخابئ وكهوف أية منطقة أخرى. اكتشفها أول مرة (الكولونيل برينان) سنة **1938**، وقد نالت جبّارين شهرةً عالميةً بسبب ذاك الاكتشاف[62]. ويصفها (هنري لوت) عندما دخلها أول مرة بأنها ظهرت له في قعر منخفض، وهي مجموعة من قباب الحجر الرملي تُذكّرك فوراً بالأكواخ المستديرة التي يسكنها الزنوج في القرى الأفريقية.. ''**وما أن اقتربنا من التكوينات والأشكال الرملية حتى انطلقت صيحات الإعجاب من حناجرنا جميعاً.. إن الموقع كله يكوّن مدينة**

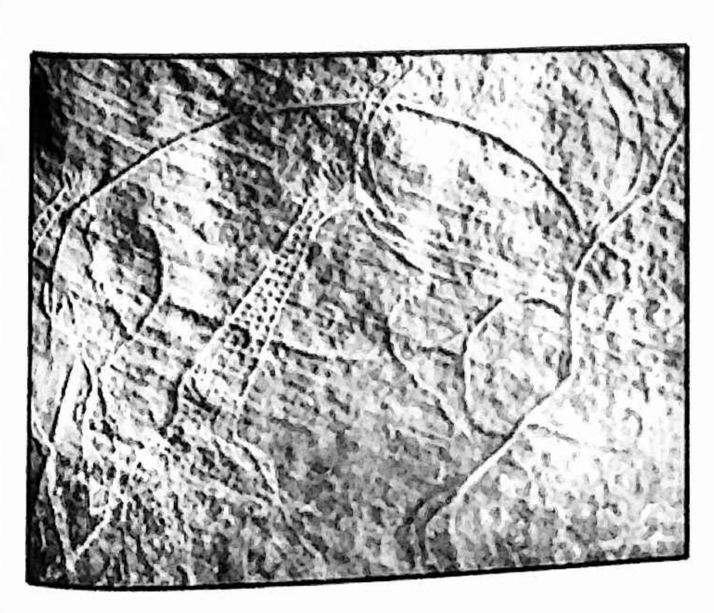
---

(61) موري: **مصدر سابق**، ص ص29-30.

(62) لوت: **مصدر سابق**، ص67.

حقيقية ذات أزقة وشوارع متقاطعة وساحات. وأكثر من ذلك، إن الجدران مغطاة بمئات اللوحات المرسومة بمختلف أنواع الأساليب»[63]. ويقول هنري لوت أن كلمة (جبّارين) في لغة التوارق تعني (العمالقة)، ويشير الاسم إلى اللوحات قبل التاريخية التي يصوّر بعضُها أشكالاً بشريةً بحجوم هائلة فعلاً. وللتذكير نقول أن مصطلح (جبابرة) يُعدّ من الأخطاء الشائعة، والصحيح في اللغة العربية هو (جبّارين) على وزن (فعّالين) فاستخدم التوارق الاسم صحيحاً.

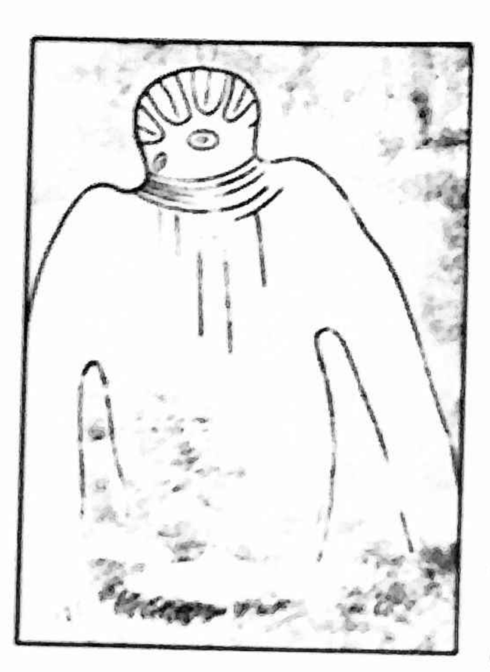
ويقسّم مكتشفو كهوف ومخابئ تاسيلي وأكاكوس وتادرارت وغيرها تلك اللوحات الفنية إلى فترات أو أدوار. وكلها تنقسم أساساً إلى فئتين: فهناك اللوحات المنقوشة، وهناك اللوحات المرسومة. أما تواريخ إنجاز تلك اللوحات فقُدّر أقدم أطواره بحدود الألف السابع والألف السادس قبل الميلاد، وهذا التاريخ يتطابق مع مرحلة الزراعة واستئناس الحيوان وصناعة الفخار في هذه الأماكن كما سبق الذكر. وقد حصلت إضافات على نفس اللوحات من قبل الأجيال اللاحقة، إلى أن أضاف الجرمنتيون مثلاً بعضاً من سمات حضارتهم التي اشتهروا بها في الألف الأول قبل الميلاد، كما أضاف عليها التوارق بعضاً من كتاباتهم بحروف التيفيناغ الذي اشتهروا به بعد الميلاد وقبيل الإسلام. وهذه أهم الأدوار –حسب تصنيف كلّ من لوت وموري– دون ذكر الفواصل بينها كالأقدم والأوسط والأحدث:



1- **دور الحيوانات الكبيرة المتوحشة أو الثيثل القديم**، ويعتمد على النقوش في الغالب. أُنجزت لوحاته بتأثير رأس دقيق من حجر صواني أو معدن المرو (كوارتز) أو صخر صلب آخر برّي أو طرق على جدار صخري. ويبدو أن هذا الدور

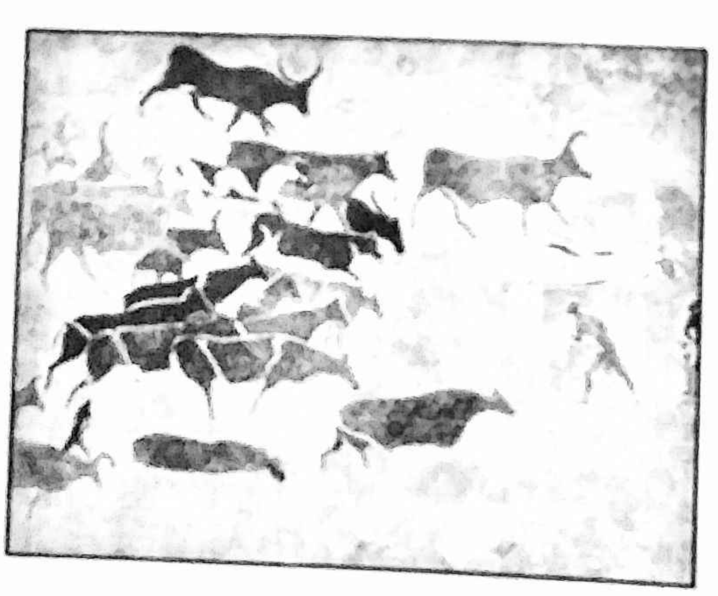
(63) لوت: نفس المصدر، ص ص68-69.

موغل في القدم بحيث لا تظهر -من خلال لوحاته- علامات استئناس الحيوانات، بل تظهر حيواناتُه متوحشّةً قابلةً للاصطياد وليس للتدجين.



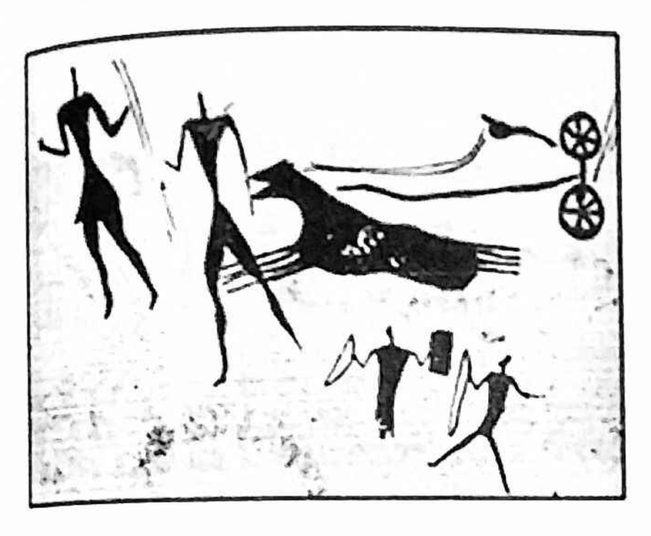
2- **دور الرؤوس المستديرة**، ويعتمد على الرسوم في الغالب. أُنجزت لوحاته بواسطة مواد ملونة كثيفة وثخينة تكاد تكون لماعة، وتحتوي على ألوان متعددة، وتعتمد طريقة رسمها على خطوط بسيطة محددة للرسم دون أية براعة. وسمي دورها بالرؤوس المستديرة لأن الشخصية الإنسانية فيها لها رأس مستدير بدون ملامح. والطريف في هذه اللوحات أن في الوجه المرسوم دائرتين، وهي بهذا الوضع تشبه الهيئة التي نتصورها لأهل المريخ. وهذا ما بعث على الاعتقاد أن أهل المريخ قد هبطوا إلى الصحراء في ذاك الزمن. فكان لذلك صدى إعلامياً عالمياً كبيراً إثر اكتشاف لوحات جبّارين.

3- **دور الرعاة، أو دور الثيران**، ويعتمد على النقوش والرسوم. وتتميز لوحاته



بوجود قطعان كبيرة من البقر الأهلي، إذ توجد ثيران في كل مكان في جبّارين، وبمختلف الحجوم، ومرسومة بمختلف الأساليب، والقيمة الجمالية فيها عالية جداً وتمتاز بالرقة والبراعة. ويبدو أن الفنّانين كانوا يحضّرون الخطوط قبل ملئها بالطين الملوّن. وترجع إلى نفس الفترة صور

الزرافات والفيلة والوعول والحمير الوحشية والماعز والخراف كدليل على أن الفترة كانت فترة استئناس تلك الحيوانات إلى جانب اصطياد الحيوانات المتوحشة.



4- **دور الحصان**، ويعتمد على النقوش والرسوم. وتلتقي آخر أعمال الإنتاج الرعوي بتلك الأعمال التي تُنسب إلى دور الحصان. ودخول هذا الحيوان إلى الرسوم الصخرية سواء كان منفصلاً أو متصلاً بعربة، وهو الأسلوب الذي انتشر في كل مكان وارتقى في بعض الحالات إلى بالغ درجات الانسجام. ويبدو أن الجرمنتيين لعبوا دوراً بارزاً في استخدام العربات التي تجرها أربعة من الخيول التي ذكرها هيرودوتس.



5- **دور الجمل**، ويعتمد على النقوش والرسوم. ويمكن ترجيعه بالضبط إلى عهد ما قبل الميلاد. أما أساليب هذه الفترة فلا يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً، وترتبط دائماً بالأشكال البشرية النحيفة، وتدل على الإهمال الكامل لكل الدوافع الخلاّقة. ويظهر على هذه اللوحة في أقصى يسارها إضافة التوارق، وهي نصوص بأبجدية التيفيناغ.

مناقشة جانبية: لا أحد يستطيع تفسير السر الكامن وراء تلك الرسوم والنقوش، هل هي تجسيد لبعض الطقوس الدينية البدائية، أو هي خطط تسبق عملية الصيد، أو هي وسائل إيضاحية للأطفال بهدف التدرّب على الصيد وغيره، أو هي من صنع النساء في غياب الرجال قتلاً للوقت..؟ كما أنه لا أحد يستطيع الجزم بأن أصحاب تلك الرسوم هل هم أجداد الجرمنتيين؟ وهل التوارق أحفاد الجرمنتيين؟ ولكن المعلوم حالياً أن تلك الرسوم كانت قد تراكمت على جدران الكهوف الواحدة فوق الأخرى دليلاً على تعاقب الأجيال عليها منذ آلاف السنين السابقة للميلاد، حتى أن الجرمنتيين في الألف الأول قبل الميلاد ساهموا في إنجاز بعضها، كما أن التوارق بعد الميلاد سجلوا عليها بصماتهم. أما التواصل العرقي بين السلف والخلف فلا نستطيع إثباته في غياب الدلائل، غير أن بين توارق اليوم توجد طبقة اجتماعية يطلقون عليها اسم (إنيضن) ومفردها (إيناض). ويقول التوارق أن الكتابات والنقوش القديمة في الصخور والكهوف هي من صنع (إنيضن) الذين يحتكرون اليوم الصناعات التقليدية، فهم من يصنع كل لوازم الحياة في الصحراء، كالقصاع والأقداح والخيام الجلدية ومكوناتها ورواحل الإبل وسروج الخيل وآلات الحرب والحلي وصياغة المعادن وزخرفتها بالنقوش الرائعة وغيرها..[64]. ولعلّ الاسم (إيناض) من العربية (نوض) أي (الحركة)، ويقال: (فلان ما ينوض بحاجة وما يقدر أن ينوض) أي (يتحرك بشيء)، اللسان. والنون في (إنيضن) للجمع. وهذا العمل المتقن الذي يقوم به الـ(إنيضن) قد يذكّرنا بقدرة سكّان هذه الأماكن على إنتاج تلك النقوش والرسوم وصناعة الأواني الفخارية وزخرفتها، علاوة على اهتمامهم بصناعة العديد من أدوات الصيد وآلات الحرب على مدى العصور الحجرية القديمة والحديثة.

---

(64) القشاط، د. محمد سعيد: **التوارق، عرب الصحراء الكبرى**، ط2، 1989، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، طرابلس/ ليبيا، ص69.

رابعاً: الجرمنتيون بين التأثير والتأثر:

1- من هم الجرمنتيون:

يقول هيرودوتس: (..**وبعد مسيرة عشرة أيام أخرى من أوجلة يوجد تل ملح آخر وينابيع وأشجار نخيل كثيرة محمّلة بالتمر، كما هي في الأماكن الأخرى، ويعيش هنا قوم كثيرون يدعون "الجرامنتس"**)[65]. وهذا يعني أن هيرودوتس لم يطلق هذا الاسم على هؤلاء القوم، كعادته في استنباط الأسماء، بل نقله عمن أسموهم قبله، ولم يضف هيرودوتس على هذا الاسم إلا حرف (S) وهو أداة تعريف أو تنوين في اللغة الإغريقية (**Garamantes**). ومثلما ذكرنا في الفصل الأول، فإن مصدر الاسم من الثلاثي (جرم): جرم النخل: صرمه وقطعه. أما النون فهي علامة الجمع في اللغة الليبية القديمة، وكذلك في العربية ولكن بصيغ أخرى، أو هي أداة تنوين. أما حرف التاء فهو للتأنيث لأن أصل الاسم مأخوذ من اسم المدينة نفسها (جرمة) وهي في الأساس (جرمت)، والمنتمي إليها يجب أن يكون (جرمي) بدون حرف التاء، والجمع (جرميون)، ولكن الاسم وصل إلينا من المصادر الغربية التي لا تقدّر تاء التأنيث ونون الجمع في كلا اللغتين العربية الحديثة والليبية القديمة، فظهر فيه التحريف. ويقول الدكتور البرغوثي أن الصحيح هو (جامفزانتس : **Gamphasantes**) دون أن يقدّم شرحاً لمعناه. ربما كان اسم الإقليم أو المنطقة بأكملها وليس المدينة بحدودها المعروفة، والملاحظ أن هذا المصطلح الطويل أختزل أخيراً في لفظ (فزان) المختصر، ربما كان في البداية بصيغة التأنيث: (فزانت :**Phasant**) بدليل أو (بيتس) أورده هكذا (**Fazzan**).

يعود وجود الجرمنتيين في هذه المنطقة إلى حدود الألف سنة قبل الميلاد. إلاّ أن هيرودوتس والكتّاب الكلاسيكيين الآخرين لم يضعوا فاصلاً زمنياً ومكانياً بين الجرمنتيين وما جاورهم أو اختلط بهم من أقوام، باستثناء ذكرهم للإثيوبيين والزنوج وبعض القبائل الليبية

---

(65) خشيم، د. علي فهمي: **نصوص ليبية**، ط2، 1975، دار مكتبة الفكر، طرابلس/ ليبيا، ص55.

الأخرى التي عمّرت المكان مثل الفاروسي والجتّولي وغيرهما. وعند حديثهم عن هذه القبائل يخلطون دائما بينها وبين الجرمنتيين المعروفين بتوزيعهم المكثف على طول المنطقة التي وجدت فيها أيضاً القبائل الليبية المذكورة. ويرى البعض أن الجرمنتيين الأقوياء استطاعوا السيطرة على تلك القبائل الضعيفة وسخّروها لخدمتهم. و هذا السياق يعتبر الجرمنتيين طارئين على المنطقة وليسوا من سكانها الأصيلين. ويبرر البعض ذلك بوجود العنصر الأبيض الداخل في التركيب الجنسي للجرمنتيين إمعاناً في التأكيد على مجيئهم من وراء البحر (شعوب البحر)، وقد ناقشنا هذه القضية في الفصل الأول. ونظراً لعدم زيارة الكتّاب الإغريقيين بأنفسهم إلى دواخل ليبيا نقلوا أخبارها بشيء من الازدواجية. يقول استرابو: "**إننا لا نعرف شيئا عن أغلب القبائل التي تسكن ليبيا، لأن الجيوش الأجنبية والرحالة الأجانب قليلا ما ارتادوا البقاع الداخلية، كما وأن القليل جدا من سكان تلك الجهات هم الذين جاءوا إلى مدننا بالشاطئ، وحتى هؤلاء القلة قلما يذكرون أية أخبار مفصلة عن بلادهم**»[66]. وهذا القول يؤكد عدم زيارة استرابو وقبله هيرودوتس إلى الدواخل. كما يؤكد -من خلال حديثه- أن كل السكان هم أصيلو المكان وليس بينهم أجانب، ولو كان من بينهم أجانب، شعوب البحر مثلا، لكان اتصالهم بالشاطئ متواصلا بحكم علاقتهم الأولى به وحنينهم إليه. ومن جانب آخر تُظهر هذه الأقوال ازدواجية في نقل أخبار أهل الدواخل، يقول هيرودوتس مثلاً: «..**ويسكن الجنوب الجرامنتس في أرض الوحوش، وكانوا يفرون من منظر الناس وينفرون من صحبتهم، ولم تكن لهم أسلحة حرب، ولم يكونوا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم**"[67] -ربما كان يصف قبيلة (التروجلودايت) المجاورة للجرمنت، غير أنه يسميهم أحياناً بالجرمنت أيضاً-، ثم يؤكد في مواضع أخرى على قوة الجرمنتيين وشجاعتهم وميلهم للقتال واستعمالهم للعربات التي

---

(66) البرغوثي: **التاريخ الليبي القديم**، **مصدر سابق**، ص 139.

(67) البرغوثي: **المصدر الأخير**، نفس الصفحة.

تجرّها الخيول الأربعة في الحروب. فإن كان الحديث عن القبائل الضعيفة التي يقال أن الجرمنتيين استعبدوها فهذا يجب أن يكون سابقاً لعصر دخول الحصان إلى ليبيا، بل وقبل ظهور شعوب البحر الذين يقال أن الجرمنتيين ينتمون إليهم، بينما عرض هيرودوتس حالهم بصيغة الحاضر وليس بصيغة الماضي، أي زمن زيارته المشهورة إلى قورينة في القرن الخامس قبل الميلاد. ولكن لا يمنع أنهم استعملوا العربات في ملاحقة ومحاربة جيرانهم من زنوج وإثيوبيين وغيرهم. ولعل هذه الازدواجية غير المقصودة تؤكد حقيقةً لم يتم التعرض لها بصورة دقيقة، ألا وهي تحول سكان منطقة فزان (جام-فزانتس) من بدائية العصور الحجرية والأسلحة البسيطة إلى مرحلة أكثر تطور قوامها أدوات وأسلحة معدنية، وهذا ما يتسق مع أسلوب التطور الحضاري عند الشعوب. وربما كان الاتصال التجاري عبر دروب القوافل سبباً في إطلاع سكان الصحراء على حضارة سكان السواحل فاقتبسوا منها ما ساعدهم على مقاومة قسوة الطبيعة في صحاريهم القاحلة والتغلب على الأعداء والطامعين في خيرات واحاتهم. ومما يساند هذا الرأي أن الإشارة الصريحة للجرمنتيين بدأت فقط منذ القرن الثالث قبل الميلاد، أي بعد بناء مدينتهم جرمة. وهي الفترة التي تأكد فيها استقرار جيرانهم الشماليين في مدنهم الجديدة على الساحل لعدة قرون: الفينيقيون في الشمال الغربي، والإغريق في الشمال الشرقي، علاوة على الحضارة المصرية العريقة من جهة الشرق، ثم الرومان الوارثين للحضارة الإغريقية والمحطِّمين للحضارة القرطاجية. تلك هي المصادر التي نهل منها الفزّانيون مقومات حضارتهم، التي خلّصتهم من بدائيتهم فباتوا يشكلون -من جانبهم- مصادر حضارية جديدة لجيرانهم من سكان السواحل الشمالية. ذاك هو التفاعل الحضاري بين الشعوب منذ أقدم العصور.

2- حضارة جرمة:

إن استقرار الجرمنتيين في مدينتهم (جرمة) وبناء أسس حضارتهم فيها، هو أهم الدوافع التي جعلت المؤرخين يلتفتون إليهم ويهتمون بهم. فبعد موقعهم الأول على قمة جبل (زنككرا)، بنوا مدينتهم التي اشتهروا بها على حافة وادي الآجال (وادي الحياة حاليا). وبقاياها تشير إلى أنها على هيئة شكل بيضاوي "**يبلغ قطرها من الشرق إلى الغرب حوالي خمسة كيلومترات، ومن الشمال إلى الجنوب حوالي ثلاثة كيلومترات ونصف**»[68]. كان داخل المدينة المحاطة بسور وخندق بيوتٌ كبيرةٌ وحمامات ومعابد. وقد أشير إلى أن في المدينة طرزاً رومانيةً وتأثيراتٍ إغريقيةً وقبوراً هرميةً. وهذا التأثر الروماني والإغريقي والمصري إنما هو ناتج عن العلاقات التجارية التي كان الجرمنت يقيمونها مع قورينا أولا ثم مع الفينيقيين والرومان فيما بعد، ولهم مع النيل خط تجاري. وقد أشرنا في الفقرة الفائتة أن استرابو تحدث عن مجيء الجرمنت إلى الشاطئ، ولا يكون ذلك إلاّ بسبب الاتجار، فقد عُرف عن الجرمنت أنهم كانوا حرّاس القوافل التجارية بين أعماق أفريقيا والسواحل الشمالية عبر الطرق الصحراوية، ولا تصل البضائع المشهورة بها أفريقيا كالملح وريش النعام وعاج الفيل وغيرها إلى الإغريق والفينيقيين والرومان إلاّ بواسطة قبائل الدواخل وأهمها الجرمنتيين سادة الصحراء. إذن فلا غرابة من وجود تأثيرات حضارية على معمار مدينة جرمة. وقد زاد من تلك العلاقات التجارية وصول الجمل إلى الصحراء الليبية، فكان مساعداً فعّالاً للحصان السابق استئناسه منذ زمن واستخدامه من قبل الجرمنتيين خير استخدام. ويذكر هيرودوتس أن الإغريق عرفوا العربة التي تجرها الخيول الأربعة من الجرمنتيين، واستخدمها القورينيون في سباقاتهم بنفس طريقة الجرمنت. ويقال أن الألعاب الأولمبية كانت تقام في قورينا، أساسُها سباق عربات الخيل. ولا زال في قورينا (شحات) آثار ملعب لسباق الخيل على شكل بيضوي.

---

(68) **تاريخنا: مصدر سابق**، الكتاب الثالث، ص 171.

هكذا تفاعل الجرمنتيون مع كل الأقوام التي جاورتهم، وهكذا تأثروا بهم وأثروا فيهم. ولتأكيد وجودهم أرادوا أن يضيفوا على الرسوم الصخرية التي اشتهرت بها جبال المنطقة منذ العصر الحجري الحديث رسوماً أخرى سجّلوا عليها مرحلتهم بطريقتهم وأدواتهم الخاصة، من بينها رسم العربات التي تجرها الخيول الأربعة، وهي -رغم بساطتها- اختراع حضاري انفردوا به عن سائر الشعوب التي عمّرت كافة مناطق الشمال الأفريقي بكل تضاريسه المتنوعة. وعادة استعمال العربات المجرورة بواسطة الخيل عُرفت قديما في مصر كأداة فعالة في الحروب "**وهذه كان يركب فيها عادة محاربان..**»[69] وذلك في زمن ما بعد دحر الهكسوس خارج مصر[70]. ويذكر الدكتور علي فهمي خشيم أن بعض الهكسوس جاء إلى ليبيا. كما استخدم الحيثيون ذاك النوع من العربات، ولكن باختلافات بسيطة في الشكل وعدد الركاب[71]. أما في بلاد ما بين النهرين فقد استعمل البابليون "**عربات حربية تجرها الحمير والخيول الوحشية، ولم تستعمل الخيول المستأنسة إلا في عصر متأخر نسبيا. وكانت هذه العربات ثقيلة، عجلاتها صماء، ولم تظهر العجلات الخفيفة إلا في حوالي الألف الثاني ق.م.**»[72]. إلا أن الإغريق يعترفون بأنهم لم يشاهدوا تلك العربات قبل احتكاكهم بقدماء الجرمنتيين.

---

(69) عصفور، د. محمد أبو المحاسن: **معالم حضارات الشرق الأدنى القديم**، ط؟، بيروت/لبنان، دار النهضة العربية، 1987، ص99.

(70) المعروف أن الهكسوس هم من جلب الحصان المستأنس إلى مصر، وربما إلى ليبيا أيضا، كما يقال أن مصر عرفت الحصان قبل الهكسوس.

(71) أنظر: عصفور: **المصدر الأخير**، ص178.

(72) عصفور: **المصدر الأخير**، ص213.

3- جرمة ونهاية المطاف:

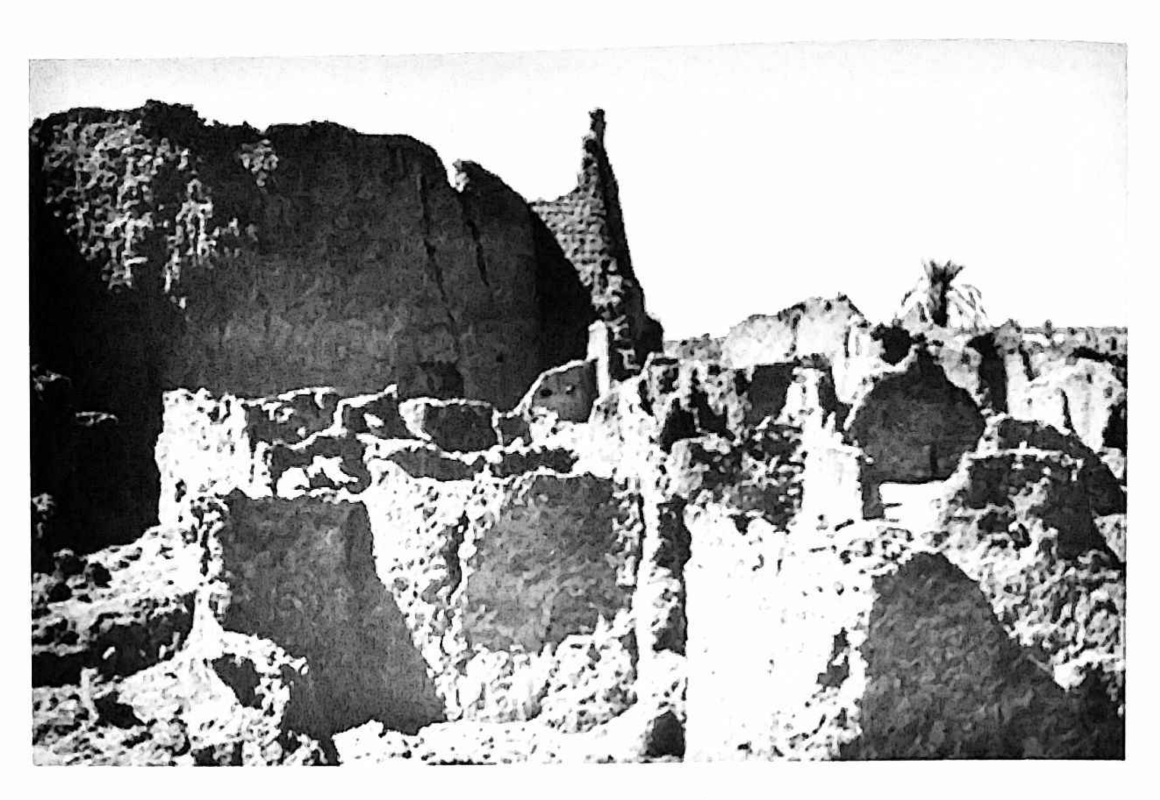
وُجد أكثر من أربعين ألف قبر في مقبرة واحدة قرب مدينة جرمة، وحوالي مائة ضريح بجوارها. وهذا دليل على كثرة عدد أفراد قبائل الجرمنت. قلنا قبائل وليست قبيلة واحدة كما يُذكر أحياناً، إذ لا يمكن أن تقوم قبيلة واحدة ببناء مثل هذه المملكة مترامية الأطراف. حتى وإن تعددت أسماء القبائل فلا بد أنها قبائل صغيرة خضعت لسيطرة الطبقة الأرستقراطية العسكرية من سكان جرمة، وبالتالي تصبح كلها جرمنتية ما دامت تأتمر بأوامر العاصمة، مثلهم مثل بقية الممالك الأخرى كالقرطاجنيين نسبةً لمدينة قرطاجنة والقورينيين نسبةً لمدينة قورينا.

وقد ذكر الكتّاب الكلاسيكيون خبراً عن أفراد قبيلة (التروجلودايت) أنهم من أكلة الديدان والسحالي والأفاعي.. ورجّح الدكتور البرغوثي أنهم أسلاف (الدّوادة) مع فصلهم عن الجرمنتيين. إلاّ أننا زرنا المكان وعلمنا من سكانه قبل -ترحيلهم من هناك- أنهم -رغم الملامح التارقية- ينتمون إلى قبيلة المقارحة، وأن وجود أسلافهم في ذاك المكان المنقطع عن العالم تقريباً إنما كان ربما تبركاً بالولي الصالح (سيدي عون) وهو مغربي استقر هناك أثناء عودته من الحج. علماً بأنهم يصطادون نوعاً من الحيتان الصغيرة التي تعيش في مياه البحيرة شديدة الملوحة ويجففونه ويستعملونه كالبهار في الأكل، ولم تكن ديداناً كما كنا نتصور[73]. إذن فهم معفيون من أكل الديدان التي ذكرها هيرودوتس وغيره. أما عادة أكل السحالي والأفاعي فلا زالت شائعة عند بعض البدو إلى الآن ربما لأغراض علاجية.

هذه العينة من القبائل التي ذكرها المؤرخون والرحّالة وبخاصة الإغريقيون منهم، تشير إلى التنوع والتشكل البشري الذي حصل أثناء سيطرة الجرمنتيين على فزان وما جاورها. فكان على هيئة تراكمات سببُها الهجرات الدائمة والبحث عن المكان الأفضل للاستقرار. وقد

(73) زيارة إلى (قبر عون) أو (الدوّادة) سنة 1995، حيث قدّم لنا السكان هدية ثمينة متمثلة في إناء مليء بعجين تلك الحيوانات الصغيرة.

اتفقت كل تلك الأطراف على أن التوحش في الصحراء أفضل من أي مكان آخر تجود به تضاريس هذه الأرض. والحياة من هذا النوع قد يراها الآخرون نقيصةً أو رجعيةً أو تخلفاً أو بدائيةً، ولكن لكل مذاهبُه في الحياة وطرائقُه في فهم الحرية. وبما أننا نؤيد -إلى حد ما- الرأي القائل بأن التوارق هم أحفادُ الجرمنتيين أو ورثتهم المقربون منهم. فإننا نرى الحال القائم الآن يدعّم -إلى حد كبير- هذه الحقيقة. والتوارق أيضاً ليسوا قبيلة واحدة تحمل هذه الاسم، وإنما قبائل شتى، تتفق في أهم الخصائص، وهي التوحش في الصحراء ولزوم التلثم وركوب المهارى.. ومن خلال هذه الخصائص بنوا حضارتهم الصحراوية، تماماً مثل أسلافهم الجرمنتيين. إلاّ أن حضارتهم كانت على مساحة جغرافية أوسع من أسلافهم، وهذا شيء طبيعي يفرضه التكاثر في النسل، وبالتالي التوسع في المكان. وإذا كان التوارق ينتمون إلى قبيلتي صنهاجة وكتامة التي جاءت مع القبائل اليمنية التي استجاشها أفريقش بن صيفي الحميري في القرن الرابع الميلادي على حد قول المؤرخين العرب، فلا بد أن يكونوا هم العرب الذين جاءوا إلى الشمال الأفريقي في عام الفيل وأكثروا فيه من غرس النخيل الموجود أصلاً في كل الواحات. ولا بد أنهم وجدوا بقايا قبائل الجرمنت وقد أفل نجمهم وانحطت حضارتهم منذ دخول الرومان إلى الشمال الإفريقي وصراعهم مع الوندال وقيام الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ومنذ ذلك الحين ظهرت فرق الجمّالة أو الهجّانة التي كان لها باعٌ طويلٌ في حروبها مع الغزاة الرومان والوندال. واختفى إلى حد كبير ذكرُ الجرمنتيين.



أطلال مدينة جرمة الأثرية

مناقشة جانبية: السؤالُ الذي يفرض نفسه هنا: من هم الجمّالة؟ يجيب (بروكوبيوس)، وهو مؤرخ بيزنطي، بأنهم من مغاربة طرابلس[74]، ويذكر أحمد صفر، وهو مؤرخ تونسي، أنهم خليط من الجرمنت وأهل لبدة وطرابلس وقائدهم (كاباون)[75]. ويتفق الجميع على أنهم من القبائل الصحراوية التي تمكنت أخيراً من استخدام الجمل، حيث سخّروه لمقاتلة الغزاة بطريقة أقلقلت خيول الروم والوندال، وهي تشكيل الإبل على هيئة دائرة تتوسطها النساء والأطفال والأمتعة، بينما ينشغل الرجالُ برمي السهام على العدو من بين قوائم الإبل التي تخشاها الخيول المنافسة. وهي طريقة ذكية تذكّرنا بالطريقة التي انفرد بها الجرمنتيون عندما اخترعوا العربة التي تجرها الخيول الأربعة وسخّروها لملاحقة عدوّهم من الزنوج الذين اشتهروا بالسرعة في العدو. وفي كلا

(74) أنظر: غوتييه أ. ف.: **ماضي شمال أفريقيا**، تعريب: هاشم الحسيني، ط1، 1970، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص134.

(75) أنظر: صفر، أحمد: **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، ج1، ط؟، ؟، تونس/ تونس، دار النشر بوسلامة، ص158.

الأسلوبين تكمن القدرة على حسن استغلال تلك الحيوانات الأليفة وتسخيرها للخطط الحربية علاوة على الاستغلال الأمثل في حالة السلم.

وفي هذه الحالة يطرح سؤالٌ أخر نفسه: **هل فرق الجمّالة من الجرمنتيين أم من التوارق؟** ليس لدينا جواب قاطع. ولكن جميع المعطيات تجعلنا نفترض أن فترة ظهور فرق الجمّالة هي الفترة الرابطة بين زمن الجرمانتيين وزمن التوارق، لأنها تتفق مع مجيء العرب من اليمن ممثلة في صنهاجة وكتامة وكذلك العرب الذين جاءوا في عام الفيل، من جهة، واحتدام الصراع الروماني الوندالي، من جهة ثانية، ثم قدوم العرب الفاتحين، من جهة ثالثة. وقد تبدّلت حالة الجرمنتيين من الحسنة إلى السيئة منذ أن حل الرومانُ بالبلاد. حيث كانت علاقتُهم بالإغريق والفينيقيين علاقةً وديةً وسلميةً تبادلوا خلالها تجارة استفاد منها الجرمنتيون استفادةً جعلتهم ينعمون بالثراء الاقتصادي، أما الرومان فكان الجرمنتيون ألدَّ أعدائهم وأكثرَ سكان الشمال الإفريقي مقاومةً لهم. ونتيجة لكثرة ثوراتهم على القلاع الرومانية التي ضربها أغسطس على طول الحدود الصحراوية لإمبراطوريته، قامت فرقته المشهورة بمهاجمة مدينة جرمة وحرّقتها سنة **19** ميلادية، وأقام قائدُ الحملة الروماني احتفالاً بتلك المناسبة في مدينة صبراتة(76). ومنذ ذلك الحين تراجعت هيبةُ جرمة الاقتصادية بسبب الغارات الرومانية عليها لعدة مرات، حتى أن بعضَ ملوكها خضعوا للرومان وتحالفوا مع بعض قادتهم للإغارة على بلاد الإثيوبيين لاقتناص العبيد، من أجل كسب المال الذي بدأ يتناقص في أيديهم. ولكن جرمة ظلت صامدة في وجه الأعداء، رغم أن الحديث عنها صار يوصف بـ(القديمة) أو (الهرمة). إلاّ أن ظهور جحافل الوندال في منطقة طرابلس كان قد تزامن مع ظهور فرق الهجّانة التي نسبت إلى عدة قبائل ليبية اشتهرت منها قبيلة لواتة. ولكن المؤرخين يذكرون أيضاً الجرمنتيين من بين تلك الفرق التي ارتبط تاريخُها بفترة الاحتلال الوندالي. وقد نشطت المذاهب الدينية المسيحية خلال فترة الضعف

---

(76) أنظر: **تاريخنا**. **مصدر سابق**، الكتاب الثالث، ص 164.

الروماني والجرمنتي على حد سوى. ومن بين تلك الفرق كانت جماعة (الدوناتية) في طرابلس والتي احترفت السلب والنهب فيما بعد، فوجدت في الجنوب الليبي مجالا للسطو والإغارة، فدخلت إلى مدينة جرمة المنكوبة ودمرتها. ومنذ ذاك التاريخ فُتحت المدينة ومزارعها أمام القبائل الليبية التي كانت تسكن حول خليج سرت مثل هوارة ومزاتة. ولم يستطع الجرمنتيون دفع نفقات الحامية البيزنطية التي جاءت لحماية مدينتهم. فانقلبت حضارة جرمة الشهيرة رأساً على عقب، وعادت المنطقة برمتها إلى البداوة من جديد، حتى فتحها العرب سنة **669**م. وبدأ سكان المنطقة يعرفون بالتوارق كما سبق الذكر.

والتوارق -مثلهم مثل أسلافهم الجرمنتيين- لم يستطع أحد تحديد أصولهم الأولى. فالبعض يرجعهم إلى صنهاجة وكتامة، والبعض يقول أنهم من قبائل أوراغن الضاربة في الهضاب المحيطة بغات، ظهرت قوتها عندما تصدّت لسطوة قبائل الخرمان التي طردت الكانميين القادمين من تشاد[77] بعدما بسطوا نفوذهم على المنطقة فترة طويلة من الزمن. وحلّت قبائل التوارق محل الجميع. وظلت مدينةُ جرمة عامرةً بأهلها حتى سنة **1936**م حيث انتشر فيها مرضُ الملاريا فهجرها أهلها[78]، وبقيت أطلالُها الأثريةُ حتى اليوم تروي لنا قصة الثلاثة آلاف سنة الماضية.

4- سرت ولبدة وأويا وصبراتة في الشمال:

السواحل الشمالية، وبعد انتهاء العصور الحجرية في كهوف (الفتايح والضبع والطير وطرابلس وغيرها)، كانت عامرةً بالقبائل التي اشتهرت عند الكتّاب الكلاسيكيين والتي ذكرناها في الفصل الأول. في الوقت نفسه كانت القبائل الشرقية مشغولةً بالصراع الحربي والسلمي مع

(77) أنظر: البرغوثي، **التاريخ الليبي القديم**، **مصدر سابق**، ص 447.

(78) أنظر: **تاريخنا**: **مصدر سابق**: ص 171.

إخوانهم سكان وادي النيل حتى استقر بعضُها أخيراً في مصر، مثل المشواش التي استولت على مقاليد الحكم هناك. ونذكر فيما يلي بعض المدن المشهورة، مع محاولة تحليل أسمائها عن طريقة تسليط بعض أدوات علم فقه اللغة قدر المستطاع، وذلك بهدف معرفة طبيعتها وأسباب تسميتها بتلك الأسماء التي ذكرها قدماء المؤرخين، حيث جرت العادة على إطلاق الأسماء على المدن بحسب طبيعة الأقاليم الواقعة فيها أو الأقوام التي سكنتها أو أي مميزات حضارية وتاريخية أخرى. مع استثناء منطقة برقة التي كانت لها خصوصيتُها بعد عصر قبائل التحنو والتمحو والريبو أو الليبو والمشواش، فتركناها لحينها وموقعها:

أ- سرت الكبرى (Syrtis Major): ويسميه أوريك بيتس (خليج الكبريت). وهناك (سرت الصغرى)، وهي قابس حالياً. ويبدو من موقع مدينة سرت الحالية أنها تقع على الخليج المعروف بها، وهو خليج داخل في اليابسة على هيئة قوس صحراوي متعرّج، يفصل بين منطقتين خصبتين هما: الجبل الأخضر في الشرق ووادي كعام في الغرب، وربما كان ذلك سبباً آخر في تمييز المكان بالصحراء. وفي العصر الكلاسيكي كانت قبائل الماكاي والنساموني يتجولون حول خليج سرت، وهؤلاء النسامونس كانوا يهجرون مواقعهم سنوياً إلى واحة أوجلة لجني ثمار النخيل. وفي اللغة المصرية القديمة نجد الصحراء تسمّى بلفظ (دشرت)، مما يبعث على الاعتقاد أن الفينيقيين عندما جاءوا إلى المكان أطلقوا عليه اسم (سرت) وألحقوه بـ(الكبرى) تمييزاً له عن صحراء خليج قابس الأصغر مساحة. وربما لفظ (سرت) الفينيقي تحريف طفيف للفظ (دشرت) المصري، ولعله تطور إلى اللفظ اللاتيني (**Desert**) الذي يعني الصحراء أيضاً.

ب- لبدة العظمى (Leptis Magna): يبدو اسم (لبدة) في صيغته العربية أنه مقلوب لفظ (بلدة)، ولكن الأصل اليوناني (لبتيس)، ربما أخذه الإغريق عن الاسم الفينيقي (**LBKY**) الذي يظهر في الكتابات البونيقية هكذا (**LBT**) وفي الكتابات البونيقية الجديدة

هكذا (**LBY**) ويُقصد به أصل اسم السكّان: (ليبو:ليبيون)، ربما من الأصل المصري القديم (**Rbw**):(**Libu**). وكان وادي كعام (Kinyps) المشهور تاريخياً بخصوبته يقع في محيطها، وكان إنتاجه من الحبوب يضاهي إنتاج مدينة بابل أيام مجدها، لذا كانت لبدة (العظمى) محل نزاع بين القرطاجيين الفينيقيين والقورينيين الإغريق، إلى أن نصبوا حدّاً بينهما عُرف تاريخياً بمذبح (الأخوين فليني)، وله قصة أسطورية غاية في الغرابة، وكان يقع بين العقيلة ورأس لانوف الحاليتين. فكانت لبدة العظمى -منذ العصر الكلاسيكي- أول مدينة عصرية تصادف القادم من برقة بعد اجتياز صحراء خليج سرت، فاهتم بها الفينيقيون وطوّروها من مجرّد مرفأ بحري إلى مدينة، ثم اهتم بها الرومان واعتبروها عاصمةً لخليج سرت، خصوصاً في عهد أسرة الإمبراطور (سبتيموس سيرفيروس) اللبداوي.

جـ- أويا (Oea): وهو الاسم القديم لمدينة طرابلس الحالية (**Tripolis**) التي تعني المدن الثلاث: (لبدة وأويا وصبراتة) بعد توحيدها. و(أويا) لفظ حروفه كلها علّة يصعب إرجاعُه إلى جذر معيّن. لكننا نجد في (ابن منظور) في مادة (أوأ) لفظَ (آء) : على وزن عاع، جمع (آءة)، وهو لفظٌ غريبٌ وتركيبُه منفردٌ في معاجم اللغة العربية، ولكنه يحمل معنى واضحاً: (شجرة من نوع الدفلى له ثمر يأكله النعام)، وقيل (عنب أبيض يأكله الناس ويتخذون منه رُبّاً). ويذكر اليونانيون: (سيلاس) و(بليني) و(بتوليمي) أن المنطقة التي تقع فيها حالياً مدينة طرابلس كان يسكنها قوم يسمّون (لوتوفاجي **Lotophagi**) أي أكلة (اللوتس) وهو شجر (النبق) المعروف إلى الآن والذي أسماه الدكتور البرغوثي (زيزفون Rhammus Zizyphus). وأكد هيرودوتس أن بعَض اللوتوفاجي كانوا يعتمدون -في معيشتهم- على ثمار تلك الأشجار باعتبارها الغذاء الوحيد لهم، وكانوا يستحضرون منها نوعاً من النبيذ. وبالتالي ألا يمكننا مطابقة شجرة (الآءة) التي ذكرها ابنُ منظور بشجرة (اللوتس) التي ذكرها الكتّابُ والجغرافيون الإغريق،

ما دام كلاهُما يشكّل مصدرَ غذاءٍ بشري لسكّان منطقة طرابلس (أويا) القديمة على هيئة حبّات من (عنب) أو (نبق)، علاوة على امكانية استخراج (الرُبّ) و(النبيذ) من كليهما؟ هذا من جانب، ومن جانب آخر فإننا نجد (أويا) في اللفظ العربي (أوا)، إذ تقول العربُ: (أوى فلان إلى منزله، يأوي أوْياً)، و(المأوى والمأواة): المكان يأويه الإنسان والحيوان ليلاً أو نهاراً، وهكذا المدينة بصورة أشمل. وإذا صح ما ذهبنا إليه في تأويل لفظ (أويا) فإننا نعتقد أن هذا الاسم لا يخرج عن عائلة اللغات أو اللهجات العروبية التي جاء الفينيقيون بإحداها إلى الشمال الأفريقي. إلاّ أن البعضَ يذكر أصل الاسم الفينيقي لهذه المدينة هكذا: (**Ui'at**)، وقد يُنطق (أويعات) أو (أويآت) بإبدال العين ألفاً، وهو إبدال شائع في اللغات العروبية القديمة، وهذا الأخير لا يختلف عن (أويا) المشروح آنفاً إلاّ في تاء التأنيث، وهي إضافة لم تغيّر المعنى العام للفظين: (آءة) و(أوا).

د– صبراتة (Sabrata): يبدو أن الاسم القديم لهذه المدينة كان هكذا: (صبرة أو صَبرت)، ويتبادر للذهن عند الوهلة الأولى أن لها علاقةً ما بالمدينة الإغريقية (إسبرطا) عاصمة الدوريين في شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة)، ولكنهما مختلفان في الزمان والمكان. كما أن الاسم سابق لعهد توحيد المدن الثلاث (Tripolis)، أي قبل الاحتلال الروماني، إلى جانب أن الإغريق المحتلّين لمنطقة برقة لم يتجهوا غرباً إلى أبعد من مدينة (يوسبيريديس : بنغازي حالياً)، أي أنهم لم يصلوا إلى طرابلس حتى يطلقوا الأسماءَ على مدنها القريبة منها. لذا لا بدّ أن يكون أصل اسم مدينة (صبراتة) فينيقياً، أي أنه اسمٌ عروبيٌّ قد نجد له مكافئاً في لغتنا العربية الحالية. ففي (ابن منظور): الصَّبْرَةُ: الحجارة الشديدة، ومنها (الصَّبّارةُ): الأرضُ الغليظة لا نبات فيها. أما إذا كانت بالسين، فنجد: (أرضٌ سِبراتٌ وسِبريتٌ وسُبروتٌ): أرضٌ لا نبات فيها أيضاً. ويبدو أن حال مدينة صبراتة كان هكذا مقارنة بمدينة لبدة ورافدها وادي كعام شرقاً، ومدينة

حضرموت (سوسة) وساحلها الخصب غرباً. وتحيط بمدينة صبراتة أراض لا تحتوي على غير مراعي الإبل والأغنام والماعز وبعض نباتات البحر المتوسط الموسمية التي يمتاز بها سهل الجفارة، علاوة على اشتراكها مع مدينة أويا قديماً في إقليم نبات (اللوتس) البري الذي اتخذته قبائل (اللوتوفاجي) غذاءً وشراباً كما سبق الذكر.

خامساً: الفينيقية.. حضارة دخيلة تأصلت:

1- بداية العصر التاريخي في ليبيا:

إذا اعتبرنا أن العصرَ التاريخي في العالم القديم قد بدأ مع بداية استعمال شعوبه الكتابة والتدوين، فإن بلاد ما بين النهرين ووادي النيل قد بدأ فيهما العصر التاريخي في حدود الألف الثالث قبل الميلاد. ولكن في ليبيا لا يمكننا اعتبار الرسوم والنقوش الصخرية التي تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد كتابةً خاصة بالتوثيق والتدوين، لأنها لا تتحل إلى كلام ولا تحمل نصوصاً تاريخية كالتي كُتبت بالمسمارية في بلاد الرافدين والهيروغليفية في وادي النيل. فالمرحلة التي توصل إليها الإنسان للكتابة كانت مرحلة السكن على حواف الأودية دائمة الجريان في عصر الجفاف، أما في ليبيا -خصوصاً جنوبها- فقد غادر السكان كهوفهم الموشّاة بالرسوم في زمن استفحال الجفاف وقبل التوصل لاختراع الكتابة بمفهومها اللغوي الصريح. لهذا السبب تأخرت ليبيا قرابة ألفي سنة عن ولوج العصر التاريخي، ولم تتبين أية إشارة لاستعمال قدماء الليبيين الكتابة والتدوين، إلاّ في العهد الفينيقي، وذلك بعد بناء مدينة قرطاجة والموانئ والمرافئ التجارية التي صارت مدناً فيما بعد مثل سرت الكبرى ولبدة وأويا وصبراتة وسرت الصغرى وحضرموت.. وبعد حوالي قرن من استقرار الفينيقيين في مدنهم الشمال أفريقية، جاء الإغريق -وهم أكثر الجيران تقليداً ومنافسةً للفينيقيين- إلى الجبل الأخضر شمال شرقي ليبيا واستقروا فيه هم أيضاً. من هنا بدأ الليبيون يتعرّفون على حضارة فنية من نوع آخر قوامها الكتابة الأبجدية والتدوين

على بوابات القصور والمقابر وغيرها.. ومن هنا أيضاً التفت الكتّاب والمؤرخون والجغرافيون الأجانب إلى ليبيا وصارت أحداثها ضمن كتاباتهم ومدنها ضمن خرائطهم، فدخل الليبيون دفعة واحدة في العصر التاريخي حتى وإن كان متأخراً عن أشقائهم في وادي النيل وسوريا وبلاد الرافدين. إذن، كان الفينيقيون أول الكنعانيين القادمين من الشرق إلى ليبيا في العصر التاريخي، حيث اختلطوا مع أبناء عمومتهم -قدماء الليبيين-، فرفعوهم درجات على السلم الحضاري، وساهموا في تحويلهم من حياة البداوة إلى حياة التحضر والاستقرار في المدن والقرى وممارسة الزراعة وتربية الحيوانات، ثم التجارة والإبحار عبر سواحل المتوسط والأطلسي، مما استوجب ممارسة فن الكتابة والتدوين بنفس الطريقة التي تعلّموها من الفينيقيين.

2- الفينيقيون وتأثيرهم الحضاري على قدماء الليبيين؟:

في حدود الـ**2000** ق.م. اجتاح الكنعانيون مدينة بابل قادمين إليها من سوريا، تحت اسم العموريين، والملك (حمورابي) منهم. وبعد حوالي ثمانية قرون انتهى وجودهم في بابل وبلاد الرافدين كمجموعة سكّانية خاصة، فدخلوا من جديد إلى سوريا وفلسطين واشتبكوا مع الحوريين المهاجرين وتغلبوا عليهم. ولعل مكانتهم قويت بفضل دعم القبائل العربية التي هاجرت إلى المنطقة من جنوب الجزيرة العربية، وكانت تتكلم اللغة ذاتها[79]. وقد قيل -في عدة مواقع- أن الفينيقيين الأوائل جاءوا من اليمن إلى سوريا بعد أن استقروا ردحاً من الزمن باليمامة. ثم توطّد كيانهم بشكل أساسي في المدن الساحلية الواقعة جنوبي مدينة اللاذقية، وكانت مدينة أوغاريت ذات مكانة خاصة كمرفأ ساحلي مهم في الفترة ما بين **1400** و**1200** ق.م. وقد برزت التسمية اليونانية لهم وهي (الفينيقيون)، وذلك منذ أن صار أولائك الكنعانيون ملاّحين متميزين في الشرق القديم، حيث انطلقوا منذ دخولهم إلى سوريا واختلاطهم بالقبائل العربية

---

(79) زودن: **مصدر سابق**، ص18.

الجنوبية في اتجاه الغرب، في الـ**1200** ق.م. وأقاموا مستعمرات بحرية في جميع مناطق حوض البحر المتوسط، بل وتجاوزوها إلى مناطق أبعد(80). لقد صنع الفينيقيون من أشجار الأرز التي تكثر في بلادهم سفناً ووصلوا بها إلى القوقاز عن طريق البحر الأسود شرقاً وإلى الجزر البريطانية عن طريق قادس جنوب إسبانيا والمحيط الأطلسي غرباً. وفي الأثناء بنوا مدينتهم الجديدة (قرطاجة) على بحيرة تونس.

كما سمح لهم ليبيو منطقة طرابلس ببناء ثلاث مدن اقتصادية: لبدة وأويا وصبراتة، وكان نفوذ الحكم فيها وفي الدواخل لأبناء البلاد(81). ويقول (غوتييه): «..**فعلى شاطئ سرت شرقي قرطاج جرى التعرّف على عشرين مدينة فينيقية ولم يسلك القرطاجيون في تلك المدن مسلكاً عنصرياً، بل تمازجوا بسكانها الأصليين عن طريق الزواج**»(82). وبحكم القرابة وتشابه اللغة والطباع استحسن قدماء الليبيين وجود الفينيقيين بين ظهرانيهم، فأخذوا عنهم كافة فروع النشاط الاقتصادي كالزراعة والصناعة والتجارة التي وسّعت أمور المعيشة في البلاد وشغّلت كثيراً من الرجال الذين كانوا قبل ذلك معطّلين، وأخذوا عنهم كثيراً من مظاهر التمدّن الشرقي(83).

ومن أهم السمات الحضارية التي عرفها العالم القديم عن الفينيقيين، كانت أبجديتهم المشهورة التي استعارتها الشعوب المجاورة للبلاد السورية، وكذلك الإغريق، إذ يقول هيرودوتس:

---

(80) للمزيد أنظر: زودن: **نفس المصدر**، ص ص28-29.

(81) بن مسعود، محمد: **تاريخ ليبيا القديم والعالم قبل الفتح العربي**، ط2، 1963، مطابع الوفاء، بيروت/ لبنان، ص24.

(82) غوتييه، أ. ف.: **ماضي شمال أفريقيا**، تعريب: هاشم الحسيني، ط1، 1970، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص ص90-91.

(83) بن مسعود: **مصدر سابق**، ص26.

"لقد أدخل الفينيقيون إلى بلاد اليونان مجموعة كبيرة من مختلف الفنون، وكان من بينها الكتابة، وهو -على حد علمي- ما لم يكن يعرفه الإغريق من قبل»[84]. ومن الأبجدية الفينيقية تعلّم الليبيون القدامى فن الكتابة، فاقتبسوا منها بعض الحروف واستعملوها في الأبجدية الليبية القديمة (الكتابة النوميدية)، وكذلك اشتق منها التوارق حروف (التيفيناغ) المشهور عندهم، بالإضافة للكتابات البونيقية المتطورة أساساً عن الأبجدية الفينيقية والتي اعتُبرت إنجازاً محلياً لم يأت به الفينيقيون من مدنهم الأولى بالشام العربي. ويبدو أن الإغريق أخذوا الحروف الأبجدية الفينيقية بعد بناء مدينة قرطاجة واستقرار الفينيقيين بالشمال الأفريقي، ويذكر (أرنولد توينبي) في هذا الصدد أن ذلك حصل "**بعد النكبة التي أصابتهم نحو سنة 1200 ق.م. وهم لم يقتبسوا الألفباء من الفينيقيين إلاّ نحو 750 ق.م.، وهكذا فإن الإغريق قد تأخروا نحو قرنين عن العبرانيين والآراميين في اقتباس الألفباء. فقد ظل الأغارقة أميين ما يقرب من 450 سنة**»[85]. وهذا يعني أن الإغريق أخذوا الأبجدية من الفينيقيين بعد أكثر من ستين سنة من بناء قرطاجة.

---

(84) روجرز، فرانسيس: قصة الكتابة والطباعة، ترجمة: أحمد حسين الصاوي، ط؟، 1969، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، القاهرة/ نيويورك، ص101.

(85) توينبي، أرنولد: تارخ البشرية، نقله إلى العربية: د. نقولا زيادة، ج1، ط؟، 1981، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، ص141.

لقد اهتم الفينيقيون -بعد تأسيس قرطاجة- بالمدن الليبية الثلاث، باعتبارها بوابات تنفتح على منتجات أفريقيا، وتعاملوا -في ذلك- مع الجرمنتيين حرّاس القوافل التجارية عبر الصحراء. كما مارسوا أساليب الزراعة الحديثة في لبدة، فأقاموا السدود المائية في وادي كعام، وغرسوا أنواعاً شتى من الأشجار كالزيتون والرمان والتين والخوخ واللوز والكروم.. كما تأثر سكّان المدن الثلاث بعادات القرطاجيين وعباداتهم. وقد عُثر على مقابر فينيقية وبعض الأواني الطينية والتماثيل في لبدة، وكذلك في منطقة طرابلس.

مناقشة جانبية: من خلال التواريخ التي سُجلت لنشاط الفينيقيين نجد: أن بداية إبحارهم نحو الغرب كان في حدود سنة **1200** ق.م. وأنهم أسسوا (قادس) في الجنوب الغربي لشبه جزيرة أيبيريا سنة **1110** ق.م.. وقيل أن وصولهم إلى الشواطئ الليبية تحديداً كان سنة **900** ق.م. وأسسوا مدينة قرطاجة سنة **814** ق.م. بينما يذكر البعض أن بناءهم للمدن الليبية الثلاث (لبدة وأويا وصبراتة) كان في حدود الـ **600** سنة ق.م. وتشير عدة مصادر إلى أن الفينيقيين كانوا يفضّلون الإبحار قريبين من اليابسة نظراً لصغر سفنهم ذات المجاذف خوفاً من التعرّض للعواصف بعيداً عن البر. وهذا يعني أنهم لم يغامروا بالتوغل في عمق البحار والمحيطات، بل كانوا يُبحرون بمحاذاة الشواطئ[86]. وهناك احتمالان لعملية وصولهم إلى سواحل الشمال الأفريقي: إما أنهم جاءوه مباشرة عبر الحواف الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط: الشام ومصر وبرقة وسرت وطرابلس وسوسة وتونس.. أو أنهم جاءوه عبر الحواف الشمالية: آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا ثم دخلوا شمال أفريقيا من المغرب والجزائر ثم تونس.. أو أنهم

---

(86) مع استثناء المضائق التي كانوا ينفذون منها بين كتل اليابسة، مثل: البوسفور بين آسيا وأوروبا، وجبل طارق بين أفريقيا وأوروبا، ودوفر بين فرنسا وبريطانيا، وربما أيضا المضائق الواسعة نسبياً، مثل: ما بين اللاذقية وقبرص، وبين صقلية وتونس، وبين الجزر اليونانية بما فيها جزيرة كريت وغيرها.. (المؤلف).

استخدموا الطريقين معاً لأن مجيئهم إلى سواحل البحر المتوسط لم يكن مرة واحدة، بل تكرر لعدة مرات على ما يبدو. وعندما جاءت الأميرة (علّيسة) إلى تونس -بالتأكيد- كان مرافقوها يحملون كل المعلومات حول المنطقة، ولهم خبرة حوالي أربعة قرون تجول خلالها أجدادُهم حول حوض البحر المتوسط، أي من سنة **1200** ق.م. تاريخ خروجهم من مدائنهم بالشام، إلى سنة **814** ق.م. تاريخ بناء مدينة قرطاجة. وبالتالي فإن (علّيسة) المنسوب إليها بناء مدينة قرطاجة لم تكن أول فينيقية تصل إلى الشمال الأفريقي، بل سبقها كثيرٌ غيرها. وخلال الرحلات السابقة لعلّيسة تم بناء المرافئ البحرية والموانئ التجارية على طول سواحل البحر المتوسط، أو أنهم استخدموا الأماكن المناسبة لذلك دون إضافات، ولا بد أن من بين تلك المراكز كانت قورينا قبل وصول الإغريق إليها بمئات السنين. وإذا صحّ هذا المذهب فيمكننا احتساب قورينا -أو أي مكان آخر قريب منها يصلح لرسوّ السفن عليه- من ضمن المراكز الليبية السابق ذكرها. ولا نشك في أن الميناء الذي أسسه الإغريق في برقة وأطلقوا عليه اسم (أبولونيا) كان قبل ذلك مرفأ فينيقياً حتى وإن كان طبيعياً وبدون تدخل بشري. وعندما أراد الفينيقيون -بعد تأسيس عاصمتهم قرطاجة- إعادة بناء تلك المرافئ وتحويلها إلى مدن، كانت قورينا عاصمةً للإغريق، فلم تصلها أيدي الفينيقيين. ونستخلص من هذه التوقعات غير المثبتة الآن، أن الفينيقيين بنوا قورينا وسرت ولبدة وأويا وصبراتة كمرافئ ومراكز تجارية في حدود سنة **1000** ق.م.، ثم طوّروها إلى مدن في حدود **600** ق.م.

الفصل الثالث

الحضارات الليبية الدخيلة

أولاً: شعوب البحر:

1- من هم شعوب البحر؟:

إعتاد المؤرخون -عند مرورهم بفترة التاريخ المشترك بين القبائل الليبية القديمة وفراعنة وادي النيل- أن يذكروا شعوب البحر (Sea peoples) التي ساعدت الليبيين على التوغل في مصر. ويشار إليهم على أنهم قادمون من جزر البحر المتوسط القريبة من السواحل الليبية والمصرية. ويحدّدهم (أرنولد توينبي)[1] بالشعوب البحرية الخمسة المقهورة والتي لم تتمكن من التوغل في وادي النيل على مدى القرون الماضية، فكانت على التوالي:

(1)-(**لوكا**) وهو شعب من المؤكد أنه جاء من جنوب غربي آسيا الصغرى.

(2)-(**الآخيّون**) وهم من أصل الشعوب الشمالية التي انثالت على بلاد اليونان منذ الألف الثاني قبل الميلاد، ربّما يكونون من الدّوريين.

(3)-(**الشكلش**) الذين عُرفوا -فيما بعد- بـ(الصقليين) نسبة إلى جزيرة صقلية.

(4)-(**الشردن**) الذين عُرفوا -فيما بعد- بـ(السردينيين) نسبة إلى جزيرة سردينيا.

(5)-(**التورشا**) أي الإتروسكيون، وهم الأغارقة الذين هاجروا إلى جنوب إيطاليا.

وسواء أكانت هذه الشعوب من سكان الجزر الساحلية الطامعة -هي الأخرى- في الفوز بمنافع وادي النيل، أو هي من المرتزقة الذين سخّرهم الليبيون للغرض نفسه، أو من الشعوب المهاجرة للشمال الأفريقي بسبب ضغط القبائل الأوروبية الآتية من الشمال وصارت ضمن تركيبة القبائل الليبية حتى باتوا يُعرفون بالتمحو ذوي العيون الزرقاء. إلاّ أن هذه الجزر

---

(1) توينبي: **مصدر سابق**، ص ص113-114.

القريبة كانت -على مر العصور- مقصداً دائماً لشعوب الشمال الأفريقي. ففي العصور القديمة يُعتقد أن سكّان الشمال الأفريقي أقاموا الحضارة المينوية في جزيرة كريت، حيث تطرق المؤرخون للملامح الشمال/أفريقية السمراء لتلكم الأقوام. وفي العصور الوسطى احتل المسلمون -بعد طردهم من الأندلس- جزيرة كريت وأقاموا فيها دولة بزعامة (أبو حفص عمر بن شعيب)[2]. وكذلك جزيرة صقلية التي كانت محط أنظار المسلمين منذ العهد الأموي إلى العهد الفاطمي والأندلسي، حيث استقر فيها النظام العربي-الإسلامي بقيادة أسرة الكلبيين، واستمرت فيها الثقافة العربية-الإسلامية حتى بعد سيطرة النورمان على الجزيرة في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي[3]. ولا زالت بعض ألقاب العائلات وأسماء المواقع في صقلية تحمل السمات العربية حتى يومنا هذا، كذلك تأثير لهجات سكان الشمال الأفريقي على اللغة المالطية الحالية. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام سكان الشمال الإفريقي بالجزر القريبة منهم منذ العصور القديمة والوسيطة. ولولا دحرهم من قبل القوى الأوروبية زمن الحروب الصليبية لكانت تلك الجزر الآن عربية خالصة. أما إذا كان لنا حديث عن شعوب البحر الغازية للشمال الأفريقي فإننا نذكر -بوضوح تام- سكّان جزيرة (ثيرا) الإغريقية الذين غزوا منطقة برقة وأسسوا فيها حضارة إغريقية خالصة في القرن السابع قبل الميلاد، أو المقدونيين الذين غزوا الشرق كله في القرن الرابع قبل الميلاد، أو الرومان الذين احتلوا الشمال الأفريقي بعد دمار قرطاجة في القرن الثاني قبل الميلاد. وكان لكل ذلك تأثير بالغ الأهمية، حيث غيّر الكثير من جغرافية وتاريخ المنطقة. أما في المرحلة المتحدّث عنها فلم يكن له ذاك التأثير، بل كان أشبه بالصراعات الداخلية التي تبدأ بسهولة وتنتهي بنفس السهولة مقارنة بما حصل عقب الغزوات الضخمة التي كان قدماء الليبيين يقودونها في اتجاه وادي النيل. وقد تراجع بعض المؤرخين عن ذكر مساعدة

---

(2) حلّاق، د. حسّان: **العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، ط؟، 1986، الدار الجامعية، ؟، ص65.

(3) حلّاق: **نفس المصدر**، ص116.

شعوب البحر للقبائل الليبية في غزوهم لمصر، وبدأوا يذكرونهم بصورة منفصلة كمهاجمين على مصر من الشمال، فقد ذكر توينبي أن غزوتين قام بهما الليبيون في سنتي **1194** و**1188** ق.م. في زمن رمسيس الثالث دون مساعدة شعوب البحر[4].

والجدير بالملاحظة أن شعوب البحر الذين كثرت حركتهم في هذه الفترة والتي أسهب المؤرخون في ذكرهم، كانوا يواجهون ضغوطاً من الهجرات الشمالية، وأن أصحاب هذه الهجرات كانوا يجهلون ركوب البحر بحكم قدومهم من أواسط أوروبا. فكان سكان الجزر يحتمون بسفنهم في عرض البحر بداية[5]. ومع الزمن، وبعد أن يتمكن القادمون من خبرة البحر وركوب أمواجه، لم يجد المقيمون أمام هذا الزحف الشمالي الكثيف والمتواصل إلاّ العودة إلى سواحل أفريقيا الشمالية وسواحل آسيا الغربية، ليضغطوا بدورهم على سكان تلك الأماكن. وفي هذه الحالة هل يمكن القول أن الكنعانيين (الفينيقيين) كانوا من شعوب البحر عندما جاءوا إلى الشمال الأفريقي وأقاموا فيه المراكز البحرية قبل أن يواصلوا رحلاتهم إلى بقية سواحل البحر المتوسط؟ فقد كانت رحلاتهم البحرية تلك متزامنة مع حركة شعوب البحر المتحدث عنها. ولكننا لم نسمع بأي تضارب حصل بين الفينيقيين وسكان الشمال الأفريقي، بل يبدو أنهم وجدوا كل ترحاب، حتى أنهم بنوا مدينتهم الجديدة (قرطاجة) بكل يسر. بينما نرى أن سكان الشمال الأفريقي من الليبيين كانوا ينكرون وجود الإغريق والرومان على أراضيهم منذ الوهلة الأولى. ألم يكن في ذلك شعور بالانتماء وقرابة في الدم بين الليبيين والفينيقيين؟.

---

(4) توينبي: **مصدر سابق**، ص114.

(5) أنظر: البرغوثي: **مصدر سابق**، ص125.

2- الليبيون يستجيشون شعوب البحر ضد المصريين:

ويرى آخرون أن شعوب البحر كانت قد بدأت في التكوين منذ أن تغلّب الإغريق الآخيون على جزيرة كريت في بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، فراح بعض سكّانها يبحثون عن مواطن جديدة. وقد توافق ذلك مع هجرة أقوام هندوأوروبية أخرى، ضغطت -بدورها- على السكّان في الشرق الأدنى القديم وآسيا الصغرى وجزر بحر إيجه وبلاد اليونان إلى أن وصل جميعهم إلى ليبيا برّاً وبحراً بغرض الإقامة فيها(6). ولصعوبة موقف الليبيين من الوضع الاقتصادي الذي سبّبه المهاجرون، قام «مريي بن دد» ملك قبيلة الليبو -وهو يستعد للتوجه إلى وادي النيل- باستجاشة تلك الجماعات وتسخيرها لمساعدته على احتلال مصر في السنة الخامسة من حكم الفرعون «مرنبتاح» سنة 1227 ق.م. الذي لم يتمكن من صد ذاك الهجوم إلاّ بعد جهد كبير وقتال عنيف، وقد أطلق المصريون على تلك الجماعات اسم (شعوب البحر). ولم تقتصر مساعدة شعوب البحر للقبائل الليبية في تلك الغزوة الفاشلة على مصر، بل حاولت الكرّة مرّة أخرى في عهد رعمسيس الثالث، ولكنها مع قبائل ليبية أخرى مثل ''السبد'' و''المشواش'' إلى جانب الليبو التي خبا نجمها منذ هزيمتها الأولى أمام مرنبتاح، ثم صارت القيادة -على ما يبدو- بيد قبيلة المشواش التي تغلغلت سلمياً في مصر.



رعمسيس الثاني يقبض على أسرى ليبيين عقب إحدى المعارك ←

---

(6) أنظر: جاد الله، د. فوزي فهيم: **مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت**، مؤتمر «ليبيا في التاريخ»، الجامعة الليبية، 1968، ص ص67-86.

ولعل الخبرة العسكرية التي اكتسبتها شعوب البحر من الجيش الليبي مكّنتهم من الانفراد بتنظيم هجمات مماثلة على مصر من الجهتين الشرقية والبحرية، ولكن رعمسيس الثالث كان لها بالمرصاد وتمكّن من صدّها على كل الجبهات.

3- تأثير شعوب البحر الحضاري على قدماء الليبيين:

بدايةً علينا أن نعترف بأن شعوب البحر كانت لهم سوابق حضارية معروفة، فلا بد أن يكونوا من الطرواديين الذين أسهب الشاعر (هومروس) في ذكرهم، أو من المينويين أصحاب حضارة جزيرة كريت الشهيرة، أو من الموكينيين مؤسسي الحضارة الموكنية في اليونان، وكلها حضارات قامت في غرب آسيا الصغرى والجزر الإيجية وبلاد اليونان قبل أن يصل بعض أصحابها إلى ليبيا ليكونوا تحت إمرة (مريي بن دد) ملك قبيلة الليبو. وهذا يعطينا الانطباع بأن الليبيين في ذاك الزمان كانوا على درجة عالية من الحضارة والقوة العسكرية ما مكّنهم من السيطرة على تلك الأقوام المتحضّرة أساساً وجعلهم يأتمرون بأوامر القادة الليبيين فترة من الزمن ليست قصيرة. غير أن الباحثين لم يعثروا -إلى الآن- على مخلّفات تلك الأقوام الليبية، رغم المحاولة التي قامت بها بعثة جامعة «بنسلفانيا» سنة 1963 في العثور على أي أثر حضاري لذاك العصر في إقليم برقة القريب من وادي النيل[7]. وما دام الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب تبقى القبائل الليبية التي تزعّمت شعوب البحر -في نظرنا- قبائل بدوية متنقّلة وغير مستقرّة في مكان واحد، وبالتالي لم تنشئ حضارة معيّنة لتُخلّف وراءها آثاراً شاهدةً عليها، وقد يكون اعتمادها فقط على كثرة العدد والقدرة على القيادة والزعامة وحسن تنظيم الجيوش المقاتلة، وهي عناصر مهمّة -في ذاك الزمان والمكان- لتحقيق الهدف المنشود المدفوع بغريزة حب البقاء والبحث عن حياة أفضل.

---

(7) أنظر: جاد الله، **نفس المصدر**، ص73.

ولكن الملفت للنظر حقّاً هو أن الليبيين -في هجومهم على مصر- كانوا مجهّزين تجهيزاً حضارياً وعسكرياً راقياً. لقد وصلتنا أخبارُ تلك الهجمة من وجهة نظر مصرية بحتة، إذ أطلق مرنبتاح على الليبيين اسم "أقوام الأقواس التسعة"، أي أن كل مقاتل ليبي كان يحمل وراء ظهره "تسعة أقواس" وليس قوساً واحداً كما هو الحال عند أغلب الجيوش الأخرى. وعقب فشل الحملة تبيّن أن مرنبتاح غنم من مريي بن دد أمتعته الخاصة به مثل أواني الشرب المصنوعة من الفضة والذهب وأواني البرنز والأثاث الحربي والقسي والسهام وكرسي العرش..[8]. أما في هجومهم الثاني على مصر في عهد رعمسيس الثالث سنة 1187 ق.م. بقيادة الزعيم الليبي الجديد "كبر" وابنه "مششر" فقد استخدم الليبيون معدّات جديدة وهي السيوف الطويلة التي يتراوح طولها بين الثلاثة والخمسة سواعد، إلى جانب الأقواس والسهام والرماح، والأغرب من هذا كله أنهم كانوا يركبون العربات الحربية[9] أسوةً بالمصريين. فمن أين جاءت كل هذه المعدّات المتطوّرة؟ هل ساهم الليبيون في صنعها وتجهيزها أم أنها مستوردة كاملةً من الخارج؟ وأقرب إجابة عن هذا السؤال هو أن قدماء الليبيين لم يتوصّلوا لصناعة كل تلك المواد في زمن كانوا يسعون فيه للحصول على موطأ قدم لهم في مصر، بل كانوا يأتون بالأقمشة التي صنعوا منها ملابسهم المميزة من نفس المصدر الذي كانوا يستوردون منه الأسلحة البرونزية، أي من الشردن في "جزيرة سردينيا". وبما أن الأسلحة التي استخدمها الليبيون كانت محط إعجاب المصريين أنفسهم، فلا بدّ أن تكون مصنوعةً أو محوّرةً بطريقة اختلفت عن أسلحة الأقوام الأخرى، مع ظهور الأثر الإغريقي عليها نتيجة اختلاط الليبيين بشعوب البحر في تلك الآونة، وقد يكون الدليل جلياً على السيوف الطويلة التي اشتهر بها الليبيون في معركتهم مع رعمسيس الثالث والتي كانت تُستخدم أيضاً عند الشرادنة "السردينيين". أما العربات الحربية فأغلب

---

(8) أنظر: البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: **التاريخ الليبي القديم**، ص115.

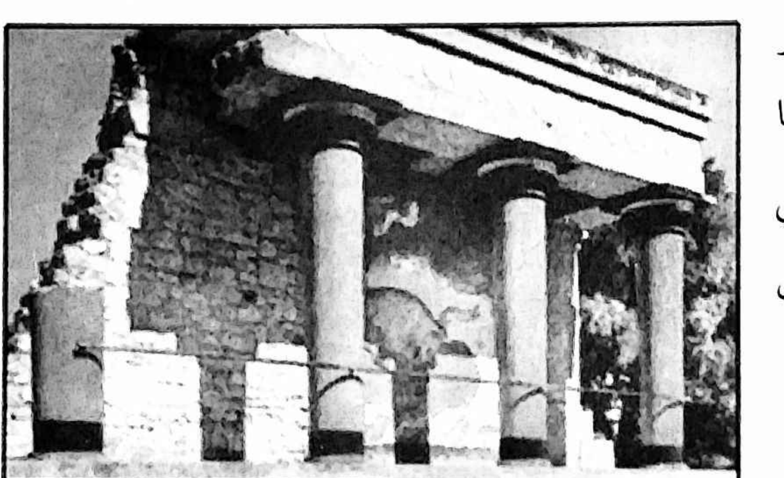
(9) أنظر غنائم تلك المعركة في: البرغوثي: **نفس المصدر**، ص ص124-125.

الظن أن الليبيين قد استفادوا من الحصان عقب خروج الهكسوس من مصر ومجيء بعضهم إلى ليبيا. لقد اشتهر قدماء الليبيين بحسن تربية وترويض واستخدام الحصان، ولعل مهارة الجرمنتيين -فيما بعد- في استخدام العربات التي تجرها أربعة خيول كانت امتداداً حضارياً لما كان جارياً في عهد الليبيين الشرقيين أيام غزواتهم المتكررة على مصر.

ثانياً: الإغريق:

1- الإغريق الأوائل:

من أهم الحضارات التي عُرفت عن الإغريق في بحر إيجه كانت الحضارة المينوية (نسبة إلى الملك الأسطوري مينوس حاكم الجزيرة)، وتعود إلى حوالي 2000 سنة ق.م. تدل عليها العمارة المتمثلة في قصر (كنوسوس) و(فايستوس) وبقايا كتابات من الطراز المقطعي التي تطورت إلى ما يُعرف عند المؤرخين بـ(Liner A).



بقايا قصر كنوسوس (الحضارة المينوية بجزيرة كريت)، عن الأثرم: دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي، ص59.

ومع نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد ألمت بالجزيرة نكبة مدمّرة لعلها بفعل زلزال عنيف هز قصورها، ولكن سرعان ما أعيد تشييدها، وظلت قائمة إلى أن جاء الإغريق الآخيون في حدود 1400 ق.م. وقضوا على حضارة جزيرة كريت المينوية وحلّت محلّها الحضارة الموكينية

المتمثلة في عدة مدن بشبه الجزيرة اليونانية وشبه جزيرة البلوبونيز (المورة) تشير إليها كتابات (Liner 2). وقد ذكر هومروس في الألياذة والأوديسة مغامرات الموكينيين ضد طروادة وذلك عندما كانت الحياة في بلاد اليونان تدور حول الحرب والحصار والمعارك عكس ما كان يحدث في جزيرة كريت زمن الحضارة المينوية، فنزلوا في رودس وقبرص وشمال سوريا والساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وآخر محاولاتهم التوسعية كانت مع الطرواديين، فحاصروا مدينتهم لسنوات عديدة قبل أن يحتلوها ويدمروها حوالي سنة 1200 ق.م. ثم انتهت الحضارة الموكينية بقدوم الدوريون من الشمال الذين دمّروا الحصون وطردوا الآخيين عبر البحر أو إلى أطراف بلاد اليونان بفضل أسلحتهم الحديدية التي أظهرت تفوقها على أسلحة الآخيين البرونزية[10].

2- أسباب هجرة الإغريق:

تعود هجرات الإغريق إلى عدة أسباب، منها الأسباب الاقتصادية والمعيشية التي تُعزى إلى الطبيعة الجبلية لبلاد اليونان، وأنها كانت تشكو من الفقر في معظم الأوقات لقلة الموارد، خصوصاً مع تزايد عدد السكّان. إلى جانب ذلك كان هناك أسباب اجتماعية متمثلة في قوانين الإرث التي تعطي حق الميراث إلى الابن الأكبر وتحرم بقية إخوته وأخواته، فبات المحرومون يفضلون الهجرة إذا أرادوا البقاء على قيد الحياة، إضافة إلى حب الإغريق -أصلاً- للمغامرة واكتشاف المجهول. ويذكر المؤرخون -كل حسب وجهة نظره- أسباباً أخرى عديدة، ولكن الإغريق كانوا يلتجئون -في معظمها- إلى المواحي ليرشدهم كهنتها وعرّافوها إلى الوجهة الصحيحة والمفيدة للهجرة. وكان من أهم وأشهر تلك المواحي (موحى أبوللو بدلفي). لذلك فإن الدارس لتاريخ الإغريق يلاحظ أنهم بدأوا منذ القرن السابع قبل الميلاد يتوسّعون ويقيمون

---

(10) للمزيد أنظر: الأثرم، د. رجب عبد الحميد: **دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي**، ط2، 2001، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا، ص ص51-56.

المستوطنات على شواطئ آسيا الصغرى والبحر الأسود وعلى سواحل جنوب إيطاليا وفي صقلية وقبرص ثم في مصر وليبيا[11]. وتشير المصادر الكلاسيكية إلى أن برقة وبقية ليبيا عرفت عناصر إغريقية سبقت الغزو الدوري لبلاد اليونان في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكانت تلك العناصر تنتمي إلى كريت وتسالي وشبه جزيرة البلوبونيز، بالإضافة إلى عناصر أخرى قادمة من آسيا الصغرى، ربما هؤلاء هم الشردن أسلاف سكان جزيرة سردينيا الذين قدموا إليها أصلاً من آسيا الصغرى، ويذكر الشاعر الإغريقي (پندار) أن عناصر من أهل طروادة قدمت إلى برقة هاربة مما حل بهم على أيدي الإغريق الآخّيين[12].

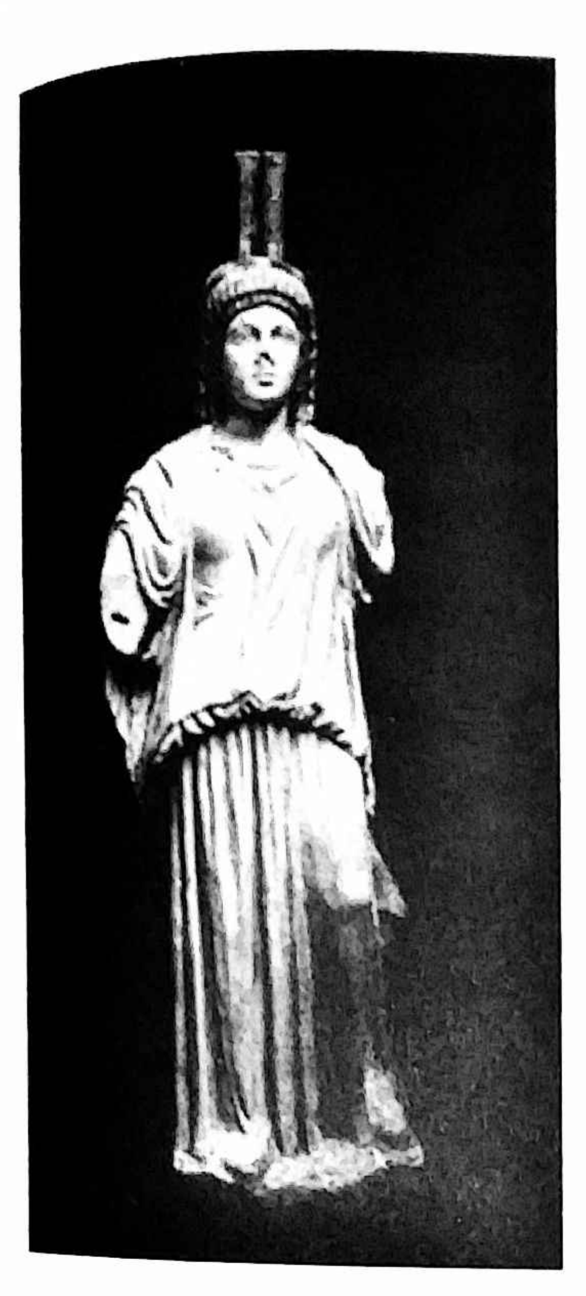
---

(11) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص236.

(12) ذكر ذلك (Allan Rowe with contributions by Derek Buttle and John Gray) من جامعة منشستر سنة 1952، أنظر: البرغوثي: **نفس المصدر**، هامش ص236.

3- موحى دلفي يوجّه الإغريق إلى ليبيا:

تقول الأسطورة بأن «أبوللو» جاء إلى ليبيا لاهثاً وراء عروسه الحورية «قورينا»، فاستقبلتهما الآلهة «ليبيا» في منزلها الذهبي. ومن هنا بدأ اتصال الإغريق بقدماء الليبيين.



الآلهة «ليبيا» برأسها العاري وشعرها المصفف بشكل لولبي على الطريقة المحلية[13].

يقول هيرودوتس[14] أن الأمطار لم تهطل على جزيرة (ثيرا) الواقعة ضمن جزر بحر إيجة شمال جزيرة كريت لمدة سبع سنوات، فاستنبأ سكانُها مهبطَ الوحي بدلفي للمرة الثانية، وكانت البيثية (الكاهنة) تشير إليهم في كل مرة بتأسيس مستعمرة في ليبيا، وكان الشاب (باتوس) من بين سكان ثيرا الذين حضروا إلى الموحى، فبدلاً من الحصول على حل لمشكلته الشخصية تورط في مسألة البحث عن مستعمرة في ليبيا بدلا من الرجل العجوز الذي كلّفته الكاهنة بذلك،

---

(13) الميار، عبد الكريم: **دليل متحف شحات**،؟، ص59.

(14) أنظر ترجمة **الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتس** للدكتور محمد المبروك الذويب، ط1، 2003، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا، ابتداءً من ص104 وما ولاها.

فصار باتوس متورّطاً رسمياً من قبل الآلهة بالذهاب إلى ليبيا غير المعروفة وقتها لدى الثيريين. وعندما احتاروا في الأمر أرسلوا مبعوثين إلى جزيرة كريت للبحث عمن يعرف ليبيا، وبجهد جهيد وصل بعضهم إلى جزيرة (بلاتيا) على الساحل الليبي، وبعد جولات بحث مضنية وصلوا إلى البر ولأول مرة وطأت أقدامهم أرض ليبيا، فقادتهم إحدى القبائل الليبية إلى مكان قيل أن سماءه مثقوبة، أي أمطاره غزيرة، فاستقرّوا هناك وأسسوا حكماً وراثياً كان فيه باتوس أول الملوك، وخلفه ابنه (أركيسيلاوس)، ثم تعاقب هذان الاسمان (باتوس وأركيسيلاوس) بين الأبناء والأحفاد أربع مرّات. ومع مرور الزمن عاودت الكاهنة تشجيع جميع الإغريق إلى السكن في ليبيا الجميلة جداً، ولكنها حذّرتهم بأن أبوللو يمنحهم حكم قورينا ثمانية أجيال لا يتجاوزوها (أربعة باتوس وأربعة أركيسيلاوس). وهكذا تجمّع حشد كبير من الإغريق في (قورينا).

4- موقف الليبيين من الاستعمار الإغريقي:

رغم أن بعض الليبيين[15]، قادوا الإغريق إلى المكان الذي ثُقبت سماؤه، أي كان الأخصب من غيره، إلاّ أن الليبيين الآخرين لم يكونوا راضين عن ذلك. حيث شعرت بعض القبائل المجاورة لقورينا بأنها فقدت أراضيها وأهينت من قبل الإغريق القورينيين، فطلبت النجدة من مصر، وبالفعل أرسل المصريون جيشاً كبيراً لنصرة إخوانهم الليبيين، ويذكر هيرودوتس -مفتخراً بقومه- أن القورينيين هزموا ذاك الجيش فعادت فلولُه هاربةً إلى مصر. يبدو أن هذه المعركة كانت قد حصلت في عهد باتوس الأول، أي منذ بداية التواجد الإغريقي على الأرض الليبية، أما في عهد ابنه أركيسيلاوس فقد انشق عنه بعض إخوته وذهبوا إلى مكان آخر من ليبيا وأنشأوا لوحدهم مدينة (برقة)، وحرّضوا الليبيين على أن ينشقّوا عن القورينيين، فزحف

(15) يقول البعض أنهم من قبيلة الإسبست، ويقول البعض الآخر أنهم من قبيلة الجليجامي، وكلاهما سكن نفس المكان تقريباً.

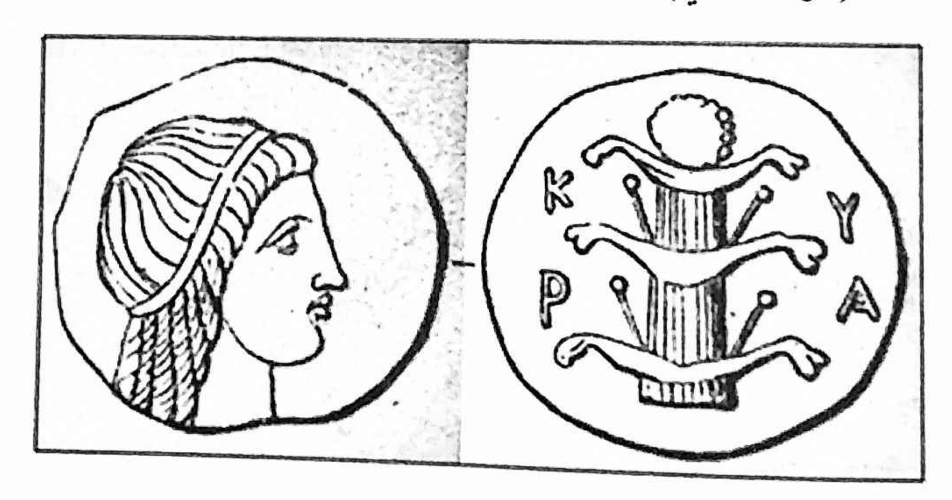
أركيسيلاوس ضد المنشقّين وضد الذين استقبلوهم من الليبيين الذين فرّوا واحتموا بالليبيين الشرقيين، وعندما لحق بهم أركيسيلاوس هناك انقلبوا عليه وهزموه وقتلوا سبعة آلاف من رجال المشاة الإغريق ثقيلي العدة، ولم يحتمل أركيسيلاوس تلك الهزيمة فشرب دواءً قاتلاً وقبل موته أجهز عليه أحد إخوته فقتله خنقاً. ونتيجة للقلاقل التي واجهها الإغريق في أرض الغربة، سألوا الموحى بدلفي عن أفضل أسلوب يحكمون به أنفسهم ويُحسّن من معيشتهم، فنصحتهم البيثية بتقسيم أنفسهم إلى ثلاث قبائل، ومن ثم تقسيم الأرض بينهم، ولكن باتوس الحفيد لم يرض بهذا النظام، فعادت القلاقل والاضطرابات إلى قورينا، ومن هنا جاءت نصيحة البيثية للإغريق بألاّ يتجاوزوا الأربعة أجيال في حكمهم لليبيا.

كان ذلك يحصل في زمن الوجود الفارسي في مصر، وكان الفرس يشكّلون قوّة في المنطقة، وكانوا يحاولون محاربة النفوذ الإغريقي واجتثاثه في بحر إيجة، ورغم أنهم ناصروا بعض الليبيين ضد القورينيين في وقت من الأوقات، إلاّ أن قبائل الليبيين كانت كثيرة ومختلفة، وقليل منها كانت خاضعة للفرس، أما الأغلبية فكانت لا تعير لهم أي اهتمام، وبقيت لوحدها تقاوم الإغريق بعدة طرق. ربما كان ذلك سبباً في لجوء الإغريق القورينيين إلى الفرس طلباً للمساعدة، لقد هربت (فيريتيمي) إلى مصر، وهي أم (أركيسيلاوس) الذي قتله البرقاويون نتيجة تسليم قورينا إلى (قمبيز بن قورش) وقراره دفع الضريبة إلى حكاّم مصر. وما كان من الفرس إلاّ أن أرسلوا مع فيريتيمي حملةً بريةً وبحريةً لإخضاع الليبيين وإعادة عرش ابنها المقتول. وهذا يعطينا إشارةً واضحةً بأن قدماء الليبيين لم يكونوا راضين عن الوجود الإغريقي في بلادهم منذ البداية، فقاوموه بكل ما أوتوا من قوة. وقد ذكر الكتّاب الإغريق أن الليبيين أجهزوا على نبات السولفيوم البري الذي استغله الإغريق في عدة أغراض، وهذا يعني أنهم كانوا يشنون حروباً اقتصاديةً في إطار المجهود الحربي، ولم يكن ذلك إجراءً همجياً كما علّق عليه بعض الكتّاب الإغريق القدامى.

5- الإغريق يستفيدون من خصال الليبيين:

أولاً وقبل كل شيء، عندما جاء الإغريق إلى ليبيا استهواهم المناخ المطير الذي كان سائداً في منطقة برقة وقتذاك، وهذا ما هدفت إليه الكاهنة في موحى أبوللو بدلفي عندما أشارت إلى باتوس بإنشاء مستعمرة في ليبيا عقب سنوات الجفاف التي عانى منها سكّان جزيرة ثيرا ، فاستغلّوا هذه الميزة وتحسّنت أحوالهم المعيشية، بدليل مجيء مجموعات إغريقية أخرى من غير سكّان جزيرة ثيرا، وعلى هذه الأرض الطيبة قامت حضارة إغريقية أخرى منافسة لأثينا نفسها، ألا وهي حضارة قورينا الليبية ومدنها الخمس.

وجد الإغريق في منطقة برقة نبات السولفيوم الغريب والفريد من نوعه، فاستغلّوه استغلالاً ربما لم يكن لليبيين به سابق عهد، إذ كان يُستعمل ثمارُه أو أزهارُه غذاءً ودواءً وبقاياه علفاً حيوانياً ممتازاً، حتى صار رمزاً لقورينا وعنصراً أساسياً في عملاتها ونقودها. وتمثل الصورة التالية نبات السولفيوم واسم قورينا (الوجه الأول)، ورأس الآلهة «ليبيا» بخصلات شعرها اللولبي على الطريقة المحلية (الوجه التاني)[16].



استفاد الإغريق من ولع قدماء الليبيين بالنواحي الدينية والعقائدية، فقلّدوهم في ذلك، واستعاروا منهم آلهتهم وعبدوها. ولعل الربة ''أثينا'' ووالدها ''بوسايدون'' خير دليل على

---

(16) الميار: مصدر سابق، ص150.

ذلك، إذ صارا من أهم وأشهر آلهة اليونان إثر التقاء الإغريق بقدماء الليبيين سواء كان ذلك قبل زمن قورينا أو خلاله أو بعده. وكان "آمون" إله الشمس الليبي بواحة سيوة قد استعير من قبل قدماء المصريين فقدّسه الإغريق أيضاً، وهو "قرزل" الذي عبده الليبيون في السابق، وكان على هيئة كبش بين قرنيه قرصُ الشمس. ولعلّ معبد "أبوللو" في مدينة سوسة الحالية كان أشهر معابد هذا الإله في العصر الهلليني كله.

إلى جانب أنواع النباتات كالسولفيوم واللوتس، تعرّف الإغريق على أنواع غريبة من الحيوانات كالثيران التي ترعى وتسير إلى الخلف بسبب قرونها الضخمة والثقيلة، والماعز التي تلد مرّتين في السنة بسبب خصوبة المراعي، وكان نهر "كنيبس" : (وادي كعام) الخصب الذي يضاهي إنتاجه من القمح إنتاج مدينة بابل الشهيرة، كان محل نزاع بين قورينا وقرطاجة، أدى ذلك إلى معركة ترسيم الحدود بين البلدين، فكان ذاك الوادي من نصيب قرطاجة، تشير إلى ذلك أسطورةُ الأخوين "فلليني" القرطاجيين الذين دفنا نفسيهما أحياءً لإثبات النقطة الحدودية الصحيحة بين قورينا وقرطاجة، (وتمثل الصورة النصب الذي بناه الإيطاليون في نفس المكان أثناء احتلالهم لليبيا تخليداً لذاك الحدث الذي لا دخل للرومان -الإيطاليين- فيه).



وقد حاول اليونانيون الإسبرطيون -قبل ذلك- احتلال منطقة وادي كعام الخصبة أسوة بأبناء جلدتهم الثيريين الذين سبقوهم على استيطان برقة، حيث قام جماعة منهم بقيادة (داريوس الإسبرطي) سنة 520 ق.م. النزول عند مصب الوادي لتأسيس مستعمرة إغريقية

أخرى بالمنطقة، إلاّ أن القرطاجيين بمساعدة قبيلة (المكاي) الليبية تمكنوا من طرد المستعمرين الجدد وأجبروهم على العودة إلى شبه جزيرة (البيلوبونيز)، ففشل اليونانيون في إنشاء مستعمرة ثانية لهم في ليبيا[17].

رغم معرفة قدماء الإغريق بالحصان منذ العصر الأثيني، إلاّ أنهم -ولأول مرة في تاريخهم- يتعرّفون على العربة التي تجرها أربعة خيول، فأخذوا هذا الاختراع مباشرة من الليبيين، وصار ذلك ضمن ألعابهم الأولمبية الشهيرة، ولا زالت أطلال مدينة قورينا تحتفظ ببقايا ملعب بيضاوي الشكل ربما جُهّز خصّيصاً لسباق تلك العربات التي نراها اليوم في أشرطة السينما الإيطالية التي تروي تاريخ الرومان الوارثين لمقومات الحضارة الإغريقية القديمة.

يكرّس الأثينيون للربة "أثينا" مهرجاناً سنوياً، ويقول هيرودوتس أن الإغريق أخذوا الدروع التي تلبسها تلك الربّة من الليبيين، كذلك طريقة الاحتفال بها كما كان يفعل عذارى قبيلة "الأوزيس" حول بحيرة "تريتونس" عندما كن يحتفلن بآلهتهن "أثينا". وتعلّم الإغريق أيضاً من النساء الليبيات فن الغناء الطقسي، وقال هيرودوتس أن صيحات الفرح عند النساء الليبيات لها وقع طيب في أذن السامع، ربما كان يقصد الزغاريد المصاحبة للغناء النسوي.

ورغم اتهام بعض الكتّاب الكلاسيكيين لبعض قبائل الليبيين القدامى بعدم قدرتهم على الكلام، إذ قالوا أنهم يزعقون كالخفافيش، إلاّ أن كلام الليبيين يبدو أنه وصل إلى اليونان قبل مجيء سكّان جزيرة ثيرا إلى ليبيا، فقد خاطبت عرّافة موحى دلفي الشاب باتوس باسم "الملك" لأن لفظ "باتوس" -كما يؤكّده هيرودوتس نفسه- يعني "ملك" في اللغة الليبية القديمة، وكان اسمه الإغريقي: "أرسطوطاليس". وأكثر من ذلك، فإن الإغريق أخذوا الكتابة الأبجدية -كما هو معلوم- من الفينيقيين، وحسب نظرية هيرودوتس في هذا الأمر بالذات،

---

(17) أبو حامد، محمود الصديق: **مظاهر الحضارة الفينيقية في طرابلس**، ليبيا في التاريخ، المؤتمر التاريخي، 1968، كلية الآداب، الجامعة الليبية، ص ص122-123.

فإن ذلك حصل بعد تأسيس الفينيقيين لمدينتهم الجديدة قرطاجة وليس قبلها، وهذا يعني أن الكتابة دخلت بلاد اليونان قادمة من ليبيا بمفهومها الجغرافي والتاريخي الشامل.

وغير ذلك كثير من الخصال الحضارية المفيدة التي تعلّمها الإغريق من قدماء الليبيين والتي ذكرها الكتّاب الكلاسيكيون مرّة بالتصريح ومرّة بالتلميح.

ثالثاً: الرومان:

1- روما بين الملكية والجمهورية:

تذهب الرواية الرومانية إلى أن الأخويين (رومولوس Romulus) و(ريموس Re-mus) راضيعي الذئبة هما اللذان أسسا روما. وكان رومولوس الملك الأول عليها. ثم بدأ الإتروكسيون (الرسانيون) يلعبون دوراً حاسماً في تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية حيث أسسوا الملكية الرومانية بصورة فعلية. ولم يحدد المؤرخون أصل الإتروسكيين، هل هم من الشعوب الهندوأوروبية؟ أو أنهم قدموا من (ليديا) غربي آسيا الصغرى؟ غير أن الرأي بدأ يميل أخيراً إلى الاعتقاد بأصولهم الشرقية، وأنهم كانوا على صلة بعدة بلدان منها لبنان ومصر وقرطاجة واليونان. حيث شغلوا منطقة غرب الجزيرة الإيطالية فيما عُرف بمنطقة (إتروريا) نسبةً إليهم، ولم تكن روما موحّدةً قبلهم، وأن اسم روما من أصل إتروسكي ويعني (مرتفع) لأن مدينة روما كانت مرتفعة على سبعة تلال. وإلى جانب الطابع الشرقي الصارخ للحضارة الإتروسكية (الرسانية) كانوا يدينون بدين يعتقدون أنه منزّل ومدوّن في كتب مقدّسة. وهناك من يقول أن الإتروسكيين أو الإتروريين نزحوا إلى إقليم توسكانا بشمال ووسط إيطاليا خلال 1000 سنة الأولى قبل الميلاد، وجمعوا ثروات ضخمة، فأقاموا لهم مقابر تشبه مقابر الشرق، واشتهروا بصناعة الفخار والمصنوعات البرونزية. وكانت حضارتهم متأثرة بالحضارة الإغريقية. إلاّ أنهم تفوقوا عليها في المعمار وصناعة التماثيل.

حكم روما ملوك من الإتروسكيين المنتصرين، وكانت سلطة هؤلاء الملوك ذات طبيعة استبدادية تختلف اختلافاً واضحاً عن سلطة ملوك البلاد السابقين، أي منذ عهد (رومولوس) المؤسس الأول لروما. وكان النظام السياسي في روما لا يختلف عن غيرها من المدن الأخرى التي عرفها العالم القديم. فلم يكن حكم الملك وراثياً، بل منتخباً من قبل مجلس الشيوخ بموافقة شكلية من مجلس الأحياء. وهذا بدوره يزيد من سلطات الملك إلى درجة امتلاكه حق الموت والحياة. ويرى المؤرخون أن الهيمنة الإتروسكية على روما قد انتهت مع نهاية سنة 509 ق.م. وبداية سنة 510 ق.م. حيث بدأ العصيان المدني على الأرجح بانفصال اللاتينيين من إقليم (لاتيوم) بدعم من المستعمرات الإغريقية، إلى جانب التمرد الشعبي الذي قاده الأشراف في روما بهدف استرداد ميزاتهم الوراثية التي انتزعت منهم، كما ثار الشعب الرازح تحت نير الضرائب وأعمال السخرة التي فرضها عليهم آخر ملوك الإتروسك، فأجبر الجميع هذا الملك على الهرب إلى إتروريا مع رجاله المسلّحين، وهكذا أفل نجم العهد الملكي من تاريخ روما وبزغ نجم الجمهورية الرومانية.

2- الحروب البونية:

عُرف عن الفينيقيين وهم سكان جبال وسواحل لبنان الحالية حبّهم للمغامرة وارتياد البحر والتجوّل ببضاعتهم الفريدة على طول سواحل البحر المتوسط منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فأنشأوا عليها المواني والمرافئ البحرية، ونشروا أبجديتهم التي اشتهروا بها لدى معظم شعوب المنطقة، فالتفتت إليهم الأنظار وبلغوا من الشهرة ما جعل الإغريق ثم الرومان يحاولون منافستهم فيما بعد ويدخلون معهم في صراع مسلّح.

لقد أسس الفينيقيون قرطاجة -مدينتهم الجديدة- في حدود القرن التاسع قبل الميلاد، قبالة مدينة تونس الحالية، وامتدت إلى كل شواطئ البحر المتوسط الغربية (من ليبيا إلى المغرب الأقصى وإسبانيا، وغرب جزيرة صقلية وجزر كورسيكا وسردينيا والبليار وغيرها، ووصل القرطاجيون إلى الجزر البريطانية لجلب القصدير). وللدفاع عن إمبراطوريتها تمكنت قرطاجة من إعداد جيش من الليبيين وغيرهم مجهّز ومعزّز بعدد كبير من الفيلة، كما كانت البحرية

القرطاجية تتكون من السفن الضخمة ذات الخمسة صفوف من المجذفين وهي أسرع من الثلاثية الإغريقية. وكان اقتصاد قرطاجة يعتمد على الزراعة والتجارة، وكانت السلطة السياسية بيد الأثرياء من التجار ومالكي الأرض.

أ- الحرب البونية الأولى (264-241 ق.م.):

استمرت العلاقة بين روما وقرطاجة طيبة ما دام للدولتين أعداءٌ مشتركون في شخص الإغريقيين والإتروسكيين. ولكن مع تطور التجارة الخارجية الرومانية بدأت تلك العلاقة في التردي والانحدار، حيث تضايق الرومان وخاصة الصانعون من تنامي النفوذ القرطاجي في حوض البحر المتوسط، خصوصاً بعد انتصار القرطاجيين في (مسينا) المهيمنة على المضيق بين صقلية وإيطاليا في عام 265 ق.م. وبعد سنة دخلت قرطاجة في نزاع مفتوح مع روما. وكانت الغلبة في الجولة الأولى لصالح روما حيث استخدم بحّارتها -رغم بساطة خبرتهم وقلة حيلتهم- عبّارات عائمة ثبّتوا في أطرافها كلاّبات لتتشبث بالسفن المعادية وتجعل القتال على ظهور السفن. ومبالغةً في انتصارها أرسلت روما جيشاً لتدمير الأرض المزدهرة في قرطاجة، ولكن الأسطول الروماني غرق أثناء عودته إلى روما ووقع أسطول روماني آخر في قبضة القرطاجيين، مما اضطر روما للتنازل عن سيادة البحر وفتح المجال أمام القائد القرطاجي (عملقرت برقة) لاحتلال أماكن أخرى في صقلية. غير أن التجار والصانعين الرومان تعاونوا في تجييش الجيوش وبناء السفن، فألحق الأسطول الروماني هزيمة نكراء بأسطول القرطاجيين وأجبرهم على توقيع اتفاقية سلام عام 241 ق.م. تخل بموجبها القرطاجيون عن بعض ممتلكاتهم البرية في جزيرة صقلية، فصارت جهتها الغربية أول ضاحية رومانية مفتوحة أمام البحرية العسكرية والتجارية الرومانية الجديدة.

ب- الحرب البونية الثانية (218-202 ق.م.)[18]:

عيّن (عملقرت) ابنه (حنبعل) قائداً على الجيش القرطاجي في إسبانيا، وهو ابن الخامسة والعشرين من عمره. وكان حنبعل قد أقسم أمام أبيه على أن يكنّ حقداً أبدياً للرومان. وبدأ يختلق الذرائع لإعلان الحرب على روما التي طالبت باعتقاله كمجرم حرب لقاء ما فعله

---

(18) من محاضرات في (تاريخ الحضارة الرومانية) قدمها المؤلف بكلية الآداب (بدر) جامعة (الجبل الغربي) بليبيا، بين سنتي 2009 و2010.

مع حلفائها في إسبانيا. ولكن حنبعل سار براً إلى إيطاليا منطلقاً من إسبانيا في ربيع عام 218 ق.م.، حاملاً معه 90 ألفاً من الليبيين والأيبيريين و12 ألف فارساً وعدداً ضخماً من الفيلة الأفريقية، ولكنه بعد أن تجاوز جبال الألب لم يبق معه غير 20 ألفاً من الجنود المشاة و6 آلاف فارس و3 فيلة نتيجة السقوط من الجبال المغطاة بالثلوج، ورغم كل هذه الخسارة تمكن حنبعل من تحقيق النصر على الرومان وحلفائهم في سهل (البو) شمال إيطاليا، وألحق الفزع في قلوب أعضاء مجلس الشيوخ الروماني. ورغم فقدانه آخر الفيلة، كما خسر عينه، إلاّ أن حنبعل اتخذ طريقه، ليس إلى روما، وإنما بمحاذاة البحر (الأدرياتيكي) عبر إقليم (سامنيوم) في اتجاه إقليم (لوكانيا) جنوبي إيطاليا، ثم عرّج على إقليم (كامبانيا) جنوبي مدينة روما. وكان في طريقه يحطّم الحاضرات الرومانية واللاتينية معلناً أنه محرر الشعوب الإيطالية، فانشق كثيرٌ من الشعوب الإيطالية عن روما، وانتقل عدد ضخم من اليونان إلى جانب حنبعل، كان أهمهم (فيليب الخامس) ملك (مقدونيا). وأبحر أسطول قرطاجي إلى صقلية، واحتل (أسدروبعل) أخو حنبعل مستعمرات رومانية في إسبانيا. وقام حنبعل بمهاجمة إقليم (لاتيوم) واتجه مباشرة لتهديد مدينة روما، ولكن الرومان إلتجأوا إلى أسلوب المماطلة لإفشال خطة حنبعل الحربية. استمرت تلك المماطلة عدة سنوات تمكن خلالها الرومان من استعادة قوتهم وقمع الثورات التي تأججت ضدهم لصالح حنبعل، كما تمكنوا من استعادة جزيرة صقلية، ودحروا الملك المقدوني (فيليب الخامس) الذي تخلى عن مشروع الهجوم على روما وعقد صلحاً معها. أما في إسبانيا فقد هُزم أخو حنبعل ومُنع من توصيل المساعدات إلى أخيه في إيطاليا. وإمعاناً في هزيمة حنبعل قام القنصل الروماني (سكيبيو) بالانتقال إلى أفريقيا واحتل المدينة القديمة (عوتيقا) مهددا قرطاج، فقام مجلس الشيوخ القرطاجي باستدعاء حنبعل من إيطاليا للدفاع عن مسقط رأسه. وعند عودته استعد لملاقاة الرومان. وفي المعركة الحاسمة التي وقعت سنة 202 ق.م. قرب (زاما) جنوب قرطاج انتصر الرومان انتصاراً ساحقاً على حنبعل وأملوا على القرطاجيين شروطاً قاسية، وصار (سكيبيو) يُعرف بلقب (الظافر الأفريقي)، أما حنبعل فقد لاذ بالفرار ناجياً بنفسه.

ج- الحرب البونية الثالثة، سقوط قرطاج (146 ق.م.):

كان من بين الشروط التي أملاها الرومان على قرطاج ألاّ يخوض القرطاجيون أي حرب بدون موافقة روما، وأن تعيد قرطاج إلى (مسينيسا) ملك (نوميديا) "الجزائر حالياً"

كل ممتلكاته، وكان حليفاً مهماً لروما. من هنا بدأت روما تتحين فرصة إخلال قرطاج بتلك الشروط المجحفة. ولكن قرطاج التزمت الحفاظ على السلام فاستعادت مكانتها كأكبر مركز تجاري في غرب البحر المتوسط، مما أثار خوف روما من عودة قرطاج إلى سابق قوتها، فاستغلت فرصة احتجاج قرطاج على احتلال (مسينيسا) لسهل الجفارة بإقليم طرابلس، فاتهمت روما القرطاجيين بأن الجيش الذي أعدوه لمحاربة مسينيسا قد يكون نواة جيش يستعد لحرب انتقام ضد روما، كما اتهمتهم بتكديس الأخشاب بغرض إعادة بناء أسطولهم، وهذا يتنافى مع شروط معاهدة السلام. ورغم استعداد قرطاج لتلبية كل الشروط الرومانية إلاّ أن القنصلين الرومانيين عبرا البحر إلى (عوتيقا) على رأس الجيش والأسطول، وطلبا من القرطاجيين إخلاء مدينتهم والابتعادَ عن البحر بمسافة 16 كيلومترا، فرفض القرطاجيون هذا الطلب وصمّموا على التحدّي، وحوّلوا كل المحّال والمعابد إلى مصانع أسلحة وآثروا الموت عن الاستسلام، مما جعل أمر احتلال المدينة يصعب على الرومان خلال السنوات الثلاث 147-148-149 ق.م. إلاّ أنه في ربيع سنة 146 ق.م. سقطت قرطاج بعد قتال مرير في الشوارع والمنازل، وهُدمت وجُعلت أرضها سهلاً زُرع بالملح، ووُزعت الأراضي الزراعية على المزارعين الرومان، وبيع من بقي حياً من سكّانها عبيداً، وحُوّل إقليمها إلى ولاية رومانية جديدة سُميت (ولاية أفريقيا) وجُعلت (عوتيقا) مقر حاكم هذه الولاية.

رابعاً: التأثير والتأثر بين الحضارتين الأصيلة والدخيلة:

قد لا نختلف كثيراً مع ما ذهب إليه (بييترو رومانيللي **Pietro Romanelli**) في ورقته المقدمة إلى مؤتمر (ليبيا في التاريخ) بالجامعة الليبية سنة 1968[19]، عندما وضع خطاً رأسياً من البحر الأدرياتيكي إلى سرت، فوجد أن هذا الخط يقسّم الشمال الأفريقي إلى ثقافتين مختلفتين: سرت وما شرقها لها حضارة يونانية، بينما المنطقة الغربية لسرت لها حضارة لاتينية[20]. وهذا يعني أن الحضارة الليبية القديمة تأثرت وأثرت في الحضارة الإغريقية في منطقة برقة عبر العديد من الحقب الزمنية كالعصر القوريني القديم والعصر البطلمي قبل أن تتأثر وتؤثر في الحضارة الرومانية لاحقاً. أما الإقليم الطرابلسي فقد تأثر سكانه وأثروا في الحضارة الفينيقية السابقة والحضارة الرومانية اللاحقة. فبات لكل إقليم خصوصيته الحضارية، فاختلفت طرابلس عن بقية الشمال الأفريقي، كما اختلفت برقة عن مصر وما والاها، ولكن رغم كل ذلك فالمقوّمات الحضارية بقيت متأثرة ومؤثرة في المنطقتين سواء تلك القادمة من الشرق كالمصرية والفينيقية والكنعانية، ومن الغرب كالبونية والقرطاجية والنوميدية، من جهة، والقادمة من السواحل الشمالية كالإغريقية والرومانية، من جهة ثانية. هذا الخليط من الثقافات شكّل -إلى جانب المؤثرات الليبية المحلية السابقة- خصوصيةً حضاريةً على كافة المستويات خاصة في ما يتعلّق باللغة والنقوش الكتابية والزخرفية والطرز المعمارية الباقية آثارها إلى الآن. لهذه الأسباب يرى بعض علماء الآثار الغربيين أن الحضارة الليبية القديمة حضارةٌ محليةٌ صُنعت بأيدٍ محلية،

(19) Romanelli, PIETRO: **La Tripolitania nel quadro della› archeologia Nord-Africa**, Historical Conference (LIBYA IN HISTORI), University of Libya, 1623- March 1968, pp 133142-.

(20) ملخص مُعرّب للورقة السابق ذكرها، نفس المصدر، ص 144.

وبالتالي لا يمكن تسميتها بغير مسمياتها المحلية، بدليل أن الآثار الرومانية الموجودة حالياً في طرابلس -مثلاً- تختلف عن مثيلاتها في بقية الشمال الأفريقي وفي روما نفسها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خصوصية الحضارة الليبية القديمة حتى وإن تأثرت بمقوّمات حضارات وافدة من خارج محيطها الإقليمي.

الفصل الرابع

الليبيون القدامى يحكمون مصر وفلسطين[1]

(1) عن كتابنا ''شيشنق الأول وامبراطوريته الأفروآسيوية''، مخطوط.

أولاً: التواجد الليبي في وادي النيل:

يؤكد علماء التاريخ القديم أن التغيير المناخي الذي مرّ بالصحراء الليبية تزامن مع ذاك الذي حدث في الصحراء العربية، وأن الهجرة إلى وادي النيل كانت تأتيه من الشرق والغرب على دفعات متتالية، مما جعله بوتقة انصهار كبرى[2]. كما أثبتت دراسة الآثار المكتشفة في وادي درنة (بالجبل الأخضر، شرقي ليبيا) أن هناك صلات حضارية بينها وبين ما وُجد في وادي النيل الأدنى، وبصفة خاصة منطقة الفيوم، في الفترة السابقة لزمن التغيير المناخي[3]. وهذا يعني أن علاقة قدماء الليبيين بالأرض المصرية ووادي النيل كانت وطيدة الصلة منذ تلك الأزمان السحيقة، أي قبل أن تتشكل في الوادي السلالات البشرية وتتأسس فيه الحكومات المركزية. وعندما استقر القوم هناك بدأوا ينظرون إلى جيرانهم على أنهم غرباء طامعين في واديهم، وعاملوهم معاملة الأعداء، فحاربوهم بضراوة، ومنعوهم من الوصول إليهم والاختلاط بهم، رغم أنهم ليسوا أعداءً غرباء في الأساس، بل هم من ذات الأرومة الواحدة، فرّق بينهم الزمان وباعد بينهم المكان. علاوة على ذلك، فالإنسان القديم لم ينشأ عنده الشعور بالانتماء إلى الوطن والأمة إلاّ بعد تأسيس الإمبراطوريات والدول الكبيرة، وأن طبيعة الحياة البشرية كانت محكومة بقانون الغاب ومبدأ الحياة للأصلح[4]. فقامت بين الأشقاء حروب شرسة في البداية، ثم فرض الليبيون أنفسهم على أبناء عمومتهم بالطرق السلمية، وصار الاندماج بينهم أمراً لا مفر منه، خصوصاً في فترات الضعف الذي أصاب الحكومات المتأخرة في مصر. وقد يصف الكتّاب والمؤرخون المعاصرون العلاقة بين المصريين والليبيين القدامى بأنها علاقة عداء على الدوام، وذلك اعتماداً على النقوش التي خلّفها بعض الفراعنة على جدران معابدهم

---

(2) خشيم: **مصدر سابق**، ص 24.

(3) الناضوري: **مصدر سابق**، ص126.

(4) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص95.

ومدافنهم، والتي تظهر دائماً انتصار الفراعنة على التحنو والتمحو. لاسيما في عصور ما قبل الأسرات والدولة القديمة، مثل: "**مدوّنات مدافن المملكة القديمة للملك** (ساحور **Sahur**) **في** (أبوسير **Abusir**) **والملك** (بيبي الثاني **Pepi II**)، **وفي معابد** (تاهرقا **Taharqa**) **في** (كاواKawa)، **وكلها تضمنت عددا من الشواهد التي تظهر رؤساء القبائل الليبيين يجلدون ويعانون من قبل الفراعنة، ونساؤهم وأطفالهم يستجدون الرحمة من الفرعون**"[5]. واستمرت تلك الإشارات والشواهد في الظهور طيلة تاريخ مصر القديم، رغم أنها لم تسجل أحداثاً تاريخيةً بالمفهوم التوثيقي للأحداث، وإنما كانت عبارةً عن أيقونات تبرهن لعامة الشعب عن إحكام الفراعنة قبضتهم على الليبيين المغيرين على واديهم. إلى أن بدأ اسم قبيلة المشواش يظهر على تلك الأيقونات، التي بدأت تغيّر شيئاً فشيئاً من لهجتها العدائية السابقة إلى الإشادة بالليبيين وشجاعتهم، عندما دخل المشواش في معسكرات الفراعنة القتالية في أواخر عهد الدولة الحديثة[6]، فصاروا مدافعين عن الوادي لا مدفوعين عنه. وبات فرعون مصر يستحق الثناء "**عندما يأخذ التاج الأبيض العظيم من أيدي هؤلاء (الأجانب) العظام الذين يحكمون الليبيين**»[7]، ويقصد رؤساء القبائل الليبية وبالذات قبيلة المشواش.

وهذا الاندماج الأخير، لم يكن سلمياً بالمجمل، وإنما كان مفروضاً بقوة الكثرة وإعادة المحاولة مرة بعد المرة، إلى أن تم استقرار القبائل الليبية بأعداد هائلة لم يجد فراعنة مصر غير القبول به والتعامل معه كواقع مفروض سلمياً بدل التورط في المقاومة المسلحة وإقامة الحصون

---

(5) Fox, Troy: **The Enemies of Ancient Egypt**, (Touregypt site), قام الباحث بتعريبه

(6) Troy: **Ibid**.

(7) جوليان، شارل أندري: **تاريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب: محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط؟، 1969، الدار التونسية للنشر، تونس، ص71.

المنيعة. وقد فرض الليبيون أنفسهم في مصر وأثبتوا قدرتهم على قيادة الجيش ورئاسة الكهانة، حتى توصّلوا في نهاية المطاف إلى قيادة السلطة السياسية واعتلاء عرش مصر لمدة طويلة.

1- الهجمات المتتالية وصدّها بالقوة العسكرية:

في عهد الدولة القديمة، ظهرت أولى الإشارات لليبيين على مقبض عاجي لسكين عليه رسمٌ يدوّن معركةً بين المصريين والليبيين يعود إلى منتصف الألف الرابع قبل الميلاد. كما عُثر على لوح يعود إلى ملك الوجه القبلي عليه إشارةٌ لقبائل (التحنو). وأشهرُ آثار ذاك الزمن لوحة (نعرمر)، التي دوّن عليها هذا الفرعون الموحّد انتصاراته على قبائل (التحنو) أيضاً، وتعود هذه اللوحة إلى نهاية الألف الرابع ق.م. أي في مطلع عهد الأسرات، كان قد أشار إليها الأستاذ بريستد (Breasted) في كتابه (تاريخ مصر) ، الذي قال فيه أن نعرمر أسّر في تلك المعركة **120** ألف ليبياً وغنم **400** ألف رأساً من الماشية[8].



يمثل النقش الفرعون نعرمر وهو يمسك أسرى ليبيين (تحنو) من شعورهم، بينما يفر آخرون.

---

(8) البرغوثي: **مصدر سابق**، هامش ص105.

وقد تكرر ذكرُ المعارك مع الليبيين وصدّ هجماتهم خلال زمن الأسرتين الثانية والثالثة. ولم يكتف الليبيون بالهجوم المتكرر على مصر، بل كان منهم من استقر فيها، سواءً أكان من المهاجرين أو من الأسرى السابقين، وبدأوا يثيرون القلاقل في البلاد، فقد روى مانيثو (**Manetho**)[9] أن الليبيين ثاروا في مصر في عهد الأسرة الثالثة على الفرعون (نفر قرع)[10]. أما الفرعون (سنفرو) مؤسس الأسرة الرابعة **2723–2563** ق.م. فقد صدّ هجوما ليبياً وأسّر **11** ألفاً وغنم و**100** رأساً من الماشية[11].

واستمر هجوم الليبيين في عهد الأسرة الخامسة، وكان جميعهم يشترك في التسمية القديمة (التحنو)، وكانت النقوشُ القديمة تصف الليبيين بأن قامتَهم طويلة وبشرتهم سمراء وشفاههم غليظة وشعورهم سوداء طويلة متموجة ولحاهم قصيرة مدببة الأطراف. وهم -بصورة عامة- يشبهون المصريين في أسمائهم وملابسهم وأوانيهم الفخارية، مما يدعو إلى القول بالأصل الواحد، وتربطهم مع المصريين -خصوصاً سكان الدلتا- عقائد واحدة، مثل الإله (تحنوي) الذي يشترك مع الإله (حورس تحنو) في نفس الصفات، بالإضافة إلى الربة (نيث) الليبية معبودة غرب الدلتا[12].

---

(9) مؤرخ وكاهن مصري عاصر بطليموس الأول وبطليموس الثاني.

(10) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص106.

(11) البرغوثي: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(12) مجموعة من المؤرخين: موسوعة تاريخنا، الكتاب الأول: **ليبيا من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن السابع قبل الميلاد**،؟، دار التراث، جنيف/ سويسرا، ص98.

أما عن الأماكن التي تواجدت فيها هذه القبيلة -معتمدةً في عيشها على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات- فقد تكون موزعة بين مريوط وسيوة والبحيرة وبرقة[13]، أي في غربي شمال الدلتا (الوجه البحري).

وأما فراعنة الأسرة السادسة **2420-2280** ق.م. فقد تعاملوا مع فرق أخرى من القبائل الليبية أطلقوا عليها اسم (التمحو). وهم من ذوي البشرة الفاتحة والشعر المائل للشقرة والعيون الزرقاء[14]. وهذه الصفات جعلت البعض يعتقد في تحالف الليبيين مع شعوب البحر في إحدى محاولتهم للوصول إلى وادي النيل. وقد اختُلف في أماكن تواجدهم، هل هو في الشمال مع قبائل التحنو أم أنهم توغلوا في الجنوب، ويغلب على الظن أن كل مكان كان يعيش فيه التمحو أطلق عليه المصريون اسمهم دون تمييز، حيث قيل أن بعضهم سكن في المنطقة بين الشلالين الأول والثاني[15]، وهو مكان تواجد النوبيين فيما بعد، مما يُبعد صفة البحر عن التمحو كما سبق الذكر. ومما يشير أيضاً إلى أن التمحو موجة بشرية أخرى من الليبيين نشطت بعد التحنو، أو أنهم امتداد للسلالة التحنوية، مع وجود تحريف بسيط في كتابة الأسماء من قبل الكتّاب المصريين أو المترجمين المعاصرين للرموز القديمة.

وتواصلت هجمات الليبيين على وادي النيل في زمن الأسرة الحادية عشر، في عهد الدولة الوسطى **2040-1786** ق.م. وبدأ يظهر اسم (الريبو) في الوثائق المصرية. ولم يكتف ملوك هذه الأسرة بصدّ الهجمات، بل كانوا يقومون بحملات ضد قبائل الريبو والعودة بالأسرى

---

(13) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، ص99.

(14) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، ص100.

(15) البرغوثي: **مصدر سابق**، هامش ص107.

الليبيين والمواشي الليبية[16]. وهذا يعني أن المصريين تحوّلوا من مدافعين عن واديهم إلى مغيرين على جيرانهم وفرض الضرائب عليهم دليلاً على القوة التي اعترف بها الليبيون أنفسهم. ومنذ ذلك الحين إلى عهد الدولة الحديثة **1570–1070** ق.م.

لم يجرأ الليبيون الذين لم يتمكنوا من الدخول إلى مصر على القيام بأي هجوم يُذكر، بل كانوا يدفعون الجزية، ويأتون بين الحين والآخر محمّلين بالعاج وجلود الفهود إعراباً عن الولاء والطاعة. وقد ذكرت الوثائق المصرية العديد من الهدايا على هيئة ضريبة أو جزية، كانت تصل إلى الملكة (حتشبسوت) وأخيها وزوجها وشريكها في الحكم (تحتمس الثالث)[17].

إلى جانب التواصل التجاري حيث كان الليبيون وقتها يزودون قصر (أمنحتب الثالث) **1402–1364** ق.م. في ملكاتا (Malkata) بالمواشي[18]. إلى جانب ذلك كانت تأتي من ليبيا إلى المعابد والمدافن المصرية أجود أنواع الشحوم والزيوت الحيوانية والنباتية التي تدخل في صناعة العطور، وقد اشتهرت تلك الزيوت في الوثائق المصرية بالعديد من الأسماء مثل (عج تحنو عنو) للشحوم الحيوانية و(تحنو عش) للزيوت النباتية خصوصاً من أشجار الصنوبر والسرو[19] المتوفرة في منطقة الجبل الأخضر ببرقة. كما لم تحدث أي غارات مصرية على الحدود الليبية

---

(16) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص109.

(17) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص 110.

(18) Wikipedia: **Op.Cit**.

أُخذت معلومات هذا الموضوع عن مشاهير المؤرخين مثل:
Donald White, Kenneth Kitchen, Oric Bates and Jean Yoyotte
قام الباحث بتعريبها وتلخيصها.

(19) شيمي، محمد عبد الحميد: **العطور ومعامل العطور في مصر القديمة**، ترجمه: ماهر جويجاتي، ط1، 2005، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة/ مصر، ص ص200-230.

في عهد تحتمس الثالث. غير أن الليبيين استغلوا ثورة (إخناتون) **1350–1334** ق.م.[20] الدينية وعادوا لمهاجمة الوادي. إلى أن شعر (سيتي الأول) **1291–1278** ق.م. من الأسرة التاسعة عشر في بداية حكمه أن مصر ستواجه عمّا قريب تهديداً حقيقياً من جهة الغرب. فقاد حملتين كبيرتين، قبل قيامه بحملته على سوريا، فانتصر فيهما انتصاراً ساحقاً على التحنو وأخذ منهم أسرى كثيرين ليقدّمهم للإله آمون، بالإضافة للجزية المعهودة، وسجل ذلك على جدران الكرنك[21].

وعندما سئم المصريون صدَّ هجمات الليبيين المتكررة، قام (رمسيس الثاني) **1279–1212** ق.م.، وهو ابن سيتي الأول، ببناء سلسلة من الحصون شرقي (مرسى مطروح الحالية بما فيها العلمين وزاوية أم الرخم)، للحيلولة دون وصول الليبيين من جهة الغرب إلى وادي النيل[22]. إلاّ أن حروبه مع الليبيين كانت غامضة باستثناء التهديدات التي كان يطلقها ضدهم.

تلك التهديدات التي يبدو أنها لم تنفّذ إلاّ في السنة الخامسة من حكم خلفه (مرنبتاح) **1212–1202** ق.م. أو **1224–1214** ق.م. الذي صدّ أعظم هجوم يشنه الليبيون متحالفين مع (شعوب البحر) على وادي النيل، فكانت بقيادة القائد الليبي (ميريي بن دد) الذي استطاع الوصول بجيشه إلى الزاوية الشمالية الغربية من الدلتا[23]. ورغم الهزيمة النكراء التي لحقت بالليبيين في تلك المعركة الكبرى، إلاّ أن (توينبي) علّق عليها قائلا: **"ولم تكن هذه غزوةً، بل ولا حملةً حربيةً، لقد كانت محاولةً للهجرة، ذلك بأن القادمين حملوا معهم**

---

(20) وفي البرغوثي: 1370-1352 ق.م. أنظر: البرغوثي: **مصدر سابق**، نفس الصفحة.

(21) البرغوثي: نفس المصدر، ص 111. وكذلك (Wikipedia): **مصدر سابق**. مع اختلاف في فترة حكم سيتي الأول حيث وردت في البرغوثي: 1318-1298 ق.م.

(22) , **Op.Cit**.(Wikipedia) . وكذلك البرغوثي: **مصدر سابق**، ص112.

(23) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص113. كذلك توينبي: **نفس المصدر**، ص113.

نساءهم وأولادهم وأنعامهم وأموالهم المنقولة»[24].

وفي تلك المعركة العظيمة أسّر مرنبتاح **9367** أسيرا ليبياً، وسبا **12** امرأةً من نساء القائد الليبي الذي نجا من الأسر بأعجوبة[25]. ثم أعيدت الكرّة في عهد رمسيس الثالث، غير أن العلماء لم يجدوا أدلة في الجانب الليبي تؤيد تلك الانتصارات، فاعتمدوا فقط على وثيقتين مصريتين استخرجهما (غاردنر Gardiner)، الأولى: نصب سجل عليه مرنبتاح انتصاراته. والثانية: من السنة الحادية عشر من حكم رمسيس الثالث، نورد ترجمتهما فيما يلي:

1- "..**التافه رئيس الليبو الذي فرّ تحت جنح الظلام وحيداً، عاري الرأس حافي القدمين، ونساؤه قُبض عليهن، ولم يبق لديه طعام ولا شراب يبقيه حيّاً، ووجوه إخوته يبدو عليها الغضب منه والرغبة في قتله، وقادته يحاربون بعضهم البعض، ومعسكرهم احترق وتحوّل إلى رماد..»**[26].

2- "..**الليبو والمشواش استقرّوا في مصر، واحتلّوا المدن التي بالأرض الغربية، من هيكوبتاح (ممفيس) إلى كيروبين، ووصلوا إلى الوادي الكبير من كل جهاته، وعزلوا تلك المدن لعدة سنوات بقوها في مصر. أنظر كيف دمّرتهم بضربة واحدة، وجرجرت المشواش والليبو والأسبت والكيكش والشيتب والحاسا والبقن، وهم مكوّمون يتخبّطون في دمائهم. أخذت هؤلاء الناجين من سيفي وهم مكبّلين كالطيور أمام خيولي، نساؤهم**

---

(24) توينبي، نفس المصدر، نفس الصفحة.

(25) البرغوثي: مصدر سابق، ص114 و115.

(26) Hope, Colin A.: **Egypt and Libya, the excavations at Mut el-Kharab in Egypt s Dakhleh Oasis**, The ARTEFACT, volume 24, 2001, Melbourne, Australia, p. 32.

قام الباحث بتعريبه.

أطفالهم يعدّون بعشرات الآلاف. ووطّنت قادتهم بمعاقل محصنّة وسموا باسمي، وعيّنتهم قادة لفرق عسكرية ورؤساء قبائل كأسرى مختومين باسمي، وهكذا حصل مع نسائهم وأطفالهم..»(27).

واحتفل المصريون بالانتصارات الأخيرة التي حققها مليكهم رمسيس الثالث، واستشعروا الأمن والاستقرار بعد الحصار الذي ضربه عليهم التحنو الليبيون. ومن هنا بدأت تتراجع الهجمات المسلحة وتحل محلها الهجمات السلمية.

2- التغلغل السلمي وقبول المصريين به:

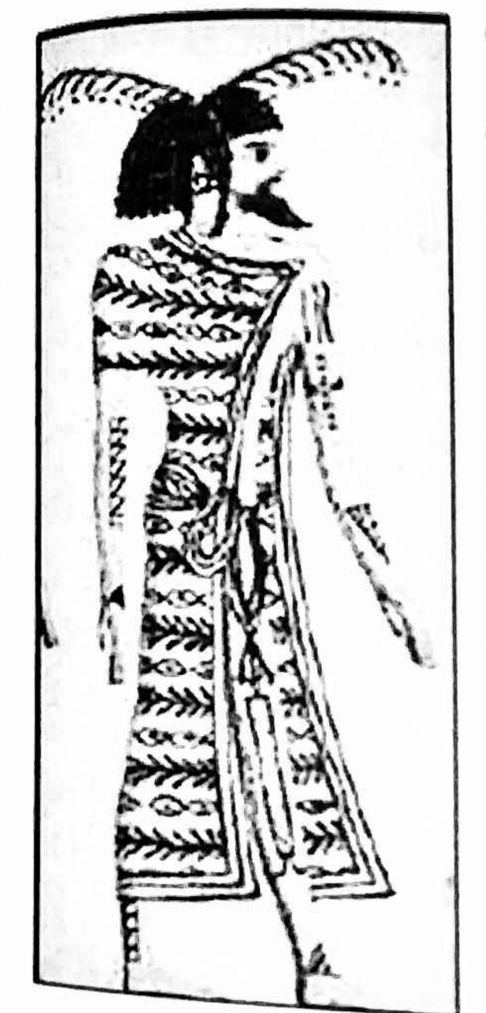
لم ينعم المصريون كثيراً بذاك الأمن الذي استتب عقب غزوة مرنبتاح، فسرعان ما عاود الليبيون الهجوم المسلح على مصر، لولا قيام (ستنخت) **1185-1182** ق.م. النشيط بتأسيس الأسرة العشرين، وأعقبه (رمسيس الثالث) **1182-1151** ق.م. أو **1198-1166** ق.م. فصدّ هجوماً قامت به قبيلة المشوش التي تسللت إلى مصر. غير أن الأحداث التي حصلت في سوريا وآسيا، أضعفت وتيرة مقاومة الفراعنة لليبيين، كما حفّزت الليبيين على معاودة التغلغل السلمي والهجرة التي فشل فيها (مريي بن دد) منذ عقود، في الوقت الذي كانت فيه شعوب البحر تخرّب الدلتا. ولعلّ هجمات شعوب البحر على شواطئ الدلتا من الجهة الشمالية والتي وجدها الليبيون فرصة للتوغل في مصر، هي التي أوحت بفكرة مساعدة شعوب البحر لليبيين في غزوهم لمصر.

وعندما استفحل خطر المشوش بقيادة زعيمهم (كيبر Kepper) وابنه (مششر Meshesher) قام رمسيس الثالث بحربه الثانية عليهم سنة **1187** ق.م. (في سنة حكمه

---

(27) Hope, **lbid**.

الحادية عشر) محققا انتصاراً ساحقاً عليهم، حيث أسّر من المشواش **1494** من الذكور و558 من الإناث، وغنم غنائم كثيرة[28]. ويبدو أن المشواش قد تحالفوا مع العمّوريين ضد مصر كنوع من تبادل المصالح، حيث ظهرت على جدران معبد هابو نقوش تبين هذا الفرعون وهو يقود ملك العمّوريين والرئيس الليبي معا أمام الإله آمون[29]. فكانت تلك آخر الحروب التي خلّفت أعدادا هائلة من الليبيين في مصر، منهم من تسلل إليها مهاجراً، ومنهم من دخلها عنوةً، ومنهم من اقتيد أسيراً. ثم ادّعى رمسيس الثالث –في نص من البردي– أنه وطّن المشوش بالقوة وجعلهم ينسون لغتهم ويتكلمون اللغة المصرية وأدمجهم في جيشه[30]. ويعلّق (توينبي) على ذلك بالقول أن المصريين استسلموا في النهاية إلى انسياح الليبيين الذين انتهى بهم الأمر إلى إنشاء طبقة عسكرية في مصر، واشتركوا في الكهانة المصرية الوطنية[31].



يمثل النقش رئيس إحدى القبائل الليبية يقود قبيلته سلماً في اتجاه وادي النيل (مقبرة سيتي الأول).

(28) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص124.

(29) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص123.

(30) Wikipedia, **Op.Cit.**

(31) توينبي: **مصدر سابق**، ص116.

إن النقوش التي دَوّنت معارك الليبيين والمصريين كانت تركّز على ذكر الليبيين باسم (التحنو أو التمحو) وأحيانا باسم (الريبو أو الليبو)، وقليلا ما نلاحظ عليها اسم (المشوش أو المشواش). وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه منذ البداية، على أن (التحنو أو التمحو) و(الليبو أو الريبو) ما هي إلاّ أسماء تطلق على عموم الليبيين وليست على قبيلة بعينها. أما (المشوش) فيبدو جليا أنها قبيلة قائمة بذاتها ضمن بقية القبائل الليبية التي تعاملت معها النقوش المصرية القديمة. إلى درجة أن بعض المؤرخين يسمّون الليبيين أحيانا بالمشوش خصوصا بعد وضوح ظهورهم في أواخر عصر الأسرتين الثامنة عشر والتاسعة عشر. فمثلا ذكرت الوثائق المصرية الزيوت والشحوم التي كانت تستورد من ليبيا على أنها من بلاد (تحنو) كما سبق الذكر، بينما ترد أحيانا أخرى على أنها «**دهن طازج من أبقار المشواش**»[32]، وهذا يعني أن قبيلة المشواش من أصل تحنوي، أي من بلاد التحنو: ليبيا التي كانت تأتي منها تلك الدّهون. لنرى من هم المشوش والقبائل الليبية الأخرى التي اشتركت معها في أحداث هذه المرحلة، باستثناء التحنو والليبو التي قلنا أنها قد تعني كل الليبيين وليست قبائل بعينها:

-**المشوش:**

المشوش أو المشواش، وتُرخّم أو تُختصر عند قدماء المصريين بـ(ما Ma). ويتفق كثير من المؤرخين المعاصرين، على أن المشوش قبيلة ليبية كانت تعيش في الشمال الشرقي من ليبيا الحالية، التي عُرفت فيما بعد ببرقة (Cyrenaica)[33]، وأن ديارهم امتدت غربا إلى منطقة تونس الحالية. أما عن ملامحهم فيتضح من المشاهد المصوّرة على جدران معبد مدينة (هابو) أن المشوش كانت لهم مع التحنو خصائص مشتركة أهمها اللحية المدببة، علاوة على

(32) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص103.

(33) Wikipedia, **Op. Cit**.

لبس الأشرطة المتقاطعة على الصدر والأزرار والذيل والمعطف وتزيين الرأس بالريش[34]. وكانت معاصرة للأسرتين **18** و**19**، (**1185–1570** ق.م.). لهذا السبب يمكننا اعتبار قبيلة المشوش والقبائل المتحالفة معها أساس التغلغل السلمي الليبي في مصر.

-**الإسبت**: وهي إحدى القبائل الليبية التي حاربها رمسيس الثالث (**1182–1151** ق.م. من الأسرة العشرين) وصدّ زحفها. كانت تسكن جنوب برقة، أو ربما أقامت حول الجبل الأخضر بين درنة وتوكرة.

-**القبت** (الرتحو آقبت): ذُكرت في عهد تحتمس الأول (**1527–1515** ق.م. من الأسرة الثامنة عشر)، كما ذُكرت على لوحة أمنحتب الثالث (**1402–1364** ق.م. من الأسرة الثامنة عشر). والظاهر أن أفراد هذه القبيلة من سلالة تجمع بين الليبيين والنوبيين منذ العصور القديمة.

-**الشكتن**: ذُكرت في عهد الأسرة التاسعة عشر (**1293–1185** ق.م.) والأسرة العشرين (**1185–1070** ق.م.). استوطنت الصحراء الغربية. وقد استخدمهم الفراعنة كجنود وحرّاس على الحدود.

---

(34) موسوعة تاريخنا: مصدر سابق، ص104،103.

-**البقن**: ذُكرت من بين القبائل الليبية التي شاركت في غزو مصر في عصر رمسيس الثالث (1151-1182 ق.م. من الأسرة العشرين). يرى البعض أنها سكنت حول الجبل الأخضر في منطقة طلميثة.

-**الكيكش**: ذُكرت مرة واحدة ضمن أسماء القبائل الليبية التي حاربها رمسيس الثالث (1182-1151 ق.م. من الأسرة العشرين). ويرى البعض أن هذا الاسم محرّف، وأن الأصل يشير إلى قبيلة أخرى أسماها هيرودوت (مكاي) التي كانت تسكن المناطق الخصبة من وادي كعام إلى هضبة ترهونة.

-**السبد**: تذكرهم نصوص معبد مدينة هابو بأنهم تجمّعوا مع المشواش والريبو وتنادوا قائلين: (دعونا نذهب إلى مصر). سكنت هذه القبيلة في الساحل الشرقي حول الجبل الأخضر.

-**القهق**: ذُكرت في عهد أمنحتب الأول (1546-1527 ق.م. من الأسرة الثامنة عشر) ورمسيس الثاني (1279-1212 ق.م. من الأسرة التاسعة عشر)، ضمن الفرق الأجنبية التي عملت في الجيش المصري، وفي عهد مرنبتاح (1193-1187 ق.م. من الأسرة التاسعة عشر) ضمن الأسرى الليبيين. كانت تابعة للريبو وتسكن في أماكن مخصصة لها على ساحل برقة[35].

---

(35) أنظر هذه القبائل بدون تواريخ في: موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، ص ص106-112.
أما التواريخ فانظر: **Op. Cit**, (Reshafim).

-**بحوت** (أو بوت أو فود): وتعود حسب ذكر التوراة إلى الابن الثالث لحام بن نوح، وتذكرهم على أنهم كانوا محاربين شرسين ومتحالفين دائما مع الليبيين. وذكرهم يوسفوس على أنهم مؤسسو ليبيا الجنوبية، وأسماهم (البحوتيون أو الفوتيون Phutites)، وربما أشار إليهم المصريون باسم التمحو[36].

هذه القبائل -مجتمعة أو متفرقة- واصلت التدفق السلمي إلى وادي النيل بأعداد هائلة، ولم تعط للحكومات المصرية على مدى فترة الأسرة العشرين فرصة لإيقافها أو الحد منها. ففي عهد رمسيس الثالث نفسه تمكنت مجموعات متنوعة من الليبيين من التمركز في مصر السفلى. ويرى البعض أن عددا من هذه المجموعات كانت قد واصلت زحفها نحو مصر قادمة من الصحراء الغربية، كآخر محطة حصل فيها قتال مسلح بين الليبيين والجيش المصري، حسب ذكر (كينث كتشن). ويُعتقد أن بعضهم كان على هيئة أسرى حرب، أو عمّال مرتزقة، أو مهاجرين. حيث بدأت أعدادهم تتضاعف وقوّتهم تتزايد ونفوذهم يتغلغل داخل الأسر الحاكمة عن طريق الزواج والمصاهرة. ومع مرور الزمن لم تعد النصوص والنقوش المصرية تذكر الليبيين على أنهم أجانب أو غرباء عن المصريين الأصليين باستثناء ما يتعلّق بأسمائهم المميزة[37]، حتى بعد وصول بعضهم إلى اعتلاء سدّة الحكم خلال فترة الأسرة الواحدة والعشرين.

---

(36) Wikipedia, **Op. Cit**. قام الباحث بتعريبه

(37) Hope, **Op. Cit**. p. 32.

3- من الكهانة إلى سدة الحكم:

بعد انتهاء عصر الرعامسة. بدأت الفترة التي تحدث عنها (كتشن Kitchen) وأسماها بالفترة الوسطى الثالثة (The Third Intermediate Period) **747–1070** ق.م. وكان الليبيون قد تخلّصوا من عدوّهم اللدود (رمسيس الثالث)، فأضافوا الثقافة المصرية إلى صلابتهم العسكرية وشدة بأسهم، مما سهل عليهم الارتقاء إلى أعلى المناصب. فقد تقبّل الليبيون الثقافة المصرية، محتفظين بشخصيتهم ونظرتهم العسكرية. وكانوا محل إعجاب الرأي العام على أنهم فرسان وقادة جيش جيد التسليح[38]. وكان من بين الأسر الليبية القوية عائلة (بويوواوا Buyuwawa) وهو من قبيلة المشوش التحنوية المستقرة في (هيراكليوبولس Heracleopolis) بمقاطعة (أهناسيا)[39]. وصار ابنه (موسن Mosen) الكاهن الأعظم لمعبد (حري شف) إلى جانب وظيفته السياسية كرئيس المشواش العظيم. وتوارث خلفاؤه هذا المركز، فزادت هيبة الأسرة ونفوذها. وكان أحد المنحدرين من هذه الأسرة (شيشنق الجد الأول) الذي تزوّج من الملكة الأرملة. ثم تلقى المعجزة من (آمون) في طيبة في عهد (بينيديام الثاني Pinedjem II)[40] **969–990** ق.م. بتأييد من جماعة أبيه الدينية، فكان ذلك فرصة ذهبية له وللجيش. ومن ثم صارت الكهانة بيد الليبيين، إلى جانب قيادة الجيش. فقد عيّن -مثلا- (شيشنق الأول) ابنه (إيوبوت Iuput) كأول نبي في طيبة. وفي عهد (أوسركون الثاني) تقلّدت بعض الأميرات مناصب مرموقة، مثل (كاراما Karama) زوجة شيشنق الأول، و(كاروماما Karomama) زوجة تاكيلوت الأول، اللتان كانتا وصيّتان على العرش بمثابة زوجتين للإله[41].

---

(38) (Reshafim), **The rise to power of the Libyans**, **Op. Cit.**
قام الباحث بتعريبه

(39) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص127.

(40) Reshafim, **Op. Cit.** وكذلك أنظر: البر غوثي: **نفس المصدر**، نفس الصفحة

(41) Reshafim, **Ibid**.

في هذه الفترة التي سيطر فيها الكهنة ورجال الدين على معبد آمون، قُسّمت البلاد المصرية إلى ثلاث مناطق(42): 1-**الدلتا**: وتدار من قبل ملوك بوباستيس.

2-**مصر الوسطى**: وحدودها الجنوبية تصل إلى أسيوط، وتدار من قبل أمراء هيراكليوبولس.

3-**مصر العليا**: وتدار من قبل كهنة آمون وزوجات الإله. وفي هذا الصدد تقول الموسوعة البريطانية أن مصر قُسّمت إلى قسمين مع نهاية المملكة الحديثة، فكان الشمال يُحكم من قبل ورثة الأسرة الواحدة والعشرين في تانيت **1075-950** ق.م. بينما وقع الجنوب تحت سيطرة كهنة طيبة (Theban Priests)، وكانت حدودهم الشمالية تصل إلى مدينة (الهيبة Al-Hiba) المحصّنة، غير أنه لم يسجل التاريخ أي صدام بين الكهنة وملوك تانيت(43). كما يقول (كتشن): "**بعد حكم رمسيس الثالث بدأ الانحدار التدريجي والبطيء للسلطة الملكية في مصر. إذ كان فراعنة الأسرة 21 يديرون شؤون الدولة من تانس، ولكن سيطرتهم لا تتجاوز مصر السفلى، وكانت أسرتهم تُعرف بالتانيتية نسبة لتانس، وفي الوقت نفسه كان كبار كهنة الإله آمون في طيبة يديرون مصر الوسطى والعليا بتأثير بالغ ولكن بدون أسماء**»(44).

---

(42) Reshafim, **Ibid**.

(43) **Egypt from 1075 BC to the Macedonian invasion (The Third Intermediate period 1075-656 BC) The 21st dynasty,** (Encyclopedia Britanica-article-22331/Egypt-ancient) قام الباحث بتعريبه.

(44) **Pharaohs of the Twenty-first dynasty of Egypt,** (Wikipedia), **Op. Cit**. قام الباحث بتعريبه

ورغم عدم اعتبار كبار كهنة آمون الليبيين في طيبة سلالة حاكمة، إلاّ أنهم كانوا مؤثّرين في حكم مصر العليا من **1080** إلى **945** ق.م. حيث كانت البداية مع (حيري حور) الذي أُعلن كاهنا أعظم لآمون سنة **1070** ق.م. أي في السنة التاسعة عشر من حكم رمسيس السادس. وكانت كهانة آمون تلعب دورا مؤثرا في اقتصاد مصر، حيث كان الكهنة يملكون ثلثي المعابد وأراضيها في مصر، و90% من سفنها، إضافة إلى مصادر مالية أخرى[45]. وهذا يعني أن كهنة آمون كانوا حقيقة في مستوى الفرعون إن لم يكونوا أقوى منه، بل وقد يصل أحدهم إلى اعتلاء العرش ويحكم مصر حكما دينيا وسياسيا.

ورغم المركز الاجتماعي والديني والعسكري الذي احتله الليبيون في مصر، والاندماج الكامل في المجتمع المصري، إلاّ أن بعض المصادر لا تزال تذكرهم بالأوصاف التي أطلقها الفراعنة عليهم زمن الكر والفرّ. ففي هذه الفترة التي ترأس فيها الليبيون الكهانة والجيش، نجد بعض المؤرخين يطلق عليهم صفة (**الأجانب**) و(**المرتزقة**) و(**الأسرى**)، بل و(**البرابرة**) أحيانا. والبعض الآخر يتعرض لهم بالتلميح مثل (**تقبّل الليبيون الثقافة المصرية بطريقة سطحية**). أما الموسوعة البريطانية فكانت أكثر حذرا عند تناولها فترة حكم (أوسركون) الليبي، فقالت: (**ومن زمن أوسركون إلى الأسرة 26 احتفظ القادة الليبيون في مصر بأسمائهم وهويتهم الليبية، ولكن بروح إثنية أكثر منها انفصال حضاري، كما كانت المؤسسات السياسية مختلفة أيضا**)[46].

فكيف يكون الليبيون **أجانب** بعد تواجد دام أكثر من ألفي سنة؟ ومن هم المحلّيون إذن؟ وكيف يكونون **مرتزقة** وهم يشكلّون الجيش المصري وقادته؟ وكيف يكونون **أسرى**

---

(45) Wikipedia, **Ibid**.

(46) Encyclopedia Britanica, **Op. Cit**.: **article 22332**. قام الباحث بتعريبه

ومعظمهم جاء إلى مصر مهاجرا -سابقا-، ثم دخل إليها سلميا -لاحقا-؟ وكيف يكونون **برابرة** وقد وضعت حروب رمسيس الثالث أوزارها وانتهت معها حقبة العداء؟ أما عن **سطحية الثقافة**، فإن الثقافة المصرية مبنية على أسس دينية وعقائدية، وكان هذا اتجاه الليبيين منذ البداية، حتى أنهم ترأسوا المؤسسة الدينية عند استقرارهم النهائي في مصر، فأي سطحية بعد هذه الثقافة الدينية العميقة؟ ولعل بعض الكتّاب يرون في الليبيين شيئا من التخلف، باعتبارهم موصوفون بالحياة الرعوية والبدوية، ولكن الغنائم والأسلاب التي عادة ما تعود بها الجيوش المصرية عقب الغزوات على ليبيا تثبت عكس ذلك، فالسيوف البرنزية الطويلة والأقواس وجعب السهام والرماح والعربات الحربية التي استعملها الليبيون في معاركهم ضد المصريين[47] تشير إلى أنهم كانوا يصنعون تلك الأسلحة أو يستوردون موادها الأولية. علاوة على أن بلاد التحنو في الجبل الأخضر تنتج الزيوت والشحوم الداخلة في صناعة البخور، وهذا يعني أنهم كانوا -أو كان بعضهم على الأقل- تجّارا، والتجارة عنصر حضاري متطور أخذ الناس بأسبابه بعد عصور البداوة الرعوية والزراعة وتربية الحيوانات. وعُرف عنهم ارتداء الملابس الملونة والمزركشة المصنّعة من أقمشة مستوردة من مصر والنوبة ومن شعوب البحر وربما من سوريا أيضا، وتصفيف الشعر وتهذيب اللحية، والتحلّي بالأساور والأقراط والقلائد الذهبية..[48] وغير ذلك من السمات الحضارية التي يبدو أنها لم تكن مقتبسة أو مقلّدة، بل هي أصيلة في جوهرها وفريدة في نوعها، غير أنهم لم يتوصلوا إلى ابتكار وسائل التدوين والكتابة، فلم يتركوا لنا ما يدل على أساليب حياتهم، ربما لأنهم لم يستقرّوا ولم ينشئوا الدول، بسبب عدم وجود مصادر مياه دائمة، بل ظلّوا يعيشون على هيئة قبائل متنقلة لها قوانينها ونظمها ورؤساؤها وزعماؤها، فتعامل معهم المؤرخون على هذا الأساس. ولكنهم أثبتوا قدرتهم على التأقلم مع عناصر الحضارة عند أول وهلة استقرّوا

---

(47) أنظر: البرغوثي: <u>مصدر سابق</u>: ص ص124 و125.

(48) عن هيئة الليبيين أنظر: موسوعة تاريخنا: <u>مصدر سابق</u>، ص ص114 -128.

فيها بمصر. فكانوا محل تقدير واحترام من قبل فراعنة مصر أنفسهم.

كان كهنة آمون العظام يرتقون إلى أعلى المراتب السياسية، وكان أولهم (حيري حور).

ومن العائلات الليبية (التحنوية-المشواشية) التي تمكّنت من شغل وظيفة الكهانة في آمون كانت عائلة (بويوواوا). ومن أحفاده كان (أوسركون الجد أو الكبير) ابن (شيشنق الجد أو الكبير) وأخو (نيملوت أو نمرود) وعم (شيشنق الأول). وأوسركون هذا هو الذي اعتلى عرش مصر ضمن ملوك الأسرة الواحدة والعشرين الذين حكموا مصر من مدينة (تانيس Tanit)، واسم عرشه (أخبير-رع سيتي-بن-رع Akhperre Setepenre)، ويُعرف أحيانا باسم (Osochor). كان وجوده في البداية مشكوك فيه من قبل العديد من الباحثين، إلى أن أثبت (إيرك ينغ Eric Young) سنة 1963 أن كاهنا نُصّب في المعبد يُدعى (نسباني فرحور Nespaneferhor) باسم الملك (أخبير-رع سيتي-بن-رع Akhper-re Sete-pen-re) مدوّن على شظية أثرية تحتوي على حوليات خاصة بكهنة الكرنك. واكتشف أن ذلك الملك هو (أوسركون Oserkon) الذي لم يكن معروفا. وبين سنتي 1977-1976 قدّم (جان يويوت Jean Yoyotte) ورقة أورد فيها أن ملكا ليبيا حكم مصر، اسمه أوسركون، وهو ابن شيشنق الأكبر من السيدة (محتنويشخت Mehtenweshkhet)، وهي التي عُرفت -فيما بعد- بلقب (أم الملك) في وثيقة النسب، وهي أيضا أم (نيملوت الأكبر Nimlot A) الرئيس الأعظم للمشواش، وأيضا هي جدّة شيشنق الأول مؤسس الأسرة الثانية والعشرين. ولتمييزه عن (السراكنة)[49] الذين جاءوا بعده أطلق عليه المؤرخون اسم (أوسركون الجد Oserkon the Elder)[50]. ويرى المؤرخ (مانيثو) أن حكم (Osochor) كان نذيرا بوصول الليبيين إلى تأسيس الأسرة الثانية والعشرين. وقد حكم أوسركون بين سنتي **991** و**985** ق.م. ولكن

(49) جمع تكسير لاسم (أوسركون).

(50) (wikipedia), **Op. Cit.**

الحساب الفلكي الذي استخدمه (رولف كراوس Rolf Krauss) أظهر سنة **990** ق.م.
كبداية لحكم أوسركون، أي بعد سنتين من تسميته كاهنا باسم (نسباني فرحور) **992** ق.م.

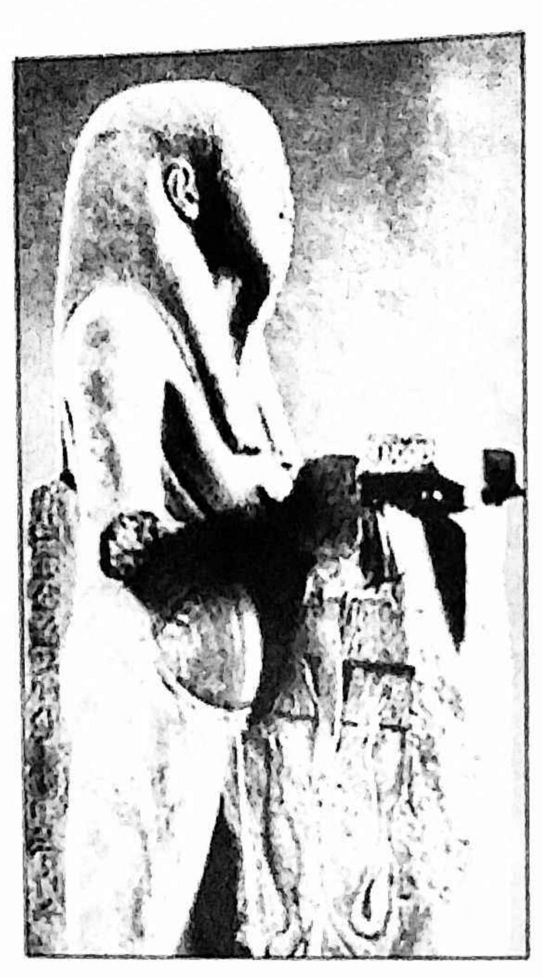
ثانياً: شيشنق الأول.. مؤسس الأسرة الثانية والعشرين

ذكرنا أن خلال الألف الثانية قبل الميلاد دخل الليبيون إلى شرق الدلتا بصورة سلمية غالبا. أما الغزوات في زمن الدولة الحديثة فكانت تُصدّ من قبل (مرنبتاح) **1202**-1212 ق.م. و(رمسيس الثالث) **1151-1182** ق.م. وكان المنهزمون -عقب كل غزوة- يُقادون رقيقا أمام الإله آمون. إلاّ أن التسلل السلمي إلى مصر السفلى ظل مستمرا. ففي النصف الأول من القرن الحادي عشر قبل الميلاد استقرت عائلة (بويوواوا) في هيراكليوبولس، جنوب مدينة ممفيس. وهو من قبيلة المشواش التحنوية-الليبية. وتطالعنا النصوص أن هذه العائلة كانت تعيش في الواحات الشرقية ثم زحفت إلى أهناسيا، وكانت معاصرة لأواخر أيام الرعامسة[51]. وتولى أفرادها المناصب الكهنوتية، وازداد نفوذها، إلى أن نجح شيشنق الجد في الحصول على مركز رئيس الحامية الحربية الليبية في المنطقة، بالإضافة لمنصبه الديني. أما حفيده شيشنق (الأول) فقد امتد سلطانه إلى مدينة (بوباستيس)، مما دفع البعض إلى الاعتقاد بأن هذه الأسرة أصلها من الدلتا.

---

(51) جمع تكسير لاسم (رعمسيس).

وهذه العائلة هي التي أنجبت الفراعنة الليبيين الذين اعتلوا عرش مصر زمنا طويلا. فكان من بين أحفادها (أوسركون الجد) أحد فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين **985-991** ق.م.، وابنه أو ابن أخيه (شيشنق الأول Sheshonq I) **924-945** ق.م. الذي قام بتأسيس الأسرة الثانية والعشرين الليبية.



تمثال شيشنق الأول (محفوظ بالمتحف البريطاني)، (عن Encyclopedia Britannica).

ورغم اعتراف النقوش المصرية القديمة بشيشنق الأول، إلاّ أن اختلافا قد حصل في اسمه وأصله وتاريخ حكمه بل وصحة وجوده. وقد يكون أساس ذاك الاختلاف ومصدره نابعين من النصوص التوراتية المضطربة أصلا، التي انساق وراءها بعض المؤرخين الأوروبيين المؤمنين بصحة أخبار العهد القديم، بينما عارضها كثير منهم، معتمدين في ذلك على النقوش والمخلفات الأثرية التي تحدثت عن شيشنق الأول وأسرته الثانية والعشرين وفتوحاته المشهورة في فلسطين.

يركّز هذا الفصل على التعريف بشيشنق الأول وأصله واسمه ودولته وسنوات حكمه ووفاته، في إطار المعلومات المستقاة من الأعمدة الحجرية والجداريات التي خلفها هذا الفرعون المصري-الليبي. ولا بد من الإشارة -هنا- إلى محاولات اليهود في حشر أنوفهم في تاريخ المنطقة، كنوع من التعويض عن فشلهم في إقامة حضارة تضاهي حضارة الشعوب (العروبية)

من حولهم، فلم يتمكنوا من إنشاء دولة -في حدود خصوصيتهم الدينية- إلاّ في عهد النبي داود وابنه سليمان (عليهما السلام) خلال الألف الأول قبل الميلاد ولمدة حوالي سبعين سنة.

1- شيشنق الأول.. اعتلاء العرش وتأسيس الأسرة الـ22 الليبية:

في خواتم عصر الرعامسة فقدت الأسرة العشرون سيطرتها على مدينة طيبة، حيث تعاظم دور الكهنة تدريجيا. وبعد وفاة رمسيس الحادي عشر بدأ خلفه (سمندس الأول Smendes I) يحكم مصر الشمالية من مدينة تانيس أو تانيت (Tanis or Tanit)، وكهنة آمون يحكمون الجنوب من مدينة طيبة (Thebes)، غير أن هذا التقسيم لم يكن خطيرا بالدرجة التي ضخّمها البعض، حيث كان كل من الكهنة والفراعنة من نفس الأسرة. ويشير نقش بجدار الكرنك إلى كاهن أعظم أو نبي يدعى (بينوزيم الثاني Peinuzem II)، وافترض المؤرخون المعاصرون أن هذا الكاهن لا يكون إلاّ الملك (بسوسينّس الثاني Psusennes II) الذي أعدّ كآخر فرعون للأسرة الواحدة والعشرين حسب تقدير (كتشن) وآخرون، ولكن توجد نقوش تشير إلى ذلك. إلاّ أن المؤرخين يؤكدون أن له ابنة تدعى (مكاري -Mak are) تزوجها (أوسركون) وأنجب منها الكاهن الأعظم (ميري-آمون-سوسنق)، كما سبقت الإشارة. وعلى هذا الأساس يكون (بسوسينّس الثاني) جدّ (شيشنق الأول) من أمه. بينما تقول مصادر أخرى أن شيشنق هو نفسه من تزوّج ابنة بسوسينّس الثاني وأنجب منها خليفته (أوسركون الأول)، وهذا ما نُقش حرفيا على نصب إله النيل الذي سبقت الإشارة إليه. وفي رواية أخرى يُشار إلى أن شيشنق الجد أنجب ابنا اسمه (نملوت) أو نمرود وهو بدوره أنجب شيشنق الأول الذي تزوج ابنة بسوسينّس الثاني. أما (أوسركون الجد) فهو أخو نملوت وعم شيشنق الأول. وقد لاحظ البعض أن اسم شيشنق ورد لأول مرة في النقش الطويل الذي وجد في أبيدوس (Abydos) عندما كان رئيسا أعظم للمشواش، أمير الأمراء، وأبوه نملوت

ابن السيدة (محتمواسخي Mehetemwaskhe). وتحدّث (دونالد ريدفورد Donald B. Redford) عن شيشنق الجد قائلا: "**وكان شيشنق هذا رجلا عجوزا أنجب أبناء يافعين خلال حكم بسوسينّس الثاني، وكان قد اكتسب عددا كبيرا من درجات القرابة مع العائلات البارزة، فالكاهن الأعلى لممفيس كان خاله عن طريق الزواج، وابنه الأكبر أوسركون كان قد تزوج من ابنة الفرعون، وهناك ابن ثان له تزوج من إحدى بنات عائلة النبي الرابع لآمون، أما الابن الثالث فتولى منصب قائد هيراكليوبولس**»[52]. بينما ترى (موسوعة تاريخنا) أن شيشنق الأول زوّج ولي عهده (أوسركون) من ابنة بسوسينّس الأميرة (معتكارا):(ماعت-كا-رع)، وزوّج ابنه الآخر (أوبوت) من إحدى بنات (بينوزم الثاني) كبير كهنة آمون، وبذلك أصبح ابنه هو الكاهن الأكبر لآمون ورئيس المشواش وقائد المشاة[53].

يبدو أن هذا التخبط في تحديد أفراد أسرة شيشنق الجد كان بسبب تشابه الأسماء بين الجد والحفيد والأب والابن، وصعوبة التفريق بين شيشنق (الجد) وشيشنق الأول (الحفيد)، وأوسركون (الجد) وأوسركون الأول (ابن الحفيد)، وبسوسينّس الأول (الجد) وبسوسينّس الثاني (الابن أو الحفيد).. فكثير من الكتّاب يذكرون الأسماء بدون ألقابها، أي دون إلحاقها بـ(الجد the elder، أو الابن the son، والفرعون the faraoh، أو الكاهن the priest، والأول I أو الثاني II).. خصوصا في فترة انقسام السلطة بين الفراعنة في تانيس والكهنة في طيبة. فـ(بسوسينّس) الكاهن **959–969** ق.م. غير (بسوسينّس الأول) الفرعون الثالث للأسرة الواحدة والعشرين **1000–1039** ق.م. وغير (بسوسينّس الثاني) الفرعون السادس لنفس الأسرة، و(شيشنق الجد) رئيس المشواش الأعظم غير (شيشنق الأول) الفرعون **924–945** ق.م.، و(أوسركون الجد) الفرعون الخامس للأسرة الواحدة والعشرين **985–991** ق.م. غير

---

(52) ريدولف: **مصدر سابق**، ص450.

(53) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص184.

(أوسركون الأول) الفرعون الثاني للأسرة الثانية والعشرين **889-924** ق.م. وهكذا.. علاوة على عدم التفريق بين اسمي (بينوزيم Peinuzem) و(بسوسينّس) اللذان يبدوان -عند الكثير من الكتّاب- اسمين لشخص واحد مع اختلاف في الهجاء.

وفي جميع الأحوال تؤكد معظم المصادر أن شيشنق الأول كان قائد القوات المسلحة المصرية، والمستشار الأعلى للفرعون بسوسينّس الثاني، وصهره، إلى جانب احتفاظه بوظيفة أبيه وجدّه كرئيس المشواش الأعظم. وكان بسوسينّس الثاني لم ينجب ولدا يرث عرشه، فاعتمد على مستشاره وصهره شيشنق في تولي هذه المهمة. وتشير عدة دلالات إلى أن خواتم سنوات حكم بسوسينّس الثاني كانت رديئة سياسيا واقتصاديا، مما أضعف الأسرة الواحدة والعشرين وأدى إلى انهيارها. ''**فقد تمزّقت مصر إلى طوائف يديرها المغامرون على هواهم دون رقابة من الفرعون الضعيف الذي لجأ إلى مهادنة جميع الأطراف مقابل أي ثمن. وفي النهاية اضطر إلى مهادنة إسرائيل أيضا، التي كانت قوتها تتعاظم في فلسطين تحت حكم أسرة داوود، وعقد معها صلحا مهينا تمت جميع شروطه على حساب مصر**»[54]. وبالتالي فليس في الأمر دهشة أن يصعد شيشنق الأول العرش بدون عوائق، ويؤسس أسرة حاكمة جديدة عقب وفاة بسوسينّس الثاني، وهي الأسرة التي عدّها المؤرخ المصري المعروف مانيثو ''**الأسرة الثانية والعشرين**»[55].

كان قصد شيشنق الأول من زواج ابنه (إيوبوت) من ابنة كبير الكهنة، هو القضاء على حكم كهنة آمون في الجنوب، وإنهاء حالة الانقسام التي استمرت طيلة فترة الأسرة الواحدة والعشرين. إلاّ أن الكهنة رفضوا ذلك -في البداية على الأقل- وظلّوا يذكرون اسمه كرئيس المشواش العظيم دون ألقاب ملكية. فما كان من شيشنق الأول إلاّ مداهمة مراكز نفوذهم في

---

(54) موسوعة تاريخنا: نفس المصدر، ص183.

(55) ريدولف: مصدر سابق، نفس الصفحة.

طيبة، "**ففرّوا مذعورين تاركين المدينة لسكانها، وهربوا إلى السودان..**»[56]. فاستطاع بذلك "**إعادة توحيد البلاد تحت حكم أسرة واحدة**»[57].

اتخذ شيشنق الأول من مدينة (بوباستيس Bubastis) عاصمة لدولته، منهيا بذلك عهد العاصمتين السابقتين اللتين اتخذهما فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين وكهنتها: (تانيس) و(طيبة). وتقع بوباستيس أو(بوباستيت) شرق الدلتا (الزقازيق حاليا)، وتسمى الآن (تل باسطة Tell Basta). وبما أن الليبيين كانوا –منذ القدم– يعيرون اهتماما بالغا بالنواحي الدينية، فقد اختاروا هذه المدينة بالذات لأنها كانت المركز الرئيس لعبادة الإلهة المصرية (باسطة Bastet)، وكانت المدينة مسرحا لاحتفال سنوي يستقطب الحجاج من كل أنحاء مصر، وتقع في شرقها مقبرة كبيرة للقطط المقدسة. وتعود بوباستيس تاريخيا إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وظلت قائمة إلى أن دمّرها الفرس حوالي **350** ق.م.[58]. غير أن شيشنق الأول –رغم قضائه على نفوذ الكهنة في طيبة– إلاّ أن إنجازاته المعمارية التي اشتهر بها لم تكن في بوباستيس (الوجه البحري)، بل كانت في معبد آمون بالكرنك في طيبة (الوجه القبلي)، فأضاف الأعمدة الجديدة وقوس النصر في معبد آمون، بينما لم يتم أي إنجاز معماري في الكرنك منذ الأسرة التاسعة عشر، حيث سجل على جدرانه انتصاراته الساحقة على إسرائيل وفلسطين. وأرسل قبل ذلك بعثة إلى "**محاجر السلسلة الواقعة بين أدفو وأسوان**»[59]، برئاسة (حور مساف) الذي دوّن هناك طبيعة العمل المكلّف به من قبل شيشنق الأول، والمتمثل في قطع الأحجار "**لإقامة بوابة عظيمة جدا لأجل أن تضيء طيبة، ولإقامة بهو أعياد لبيت والده آمون–رع**

---

(56) موسوعة تاريخنا، **مصدر سابق**، ص185

(57) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(58) (Incarta Encyclopedia 2006). قام الباحث بتعريبه.

(59) موسوعة تاريخنا، **مصدر سابق**، ص186.

ملك الآلهة وليحيطها بأعمدة»[60]. وباهتمامه بمدينة طيبة وتعيين ابنه (إيوبوت) كاهنا أعظم لمعبد آمون فيها، يكون شيشنق الأول قد امتلك زمام السلطتين الدينية والزمنية، وأعاد وحدة مصر بوجهيها البحري والقبلي بعد انفصال دام قرابة 125 سنة، بل وامتد نفوذه إلى ما وراء بلاد النوبة، وهذا يعني أنه أدمج كل من (مصر وشمال السودان وشرق ليبيا) في دولة واحدة قبل أن يجازف بالصعود إلى فلسطين.

من هنا يتضح أن حكم شيشنق الأول كان يشير إلى قمة وضوح الفترة الوسطى الثالثة التي ألّف عنها (كتشن) كتابه الشهير (The Third Intermediate Period). وقد كان شيشنق الأول قادرا عل جمع أبنائه حوله، فولّاهم مناصب قيادية هامة في عدة مناطق من الدولة، فولّى ابنه (إيوبوت Iuput) حاكما لمصر العليا وقائدا للجيش إلى جانب وظيفته الأساسية ككبير كهنة آمون، وابنه (ديّد-بتاح-أيو-فنخ Djedptahaufankh) مساعدا لأخيه كنبيّ ثالث لآمون، وابنه (نملوت Nimlot) قائدا للجيش في هيراكليوبولس القريبة من طيبة لحمايتها، وكان أحد الرؤساء المتحالفين مع القبائل الليبية واسمه (نيزي Nesy) صار النبيّ الرابع لآمون. كما كان يشجع على الزواج من بنات القصر الملكي[61]. ويختتم (جيمي دون Jimmy Dunn) حديثه بالقول: "..**وبهذه السياسة استطاع شيشنق الأول تثبيت حكمه في البلاد مما جعله يلتفت إلى حدوده الشرقية»**[62]. ويبدو واضحا أن حملة شيشنق الشهيرة على مملكتي إسرائيل ويهوذا كان إحدى أهم أهدافها تحسين الوضع الاقتصادي لدولته، ويدل على ذلك الغنائم والضرائب التي عاد بها من فلسطين عقب تلك الحملة، كما سيأتي الذكر.

---

(60) موسوعة تاريخنا، نفس المصدر، ص187.

(61) لم يذكر الكاتب الابن الأكبر لشيشنق الأول (أوسركون) وريث عرشه، مما يعيد للأذهان مسألة التخبط في الأسماء بين السلف والخلف.

(62) Dunn, Jimmy: **Sheshonq I, founder of Egypt›s 22sd Dynasty**, (Touregypt.net), **Op.Cit**. قام الباحث بتعريبه

2- شيشنق الأول.. سنوات الحكم:

إن التاريخ المألوف والمتداول لسنوات حكم شيشنق الأول هو الذي أقرّه معظم المؤرخين أمثال (كتشن)، وحدّدوه بين سنتي **945** و**924** ق.م. ولكن هذه المدة روجعت وقلّصت بضع سنوات فكانت بين سنتي **943** و**922** ق.م. أي أنه عاش سنتين أو ثلاث بعد انتصاره على مملكتي إسرائيل ويهوذا سنة **925** ق.م. والتي اعتبرها كتشن سنة واحدة فقط. غير أن عالم المصريات الإنكليزي (موريس بييربرير Morris Bierbrier) أرّخ ارتقاء شيشنق العرش بما بين سنة **945** و**940** ق.م. معتمدا على دليل توراتي أظهره (أولبرايت W.Albright)، وقد يعود سبب هذا التقليص الواضح -حسب وجهة النظر هذه- إلى عدم اكتمال النقوش على جدار المعبد في الكرنك الذي وجدت عليه فقط مشاهد حملة شيشنق على فلسطين، والتي قد تحتاج إلى سنة كاملة -على أقل تقدير- حتى تكتمل تخطيطاً وبناءً ونقشاً، وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد أن شيشنق عاش سنة واحدة بعد تلك الحملة، سنة **925** ق.م. وبالتالي فإن سنة ارتقائه العرش **945** ق.م. تخفّض قليلا إلى سنة **943** ق.م. بالإضافة إلى العدد الكسري للشهور التي كانت بين سنوات حكم السبعة فراعنة للأسرة الواحدة والعشرين والتي تقدر بسنة تقريبا، وهذا ما لم يرد في ملخص (مانيثو) الذي ذكر أرقام السنوات وأغفل أرقام الشهور نهائيا. وهذا التعديل قد يكون مؤثرا في وضع سنة **945** ق.م. كسنة ارتقاء شيشنق العرش[63].

وكذلك تفيد آخر الدراسات الكرونولوجية لتاريخ مصر القديمة أن بداية حكم شيشنق هي **943** ق.م. وليس **945** ق.م. وذلك حسب الدليل الجديد الذي وُجد على عمود حجري بالداخلة الكبرى (Great Dakhla) المؤرخ في السنة الخامسة من حكم

---

(63) Shoshenq I (Wikipedia) **Op. Cit** قام الباحث بتعريبه.

شيشنق الأول. فالمؤرخون الذين كتبوا عن تاريخ مصر سنة 2006 الماضية[64]، قالوا:

«إن التسلسل التاريخي (الكرونولوجي) للأسرة الثانية والعشرين يعتمد على سجل الموتى. وإجمالي الحد الأقصى من المدد التي حكم فيها كل من (أوسركون الثاني، وتاكيلوت الأول، وأوسركون الأول، وشيشنق الأول) يضاف إلى 841 ق.م. كأول سنة لحكم شيشنق الثالث، يقودنا ذلك إلى تاريخ 938 ق.م. كأول سنة لحكم شيشنق الأول. ومن جهة أخرى فإن نقش (الدّاخلة) يتيح تاريخا قمريا في شكل احتفال ديني في السنة الخامسة من حكم شيشنق الأول، وهذا التاريخ يقودنا -بدوره- إلى سنة 943 ق.م. كأول سنة لحكمه''[65].

ولفهم هذا الأمر قمنا بتحليله، فجمعنا تلك السنوات، فكانت النتيجة التالية:

أوسركون الثاني حكم 24 سنة، وتاكيلوت الأول حكم 15 سنة، وأوسركون الأول حكم 35 سنة، وشيشنق الأول حكم 21 سنة، الإجمالي: (19+35+15+24: 93 سنة+4 سنوات فارق فواصل بين السنين: 97 سنة)، وعندما تضاف هذه السنوات الـ97 إلى سنة **841** ق.م.: **938** ق.م.، وبعد إضافة 5 سنوات التي وجدت بنقش (الداخلة الكبرى) إلى سنة **938** ق.م.، تصير سنة **943** ق.م. بداية لحكم شيشنق الأول حسب هذه النظرية.

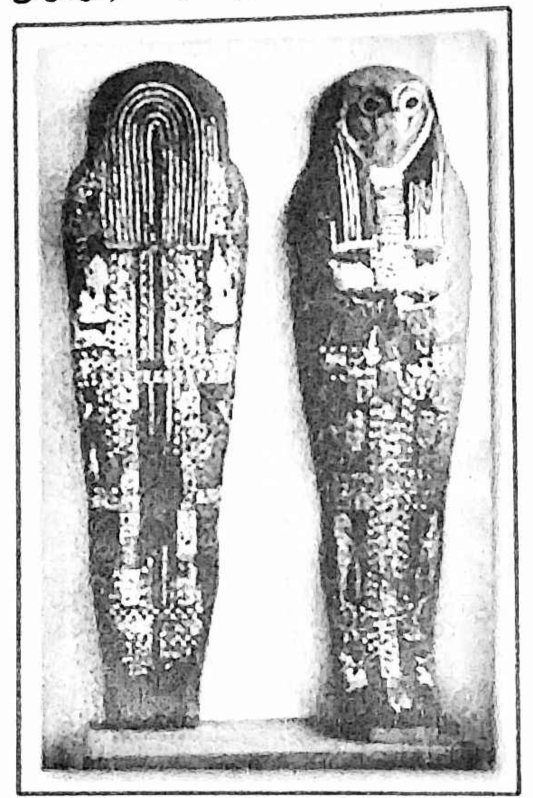
غير أن الأخطر من ذلك ما قام به علماء المصريات المعاصرون المتحمسّون لفكرة أو نظرية (التسلسل التاريخي الجديد لتاريخ مصر وفلسطين) : (The New Chronology)، والذي سنناقشه بشيء من التفصيل في الفصل القادم.

---

(64) أمثال: Erik Hornung, Rolf Krauss, David Warburton.وغيرهم

(65) (Wikipedia) **Op. Cit**..

توفي شيشنق الأول بعد حكم دام 21 سنة، أي في سنة **924** ق.م.، حسب إجماع كثير من المؤرخين، وخلفه ابنه (أوسركون الأول). واعتمادا على عالم المصريات الإنكليزي (إيدون دودسن Aidon Dodson) لا يوجد أثر -إلى الآن- لقبر شيشنق الأول. والشيء الوحيد الخاص بالدفن والمرتبط بمدفن شيشنق الأول وعاءٌ خاص بوضع أمعاء المتوفى عند التحنيط، مجهول الأصل، كان قد سُلّم إلى المتحف المصري في برلين من طرف (يوليوس إسحق Julius Isaac)، مما يشير إلى أن القبر كان قد نُهب منذ القدم، وهذا ما لا يمكن إثباته حتى الآن. وقد اختلف العلماء في موقع دفن شيشنق الأول: ربما في تانيس أو في بوباستيس. ويقترح (تروي ساغريلّو Troy Sagrillo) في ورقة قدّمها سنة 2005 الماضية أن شيشنق الأول قد يكون مدفونا في نطاق معبد (بتاح) في ممفيس.



تابوت شيشنق الأول (وجد فارغاً في مدينة تانيس)، (عن Touregypt).

وفي الوقت الذي لم يُعرف فيه قبرُ شيشنق الأول، عَثر الأثريون على مدفن لأحد المشاهير في دولته، وهو النبي الثالث لآمون (ديّد-بتاح-إيو-فنخ Djedptahiufankh) الذي عدّه (جيمي دون) أحد أبناء شيشنق الأول، كما سبق الذكر، والذي اكتشفت جثته سليمة وغير مصابة بأذى، في القرن التاسع عشر الميلادي. والنقش الذي وُجد على لفائف هذه المومياء يُظهر أن وفاتها كانت أثناء أو بُعيد السنة الحادية عشر من حكم شيشنق الأول. وقد عُثر -مع هذه المومياء- على أساور ذهبية وتمائم وأشياء أخرى مصنوعة من العقيق الأحمر والحجارة الكريمة، وهي أدوات تعطينا لمحة صغيرة عن الحلي التي يجب أن يتحلى بها قبر شيشنق الأول[66].

ثالثاً: وضع اليهود في فلسطين عشية حملة شيشنق الأول

تقول الأسطورة التاريخية (التوراتية غالبا) أن اليهود بعد سنوات التيه الأربعين في صحراء سيناء، عقب خروجهم من مصر، اتجهوا إلى فلسطين. فكانت لهم هناك مع الكنعانيين الفلسطينيين نزاعات وحروب. وبعد صراع دام حوالي القرنين تغلّب داود (عليه السلام) على خصومه ووحّد قبائل اليهود في دولة واحدة، سميت مملكة إسرائيل، وهي الأولى من نوعها منذ أن عُرف اليهود في المنطقة كشعب صغير يعيش حياة البداوة والتنقل، وذلك قبل أن يدخلوا إلى مصر في عهد يوسف بن يعقوب (عليهما السلام). وبعد موت داود ورث ابنه سليمان (عليهما السلام) الحكم. وفي عهده استولى شيشنق الأول على عرش مصر. وكعادة فراعنة مصر لم يرض شيشنق الأول وجود دولة قوية على حدوده مهما كانت محدودية قوتها، فأعدّ حملة عسكرية واجتاح فلسطين في السنة الخامسة من حكم رحبعام ابن النبي سليمان وخلفه. واحتل عددا من مدنها، وأخذ الكنوز التي صنعها سليمان في الهيكل بالقدس، وسخّرها في حل

---

(66) (Wikipedia), **Op.Cit**. ومصادر أخرى قد تتفق وقد تختلف اختلافات طفيفة.

الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها مصر آنذاك. وعند عودته إلى مصر سجّل انتصاراته تلك على جدارية معبد آمون بالكرنك في طيبة.

وقد مهّدت بعض الظروف لتلك الحملة، حيث كان الملك سليمان على علاقة شبه وطيدة مع جيرانه المصريين والسوريين على حد سواء، وكانت تلك العلاقة تتأرجح بين صداقة وعداء بحسب الأحوال والمصالح السياسية والاقتصادية، إلى درجة المصاهرة والاندماج الثقافي والديني. وقد أدت تلك العلاقة غير المتوازنة إلى الثورة والانشقاق بين أسباط اليهود الاثني عشر[67]، فاستقل الأسباط (القبائل) العشر بزعامة سبط أفرايم بالمملكة الشمالية (مملكة إسرائيل)، وتكونت المملكة الجنوبية (مملكة يهوذا) من سبطي يهوذا وبنيامين. ويركّز هذا الفصل على الظروف والملابسات التي ساعدت على انفصال أول مملكة أسسها اليهود في المنطقة وأسباب انهيارها، مما فتح شهية شيشنق الأول للاستيلاء عليها والاستفادة من نفائسها التي صنعها داود وسليمان طيلة ما يقرب من سبعين سنة.

1- مملكة إسرائيل.. البداية والاكتمال:

يقول (أرنولد توينبي): ״**لو كان ثمة أسفار فينيقية أو فلسطينية لكانت اختلفت بشكل درامي عن الأسفار اليهودية**»[68]. وهذا يعني أن تاريخ هذه المنطقة اعتمد كثيرا على ما دوّنه اليهود في أسفارهم، دون وجود ما يؤيدها أو يفنّدها من جانب الفلسطينيين الكنعانيين الذين شاركوهم في صنع أحداث تلك الفترة والفترات التي تلتها.

---

(67) في القرآن الكريم: (وقطّعناهم اثنتي عشرة أسباطا)، لأن (أسباطا) بدل من (اثنتي عشرة)، أي (قطّعناهم فرقا اثنتي عشرة). كما يجوز تذكير وتأنيث (سبط)، فيقال: هذا سبط وهذه سبط. اللسان: مادة سبط.

(68) توينبي: نفس المصدر، ص131.

منذ الألف الثالث قبل الميلاد كانت تعمّر بلاد الشام قبائل العمّوريين (الأموريين) التي لها صلات حضارية وعرقية مع سكّان الشمال الأفريقي منذ العصر الحجري الحديث. ثم بدأت القبائل الكنعانية تفد إلى المكان، فاستوطن العمّوريون شمال فلسطين، واستوطن الفلسطينيون جنوبها الغربي. ومع الألف الثاني قبل الميلاد وفدت قبائل من شرق الخليج العربي أطلقت على نفسها اسم (عابيرو) أو (خابيرو)(69). ثم وفدت -بعد بضعة قرون- مجموعة عبرانية أخرى من مصر بقيادة النبي موسى (عليه السلام). وبعد موته تولّى (يشوعا) قيادة العبرانيين في المكان الذي عُرف في التوراة بأرض الميعاد. ويرى البعض أن تلك الفترة تبدأ بسنة **1250** ق.م. أي بعد بقاء اليهود في مصر مدة 430 سنة منذ أن دخلوها مع يوسف سنة **1680** ق.م.(70). ويؤيد (توينبي) ذلك بالقول أن سوريا نُكبت بانسياح الشعوب نحو **1250 – 950** ق.م.(71). وقد استغلّ يهودُ هذه الفترة تسرّبَ المدنيتين السومرية والمصرية إلى سوريا، حيث لم يتمكن السوريون من قيام مدنية خاصة بهم قرابة ألفي سنة. إلاّ أنهم استطاعوا -في هذه الفترة بالذات- إظهار قدرتهم المحلية على الخلق والإبداع، وقاموا -من بين ما قاموا به- باختراع الحروف الأبجدية التي أصبحت كتابة العالم بأسره باستثناء آسيا الشرقية. فاختلطت حضارتهم بحضارة مصر فيما عُرف بعصر الكتابة السينائية، بينما انتشرت تلك الكتابة في الشرق عن طريق الآراميين وأثّرت في الثقافتين البابلية والآشورية وغيرهما. ومن هنا دخلت سوريا بثقل في أحداث المنطقة، مستمدّة حضارتها من مدنية (أوغاريت) وما أفرزته من عناصر الحضارة الراقية. غير أن الغزاة الإسرائيليين عكرّوا صفو تلك الخطوات الحضارية العملاقة بأنانيتهم المفرطة في التعصّب، خصوصا وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الكنعانية ويستخدمون حروفها، مثلهم -في

---

(69) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص192.

(70) استنتجها من التوراة: رونالد ريدفورد: **مصدر سابق**، ص ص 394 – 395.

(71) توينبي، **مصدر سابق**، ص131.

ذلك- مثل شعوب المنطقة. ولكن الفلسطينيين قاوموا الغزاة بكل ما أوتوا من قوة، ودخلوا معهم في معارك كثيرة ومتتالية.

كانت الغلبة في البداية من نصيب الفلسطينيين المزودّين بالأسلحة الحديدية القوية، وهم متحصّنون في مدنهم الخمس. وكان الوعاء المادي الذي يحتضن قوة (يهوه) إله الإسرائيليين هو صندوق أو (تابوت العهد) ينقلونه من مكان إلى آخر، حتى تمكّن الفلسطينيون من احتجازه وحمله إلى بلادهم، ثم أبعدوه لاعتقادهم بالمصائب التي لحقت بهم جراء وجوده بينهم، حسب زعم اليهود. فما كان من الفلسطينيين إلاّ أن حرّموا على الغزاة الإسرائيليين استخدام الحديد حتى في المجال الزراعي[72]. ولأسباب يطول شرحها نجح الغزاة في احتلال منطقة كبيرة من فلسطين وقسّموها إلى إثني عشر إقليما احتل كل إقليم سبطٌ من أسباط بني إسرائيل الإثني عشر، يرأس كل سبط قاض[73]، فيما عُرف بعهد القضاة. وفي نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد توحّدت تلك الأسباط تحت قيادة الملك (شاؤل) زعيم قبيلة (بنيامين)، الذي سقط صريعا في إحدى المعارك. وانتهى الأمر بالفلسطينيين إلى أن غُلبوا وأجلوا عن الأرض الإسرائيلية على يد النبي داود (عليه السلام) وهو من قبيلة (يهوذا) الذي تمكّن من توحيد جنوب سوريا مؤقتا إلى شمال دمشق والطرف الشمالي لجبال لبنان الشرقية، ووصل إلى أقصى الإمارات التي أقامها المهاجرون الحثّيون في الشمال، فكسب بذلك صداقة ملك صور، كما تغلّب على بقية العبرانيين والأدوميين والمؤابيين والعمونيين[74]. وقد بالغت أسفار اليهود (مثل يشوع والعدد والقضاة، ويهوديت..) في وصف السهولة التي تم بها الاستيلاء السريع على تلك البقاع التي كانت تصعب على الجيوش التقليدية كالمصرية مثلا، مما يثير حولها الشكوك خصوصا في غياب

---

(72) توينبي: **نفس المصدر**، ص136.

(73) موسوعة تاريخنا، **مصدر سابق**، ص193.

(74) توينبي: **مصدر سابق**، نفس الصفحة.

الوثائق الأثرية التي صمتت عن ذكر تلك الفتوحات السريعة زمنيا والواسعة مكانيا(75).

هكذا تأسست أول دولة عبرانية في فلسطين، لم توجد لها شواهد تاريخية في تاريخ سوريا وفلسطين باستثناء التوراة التي ذكرت أحداثها بتحيز وتطرّف. وكان الفلسطينيون الكنعانيون -في كل مرّة- يستنجدون بحكّام مصر، وقد وُجدت رسائلهم الأولى في (تل العمارنة)، حيث خاطبوا الفرعون (إخناتون)(76) طالبين منه العون والنجدة، إلّا أنه كان منشغلًا بتأملاته التوحيدية وثورته الدينية. أما جيرانهم الشرقيون فكان الحثّيون يحولون دون الوصول إليهم. حتى تمكّن الإسرائيليون من إرساء دعائم مملكتهم بزعامة النبي داود (عليه السلام)، الذي حكم أكثر من 40 عاما (من سنة **1004** ق.م إلى سنة **960** ق.م.)(77). ثم ترك بعد وفاته الحكم لابنه النبي سليمان (عليه السلام). فكانت في عهده (القدس) -عاصمةُ اليبوسيين السابقة- عاصمةً ليهوذا، بينما أصبحت (السامرة) عاصمةً لإسرائيل، وهما موحّدتين ضمن مملكة سليمان، بعد أن تمكّن من توسيعها تجاريا وعسكريا. فاتّحد مع (حيرام) ملك صور، الذي ساعده فنيا وتكنولوجيا على بناء هيكل ضخم ليهوه في القدس. وحسب الميثولوجيا الدينية ضم اليمن حضاريا إلى سوريا، وذلك عن طريق زواجه من ملكتها، **فصار البحر الأحمر بحيرة سورية بعدما كان بحيرة مصرية لنحو ألفي سنة**(78). كما حرص سليمان على مصاهرة ملوك وأمراء الممالك من حوله، فإلى جانب زواجه من ملكة سبأ (العربية) تزوج

---

(75) أنظر مثلا ما قاله عنها: ريدفورد: **مصدر سابق**، ص ص 400 – 401. الذي اعتقد أن الدمار الحاصل لتلك المدن لم يكن بسبب الاستيلاء الإسرائيلي، وإنما بسبب التخريب الذي تعرّضت له من قبل شعوب البحر، ولشعوب البحر موضوع آخر تعرضنا له في الفصول الأولى من هذا البحث.

(76) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص193.

(77) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(78) توينبي: **مصدر سابق**، ص137.

إحدى بنات فرعون (المصرية)، كما حاول إقامة علاقات مع الممالك الشرقية (السورية)، واضعاً عينيه على بلاد الشام كلها، خاصة دمشق ولبنان. إلاّ أنه أثقل كاهل شعبه بالضرائب للحصول على الأموال الضرورية لاستكمال مشاريعه العمرانية، مما دعا الإسرائيليين إلى التذمر والثورة، **وقد شاهد بعينيه تزعزع صرح الدولة التي بناها في آخر أيامه**[79]. وبالتالي فقد كانت هذه الإمبراطورية متأخرة حضاريا، وغير مناسبة من حيث موقعها الجغرافي، ولم تتمكّن من الحفاظ على ما احتله داود، مما أدى إلى زوالها بسرعة. فقد ثارت دمشق وآدوم وتحرّرتا في حياة سليمان. وبعد وفاته انشقت قبائل الشمال، فكانت مملكة إسرائيل أقوى من مملكة يهوذا، "**وكل ما تبقى من إمبراطورية داود وسليمان، إضافة إلى أرض قبيلة يهوذا بالذات، هو الجزء الواقع في أقصى الجنوب من أرض قبيلة بنيامين، ومدينة القدس الكنعانية، التي كان داود قد احتلها واتخذها عاصمة لمملكته**»[80]. وبذلك انتهت أول وآخر مملكة إسرائيلية في التاريخ القديم، والتي لم تتجاوز مدتها -في جميع الأحوال- السبعين عاما.

2- الحرب الأهلية وانقسام مملكة إسرائيل ونهايتها:

كانت بوادر الثورة قد ظهرت قبيل وفاة سليمان. فقد شعر الشعب العبراني، وهو شعب يشكو دائما من الظلم والاضطهاد بسبب أنانيته ورفضه التأقلم مع الشعوب الأخرى، بأن الملك سليمان أثقل كاهله بالضرائب المتزايدة، وبدأت القبائل تفكر في الانفصال. وقد أتيحت لها تلك الفرصة على إثر وفاة سليمان مباشرة حوالي **925** ق.م. فاندلعت الحرب الأهلية التي استمرت حوالي 60 سنة. وانقسمت المملكة إلى مملكتين: مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب. والمملكة الشمالية كانت على قدر من الغنى المادي و

---

(79) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص194.

(80) توينبي: **مصدر سابق**، ص136.

السياسي، ولكن حكامها ليسوا مستقرّين نتيجة تغيّر الأسر الحاكمة بصورة مستمرة. أما المملكة الجنوبية -رغم حالة الركود- إلاّ أن أسرة داود ظلت تحكم بشيء من الاستقرار لقرون عديدة حتى العهد الفارسي، حيث تمكّن ملوكها من خلق نظام للحكم دام كل تلك السنوات. ومع مرور الزمن ركّزوا السلطة الدينية في القدس العاصمة، أين يقع المعبد إلى جانب قصر الملك. وخلافا لـ(إيل) الذي كان ملحوظا كمعبود عام في الشمال، كان (يهوه) ملحوظا في الجنوب كمعبود قومي لإسرائيل[81].

وقد اختلف المؤرّخون في طرح أحداث الحرب الأهلية وسنوات وقوعها. فمملكة إسرائيل هي واحدة من الدولتين التي خلّفتهما مملكة إسرائيل القديمة التي وُجدت في ما بين **1030** و**920** ق.م. والتي كانت تضم الأسباط الإثني عشر المعروفة. والمملكة الثانية المولّدة سميت بمملكة يهوذا. ومع ذلك، فكثير من التوراتيين المعتدلين يتساءلون عن أي من المملكتين كانت تشكّل المملكة الموحّدة والتي بقيت ثابتة، ويقّرون بعدم وجود الأدلّة التي تدعم ما كُتب عنها في التوراة، ويدّعون أن الأحداث التي ذُكرت في التوراة على أنها وقعت في القرن العاشر قبل الميلاد، وُجدت -حاليا- أنها وقعت بعد ذلك بقرن من الزمان. ولكن معظمهم يتفق على نقل ما ورد في التوراة دون تصرّف، فكانت المملكتان كما يلي[82]:

أ- مملكة إسرائيل (المملكة الشمالية): مباشرة بعد وفاة سليمان ظهرت نبوة (أهياه Ahijah) [سِفر الملوك الأول 11: 31- 35] مع انقسام المملكة. وجلس رحبعام بن سليمان على العرش عندما ظهرت الأحقاد القديمة التي كانت بين يهوذا والقبائل الأخرى. وفرّ

---

(81) Wikipedia.: **Judea is a term used for the mountainous southern part of the historic Land of Israel**.

قام الباحث بتعريبه.

(82) Wikipedia, **Ibid**.

يربعام (زعيم القبائل الشمالية) إلى مصر، ثم طُرد منها من قبل الساخطين عليه هناك [12: 2- 3]. وكان رحبعام قد رفض تخفيض الضرائب المجحفة، بل جدّد تأدية الواجبات التي فرضها والده على تابعيه [12: 4] فأعادت قبيلة أفرايم وكل الإسرائيليين النداء القديم: (كل شخص في خيمته، آه يا إسرائيل) [سِفر صمويل الثاني 20: 1]. ففرّ رحبعام من القدس [سِفر الملوك 12: 1- 18، وسِفر الأخبار 10]. وفي عام **920-930** ق.م. أعلن يربعام نفسه ملكا لكل إسرائيل، وقبيلتا يهوذا وبنيامين بقيتا على عقيدتهما في رحبعام. واستمرت الحرب سجالا بين المملكتين لحوالي 60 سنة كما ذُكر.

ب- مملكة يهوذا (المملكة الجنوبية): إن ظهور مملكة يهوذا -حسب التوراة- كان عقب موت الملك شاؤل، عندما قامت قبيلة يهوذا بترقية الملك داود حاكما عليها. أما المنطقة المسماة بـ(حار يهودا Har Yehudah) فكانت عبارة عن جبل (أو مقاطعة) سسكنها في الأصل بعض القبائل الكنعانية المحلية (Kenites, Othnielites and Cale-bites)، كما كان (اليبوسيون Jebusites) يسكنون القدس. أما يهوذا فهي إحدى القبائل الإثني عشر التي اتبعت البيت الداوودي لإيجاد المملكة الجنوبية. ثم التحقت بها قبيلة بنيامين، وحسب [سِفر يشوع 18: 28] فقد كانت القدس عاصمة المملكة الجديدة. أما القبائل العشر الأخرى فرفضت حكم رحبعام ابن سليمان وتركت مملكة يهوذا لحكم أسرة داود.

ج- نهاية المملكتين: سقطت المملكة الشمالية بيد الآشوريين سنة **720** ق.م. أما المملكة الجنوبية فسلمت من السقوط مدة 350 سنة، إلى أن غزاها (نبوخذنصر) الإمبراطور البابلي سنة **586** ق.م. الذي حطّم أول معبد لليهود في القدس وسبا سكانها إلى بابل. وظلوا هناك حتى سمح (قورش) ملك الفرس لمن أراد منهم العودة إلى القدس، فعاد بعضهم إليها، وجدّدوا بناء الهيكل في القرن الخامس قبل الميلاد[83].

---

(83) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص391.

رابعاً: حملة شيشنق الأول على فلسطين وتأسيس إمبراطوريته:

اختلف العلماء حول الحملة التي شنّها شيشنق الأول على فلسطين، كاختلافهم حول شخصيته. وقد أتى الفصل الثالث على تلك الاختلافات بصورة عامة. ويركّز هذا الفصل بالخصوص على تلك الحملة وعلى ما توصل إليه كثير من العلماء من اقتناع تام بحصولها تاريخيا حتى وإن اختلفوا في من قام بها، أو ربما كان الإجماع على أن شيشنق الأول كان بطلها مع اختلاف في اسمه وزمن قيامه بها والممرات التي سلكها والمدن التي احتلها والنتائج التي حصل عليها..

لقد اعتمد المؤرخون الغربيون -في تاريخ هذه الحملة- على أسفار اليهود التي يسمّيها المسيحيون (العهد القديم)، والتي يُعتقد أن بداية تدوينها كانت في القرن العاشر قبل الميلاد، أي في الفترة السابقة واللاحقة لزمن شيشنق الأول وحملته على فلسطين. ويرى كثير من العلماء أن تلك الأسفار الظرفية والشاملة نسبياً تُعد مصدرا لا غنى عنه رغم أنه «**يؤدي إلى الضلال لو أنه قُبل على علاّته**»[84]. فقد دامت كتابتها قرونا طويلة وعدّلت متونها مرّة بعد المرّة لتتفق مع أغراض أصحابها. وأخيرا ظهرت دلالات مستقلّة عن أسفار اليهود تمثلت في علم الآثار، ورغم قلّة هذه الدلالات إلاّ أنها آخذة في التزايد، فكلما ظهر شيء منها كلما اتسعت شقة الخلافات وتعددت النظريات حول شيشنق الأول وحملته المشهورة ضد مملكتي إسرائيل ويهوذا. وهذا -بدوره- أثّر تأثيرا واضحا في تاريخ تلك الفترة التي حيّرت المؤرخين سواء أكانوا من مؤيدي العلوم التوراتية التي تعتمد على ميثولوجيا العهد القديم، أو من مؤيدي علوم الآثار التي تعتمد على النقوش ومخلفات تلك الفترة، أو من مؤيدي فكرة المطابقة بين التوراة وعلم الآثار. أدى ذلك إلى ظهور مدرستين متعاكستين متضادتين: (الكرونولوجيا التقليدية) و(الكرونولوجيا الحديثة). ورغم تعاكس وتضاد تلكما المدرستين إلاّ أن مؤيديهما يحاولون دائما

---

(84) توينبي: **مصدر سابق**، ص130

-باجتهاد واضح- التوفيق بين التوراة وعلم الآثار والإصرار على تمحيص الأخبار الواردة في المصدرين. وفي خضم تلك الاجتهادات ومحاولات التوفيق، برزت مشكلة تاريخية عويصة تمثلت في استحداث هوّة عميقة بين التوراة وعلم الآثار تزيد مدتها عن ثلاثة قرون عُرفت لدى علماء المصريات بعصور الظلام (Dark Ages) التي ذُكر جزءٌ من تفاصيلها آنفا. ويستكمل هذا الفصل بقية التفاصيل المتعلقة بحملة شيشنق الأول على فلسطين، تلك الحملة الواقعة أحداثها في صميم الفترة التي اصطلح على تسميتها بعصور الظلام.

1- دوافع الحملة ونتائجها:

لم تكن حملة شيشنق الأول المدججة بالعربات والفرسان والمشاة، مجرّد نزهة في ربوع الشام. وإنما كانت لها أهداف إستراتيجية لا تخلو من الإعداد المسبق والترتيب المنظم. وقد تنوعت تلك الأهداف بحسب تنوع رؤى العلماء المعاصرين وقدرتهم على تحليل النصوص والنقوش الخاصة بها، استخلصنا منها ما يلي:

أ- الدافع السياسي: كان الملك سليمان (عليه السلام)[85] على علاقة طيبة مع فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين. غير أن تلك العلاقة بدأ يشوبها شيء من الفتور في السنوات الأخيرة من حكمه. في تلك الأثناء تولى شيشنق الأول عرش مصر وأسس الأسرة الثانية والعشرين الليبية[86]. ومنذ بداية حكمه رأى أن العلاقة مع إسرائيل لا فائدة منها، بل أنها كانت سياسة خاسرة. وذلك بسبب الأوضاع التي فرضها الملك سليمان على تابعيه، فثاروا عليه. مما أتاح الفرصة أمام شيشنق الأول لتغيير سياسته تجاه إسرائيل، مستغلا -في ذلك- الصراع

(85) حكم بين سنتي 960 و 930 ق.م.

(86) حكم بين سنتي 945 و 924 ق.م.

على السلطة هناك، وثورة يربعام الأول (Jeroboam I) وإعلان أحقيته في حكم المملكتين الشمالية والجنوبية بحجة أنه من نسل إبراهيم (عليه السلام). فهدده سليمان بالموت. ولكن يربعام أصرّ على تمسكه بسدة الحكم مدّعيا **أن أحد أنبياء إسرائيل واسمه أخيا الشليوني قد نقل إليه وعدا من الرب بتولي الملك في إسرائيل، بعد أن كفر نسل داود وفسدوا وتركوا عبادة الرب وسجدوا للآلهة الوثنية الفينيقية والسورية..**[87]. فما كان من شيشنق الأول إلّا أن استدعاه إلى مصر، فسافر إليها كلاجئ سياسي، ومكث بها حتى بعد وفاة سليمان. وهذا يعني أن العداء بدأ يستفحل بين شيشنق الأول والملك سليمان ومملكته التي لا تزال موّحدة، والدليل على ذلك هروب يربعام إلى مصر، الذي استغله شيشنق الأول، واستخدمه كورقة ضغط لصالح مناوراته السياسية الرامية لتغيير الأوضاع القائمة على حدود مملكته الفتية.

ب- الدافع العسكري: أما الجوانب الأخرى فقد تتمثل إحداها في النواحي الاستراتيجية العسكرية وتأمين الحدود وفتح الممرات والتوسع على حساب الممالك التي تبدو ضعيفة. وكان اهتمام فراعنة مصر بما يجري على حدودهم متأصلا فيهم كقادة عسكريين عتاة. وهم ملوك عُرف عنهم قوة الشكيمة والقدرة على البطش، خصوصا في فترات طغيانهم واتساع سيطرتهم. إلاّ أنه في فترة ما بعد الأسرة الحديثة تراجعت قوتهم وفقدوا كثيرا من مستعمراتهم، خاصة في الشام، الشيء الذي أتاح الفرصة الوحيدة أمام بني إسرائيل لتأسيس مملكتهم الموّحدة. غير أن ذلك لم يستمر طويلا، ففي الفترة التي تولى فيها شيشنق الأول عرش مصر، تشتت قوة الإسرائيليين في فلسطين، وانقسمت مملكتهم وتفرق شمل أسباطهم، ففكر شيشنق الأول في تسديد الضربة التي كان سابقوه يتحينون فرصة تسديدها على مدى العقود الماضية. وما كان منه إلاّ أن سار سيرة أسلافه وقاد حملة عسكرية -أصبحت معتادة- نحو فلسطين. وقد جاءت هذه الحملة عقب انهيار مملكة إسرائيل وانقسامها عقب وفاة الملك سليمان،

---

(87) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص194.

فاغتنم شيشنق الأول فرصة الوهن الذي أصاب الإسرائيليين وانقض على معاقلهم يدمرها الواحد تلوى الآخر.

ج- الدافع الاقتصادي: رغم اعتراض البعض عن الدافع الاقتصادي وراء تلك الحملة، بحجة أن اليهود بالغوا في مسألة السلب الذي تعرضت له بيت المقدس من قبل شيشنق الأول (شيشق التوراتي)، إلاّ أن واقع الحال الذي ساد في مصر على عهد آخر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين يشير إلى وضع اقتصادي مترد، حيث تعددت الزعامات وانقسم الحكم إلى سلطتين: مدنية في تانيس ودينية في طيبة، مما دعا شيشنق الأول -منذ توليه الحكم- إلى أن **نظم شؤونه في مصر وأصلح الأحوال لإرضاء الناس ورفع الظلم عنهم، وانتهى من تصفية معاقل الكهنة وإعداد الجيوش..**[88]. وهذا يعني -إجمالا- اهتمام شيشنق الأول بإصلاحات اقتصادية، بعدما كان الكهنة يسيطرون على معظم ثروات مصر ويحرمون رعاياهم منها، بل ويحرمون منها الملوك أيضا. علاوة على أن الأسلاب لم تكن عيبا من عيوب ملوك ذاك الزمان، بل كانت من شيم تلك الحروب والغزوات، ولعلها باقية إلى الآن مع استبدال الكنوز والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة بالثروات الطبيعية الأخرى والتي على رأسها النفط (الذهب الأسود). ويسجل مؤرخو التاريخ المصري أن مصر عاشت قرنين من الزمان على الغنائم التي حملها شيشنق من فلسطين، وربما تمت الاستعانة أيضا بالجزية التي فرضها شيشنق الأول وخلفاؤه على المدن الفلسطينية، ولا أدل على ذلك من العمائر التي أقامها ملوك الأسرة الثانية والعشرين[89]. ولكن رغم كل ذلك تبقى مسألة الأسلاب من بين المبالغات التي تعمّد اليهود تدوينها في أسفارهم، فقد اعتبروا فلسطين أرضا بلا شعب أهداها الرب لشعب بلا

(88) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر الأخير**، ص195.

(89) نبيل ، رضوى: **القدس بعد عهد العبرانيين والعصر الروماني**، ص2 (مقال منشور بمجلة al- Qudsonline الألكترونية).

أرض. بذلك رأوا في حملة شيشنق **أنها نهب لخزائن الرب**[90].

د- الدافع العاطفي: قد يكون هذا الجانب مكملا للجوانب السياسية والعسكرية. ولكن العلماء اختلفوا فيه أيضا. فقد يرى البعض أن شيشنق الأول جاء إلى فلسطين لمساعدة صديقه (يربعام) الثائر ضد سليمان الملك. ويرى البعض الآخر أنه جاءها لمساعدة الكنعانيين المتضررين من سيطرة اليهود عليهم. وقد اختلف المؤرخون في مسألة (يربعام)، فإلى جانب كونه صديقا لشيشنق الأول، وأنه جاء لتمكينه من العرش الذي سعى إليه منذ نهاية عهد سليمان، إلاّ أن البعض يرى في تلك الحملة تأديباً له لأنه تحول إلى تابع متمرّد, **ولكن هناك بعض المعلومات تفيد أن يربعام كان تابعا لمصر ولا يوجد أي دليل على تمرّده**[91]. وهذا يصب في مصلحة الرأي الآخر القائل بمساعدة الفلسطينيين ضد اليهود. ويشير هذا الرأي إلى هروب (هدد) أمير آدوم إلى بلاط الفرعون ومعه حاشيته لينجو من المذبحة التي أوقعها فيهم القائد اليهودي (يواب). وقد استقبلت مصر اللاجئين الفلسطينيين الأوائل، بل ويقال أن الأمير الفلسطيني تزوج من شقيقة ملكة مصر وكان اسمها (تاشبنس)، ويرجح العلماء أن الفرعون الذي استقبل (هدد) كان (بسوسنس الثاني) الذي تولى شيشنق الأول الحكم بعده[92]. وهذا يثير جدلا حول من فرّ إلى مصر، هل هو الكنعاني (هدد) في عهد بسوسنس الثاني؟ أو يربعام الإسرائيلي في عهد شيشنق الأول؟ كما يثير الجدل حول من تزوج من بنات الأسرة الحاكمة في مصر، هل هو الملك سليمان أو الأمير هدد؟. إلاّ أن ذكر لجوء الفلسطينيين إلى مصر وطلب المساعدة من ملوكها، يشير إلى أن سكّان فلسطين الحقيقيين كانوا يعانون من هيمنة بني

---

(90) موسوعة تاريخنا: مصدر سابق، ص ص 195 –196.

(91) Wilson, Keven: The campaign of pharaoh Shoshenq I in Palestine, Bible interp. p.2

(92) موسوعة تاريخنا: مصدر سابق، ص ص 193 –194.

إسرائيل منذ مقتل ملكهم جالوت على يد داود عليه السلام، فغادر بعضهم فلسطين، بينما بقيت الأغلبية تنتظر ساعة الخلاص، إلى أن استجاب شيشنق الأول لنداءاتهم المتكرّرة، والتي كان بسوسنس الثاني غير قادر على تلبيتها بسبب رداءة وضع البلاد على أيامه.

غير أن الأستاذ بريستد (Breasted) يضيف تعقيدا آخر في مسألة الهدف الذي قصده شيشنق الأول من الحملة، فاستخرج نصا منقوشا على جدارية النصر التي صنعها شيشنق وترجمها من المصرية القديمة إلى الإنكليزية على لسان شيشنق الأول مخاطبا الإله آمون، قائلاً له: "**لقد دست عليهم جميعا من أجلك، هم الذين تمرّدوا عليك وثاروا ضدك: الجيش الآسيوي الميتاني، لقد قهرتهم ووضعتهم تحت قدميك**»[93]. وهذا يعني أن الحملة لم تكن موجّهة لمساعدة أحد، وإنما لمحاربة الميتانيين الذين يعتبرون أيضا غرباء عن المنطقة والطامعين كغيرهم من الأجانب في ثرواتها. ولكن ميتاني متقدّمة زمانيا عن فترة شيشنق الأول، حيث سقطت مملكتهم حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد ووقعت تحت احتلال الآشوريين وذابت في إمبراطوريتهم[94]. وقد اشتهر الميتانيون بصداقتهم لملوك مصر وكثرة التزاوج معهم لكسب ودّهم، مثل ما حصل في عهد (أمنحتب الثالث) و(أمنحتب الرابع) اللذان تزوجا من أقرباء الملك الميتاني (توشرنا)[95]. ومن جانب آخر نرى أن المدن التي سجل أسماءها شيشنق الأول على جداريته كلها مدن فلسطينية كانت ضمن مملكة سليمان. ومن هنا يصير الهدف من حملة شيشنق الأول غامضا ومحيّرا إلى أن تكشف عنه وثائق الأيام القادمة. إلاّ أن هناك حقيقة تاريخية تقول أن الحوريين وحلفاءهم الميتانيين كانت لهم مستعمرات في الشام زمن قوتهم،

---

(93) أخذ من كتاب (Ancient records of Egypt, part IV) للمؤرخ (James Henry Breasted) ورد بمقال على صفحات موقع: (Reshafim) قام الباحث بتعريبه.

(94) عبّودي: مصدر سابق، ص 825.

(95) عبّودي: نفس المصدر الأخير، ص 286.

وذلك قبل أن يتمكن الكنعانيون من السيطرة عليهم زمن ازدهار عاصمتهم أوغاريت[96]، فلم يبق لهم وجود هناك باستثناء بعض المستعمرات الصغيرة في الشمال. ويرى البعض أن شيشنق الأول وصل -في حملته تلك- إلى شمال سوريا، وربما كانت له حرب مع من بقي من الميتانيين هناك، وربما تعاطف الميتانيون مع اليهود وانضموا إليهم ضد عدوهم المشترك. ومن ناحية أخرى فإن الشعوب التي كانت تعيش شرقي النيل كان المصريون ينظرون إليهم على أنهم شعوب آسيوية بما فيهم اليهود، لذا ورد في النقش كلمة (الجيش الآسيوي).

وفي حالة فساد هذا الرأي، فإننا نرى أن النص الوارد في هذا النقش قد يعود إلى زمن رمسيس الثاني، وهو من بقايا النقش الذي لم يستطع شيشنق طمسه بواسطة نقشه الجديد الذي تعمّد تدوينه على نفس الحجر الذي دوّن عليه رمسيس الثاني انتصاراته على الليبيين، وذلك من باب النكاية به والانتقام لضحايا الليبيين الذين حاربهم رمسيس الثاني قبل انسياحهم السلمي نحو النيل، كما سبق الحديث.

هـ- نتائج الحملة: حققت حملة شيشنق الأول ضد الإسرائيليين نتائج باهرة استفادت من بعضها مصر في حينها، وبعضها الآخر لم يكن في حسبان شيشنق نفسه. فقد غيّرت تلك الحملة مجريات الأحداث في المنطقة، بل بقيت آثارها ماثلة أمام أعين اليهود حتى العصر الحديث. ومن أهم تلك النتائج ما يلي[97]:

*- أحسن شيشنق الأول استخدام الأموال والغنائم التي جلبها من فلسطين في مشروعاته العمرانية، فعاد البنّاءون والمهندسون إلى العمل، ودبّت الحياة من جديد في المحاجر بعد عصر طويل من الخمول، ففُتحت أبواب العمل وقُضي على البطالة والركود الاقتصادي.

---

(96) زودن: **مصدر سابق**، ص ص 28 -29.

(97) ذكرتها مصادر مختلفة، أهمها: نبيل: **مصدر سابق**، نفس الصفحة. وموسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص196.

*- ربما أراد شيشنق الأول إنهاء معاهدة الصلح المهينة التي أبرمها سلفه مع مملكة إسرائيل التي تعاظمت قوتها خلال حكم أسرة داود، فكانت جميع شروطها على حساب مصر.

*- لأول مرّة -منذ أيام الأسرة الثامنة عشر- قدّم الأمراء الفينيقيون هداياهم لمصر، ووضعوا في معابدها القرابين من لوحات وتماثيل باسم شيشنق العظيم. وظلت هذه العلاقة قائمة حتى بعد رحيل شيشنق الأول عن مسرح الأحداث.

*- أعاد شيشنق الأول هيبة مصر في المنطقة بعد أن تضاءلت في عصر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين، حتى تسابق الولاة من كل حدب وصوب -خصوص من فينيقيا- إلى كسب رضى الفرعون الجديد، وكانت تربطهم مع مصر روابط ذات أهمية استراتيجية.

*- سهولة الوصول إلى جبال فينيقيا موطن أخشاب الأرز الجيدة، التي تصنع منها السفن التجارية والحربية. وربما كان ذلك من بين الأغراض الكامنة وراء إصرار شيشنق على تأمين الطريق إلى الشام.

*- وبهذا التوسع الجغرافي، تمكّن شيشنق من تأسيس إمبراطوريته التي امتدت من شرق ليبيا (الحالية) غربا إلى بلاد الشام شرقا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى بلاد النوبة والسودان (الحالية) جنوبا، وكانت عاصمتها (بوباستيس) شرقي الدلتا.

*- ومن أخطر النتائج التي لم تكن في مخطط شيشنق الأول قبل شن حملته تلك، أنه أنهى خطر الاحتلال الإسرائيلي للمنطقة، وأعاد تاريخها إلى مجراه الصحيح، فلم تقم لليهود قائمة منذ حملة شيشنق الأول وحتى منتصف القرن الماضي. فقد تعرضوا -بعد زمن ليس ببعيد من تلك الحملة- للتهجير من قبل (نبوخد نصر) الكلدي، ودُمّر الهيكل للمرّة الثانية من قبل الرومان، وتشتتوا في جميع أنحاء العالم، وتعرّضوا للاضطهاد والإبادة في أوروبا، ولم يجدوا لهم سندا غير أحفاد الكنعانيين من العرب في بلاد الشرق وفي الجزيرة العربية وفي الأندلس. غير أنهم

استغلوا فرصة وقوع بلاد العرب تحت الهيمنة والوصاية الغربية، فتمكّنوا -بمساعدة بريطانية- من الحصول على موطأ قدم لهم في البلاد الفلسطينية سنة 1948، ولا زالوا يحلمون بإعادة بناء مملكة إسرائيل التي دمّرها شيشنق الأول منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة.

2- تاريخ وقوع الحملة:

حسب تصنيف (الكرونولوجيا التقليدية) التي يؤيدها (كينث كتشن) ومناصروه، فإن فترة الحكم الليبي في مصر إجمالا تقع ضمن الفترة الوسطى الثالثة، أي بين سنتي **1070** و**715** ق.م. ويتفق علماء هذه المدرسة على أن حكم شيشنق الأول، مؤسس الأسرة الثانية والعشرين الليبية، يقع بين سنتي **945** و**924** ق.م. وأن حملته على فلسطين كانت في سنته الواحدة العشرين، أي بعد وفاة سليمان (عليه السلام) بخمس سنوات، ويتفق الجميع على أن سنة وفاة الملك سليمان كانت **930** ق.م. وأن سنة الحملة كانت **925** أو **926** ق.م.، لأن البعض يرى أن شيشنق الأول توفي بعد إنجاز حملته تلك بسنة واحدة.

غير أن مدرسة (الكرونولوجيا الحديثة) التي يؤيدها (ديفد روهل) ومناصروه ترى أن تلك التواريخ غير صحيحة[98]. إذ يرى روهل أن فراعنةً من الأسرة الواحدة والعشرين الذين حكموا طيلة 124 سنة كانوا معاصرين لفراعنة الأسرة الثانية والعشرين، فرحّل بذلك حوالي 250 سنة من بداية حكم الأسرة الواحدة والعشرين، بينما قصّر زمن الأسرة الثالثة والعشرين. و كانت النتيجة أنه زحزح إلى الأمام حوالي 350 سنة من زمن حكم الأسرة التاسعة عشر. وبقدر ما شكّلت هذه النتيجة حلولا جزئية لبعض المشاكل التاريخية التي تعاني منها تلك الفترة، إلاّ أنها تقود -أيضا- إلى مشاكل مستعصية يصعب حلّها، وهي تتعلّق بتاريخ إسرائيل والأخبار التوراتية. وبحسب هذه النتيجة، فإن الفرعون المعاصر للملك سليمان يكون (رمسيس

(98) J.G. van der Land, Op. Cit. p.1.

الثاني)، وهو الذي قاد عدة حملات على إسرائيل واحتل عدة مدن من مدنها، وليس شيشنق الذي ورد في التوراة. وفي هذه الحالة، فإن روهل زحزح فترة العصر البرونزي إلى الأمام 350 سنة لتنتهي في حوالي سنة **850** ق.م. ويكون الفلسطينيون قد استقرّوا في عسقلان (Ashkelon) وأشدود (Ashdod) فقط بعد العصر البرونزي المتأخر[99]. وهذا التصنيف التاريخي الجديد المقترح يضع هذا الحدث في حوالي قرن بعد عهد سليمان، بينما واقع المدينتين يؤكد أنهما كانتا آهلتين بالسكان منذ قرون قبل عهد سليمان.

ونعتقد أن المذهب الذي ذهب إليه روهل فيما يتعلق بمسألة معاصرة فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين مع فراعنة الأسرة الثانية والعشرين، جاعلا بذلك هوة تاريخية تصل إلى 350 سنة، نعتقد أنه كان يهدف إلى دمج زمن الحكم الذي ساد في تلك الفترة والذي كان منقسما إلى سلطتين: دينية في طيبة وزمنية في تانيس، في زمن واحد يضم الأسرتين الواحدة والعشرين والثانية والعشرين، لاغيا بذلك زمن سلطة الكهنة في طيبة التي استمرت من سنة **1074** ق.م. إلى أن قضى عليها شيشنق الأول بإعلان الوحدة سنة **945** ق.م. تلك هي الفترة الذي مثّلها روهل بمدة حكم الأسرة الواحدة والعشرين وجعلها معاصرة لحكم الأسرة الثانية والعشرين. فلم يضف غير تعقيد آخر للفترة التي تعاني أصلا من مشاكل تاريخية، وهذا ما رفضه المؤرخون والعلماء المتمكنون من دراسة تلك الفترة دراسة معمّقة وعلى رأسهم جميعا (كينث كتشن).

---

(99) J.G. van der Land: **Ibid**. p.2

3- طريق الحملة والمدن التي وصلتها:

اتجه شيشنق الأول -بداية- نحو البحيرات المرّة (Bitter Lakes) في مواجهة البدو (Bedouins) هناك، ثم اتجه إلى يهوذا مارًا بغزة (Gaza)، وتوغّل مسافات طويلة في النقب (Negev)، حيث احتل المدن الرئيسية قبل الوصول إلى أسوار القدس. وبعد الإطاحة بمملكة يهوذا، التفت شيشنق الأول إلى مملكة إسرائيل للضغط على يربعام -الذي كان قد التجأ إليه أثناء ثورته على الملك سليمان- وجعله يفرّ إلى نهر الأردن (Jordan River)، إلى أن وقع في قبضة دورية مصرية هناك. وأخيرا توقّف شيشنق الأول في مجدّو (Megiddo) التي أحرز فيها نصراً باهراً. ثم عاد في اتجاه الجنوب عبر جبل الكرمل (Mount Carmel)، ثم اتجه -في طريق عودته إلى مصر- عبر عسقلان (Ashkelon) وغزة (Gaza)[100].



تمثل اللوحة خطوط سير شيشنق الأول أثناء حملته على مملكتي إسرائيل ويهوذا والعودة إلى مصر (عن Reshafim).

---

(100) Jimmy Dunn: **Op. Cit**. p.1

لقد تمكّن الأستاذ بريستد (James H. Breasted)[101] من التعرّف على بعض المدن التي استطاع قراءتها، ووجد أنها ليست مرتّبة بحسب خط السير ومواقع تلك المدن وقربها وبعدها عن بعضها البعض. فقد وردت تلك القائمة التي تضم قرابة 150 مدينة بطريقة عشوائية، فكانت بدايتها مرتّبة كالتالي:

1-(شونيم Shunem)، 2-(هفراييم Hafaraim)، 3-(سوكوه Sokoh)، 4-(بيت هورون Beth Horon)، 5-(أرونا Aruna)، 6-(ريحوب Rehob)، 7-(جبعون Gibeon)، 8-(مخانعيم Machanaim)، 9-(عجلون Ajalon)، ثم وردت (مجدّو Megiddo) و(يد-ها-ملك Yad-ha-malek) و(بيت شان Beth Shan) و(بيت إيل Beth El) و(أراد Arad).. وغيرها. ويتضح من خلال هذا الترتيب العشوائي أن ذكر المدن المحتلّة لم تأت متسلسلة تسلسلا جغرافيا منطقيا، إذ أنها لم تبدأ بغزة[102] وهي أول مكان دخلته الحملة، ولم تنته بمجدّو[103] آخر مكان توقفت عنده الحملة. أما التوراة فلم تذكرها بصورة جماعية مثلما فعلت نقوش النصر بالكرنك، لذا قام أحدهم بتتبع الأحداث التاريخية الهامة التي حصلت في ما أسماه أتباع الديانتين -اليهودية والمسيحية- بالعالم التوراتي أو العالم الإنجيلي (Biblical World) أو (Bible Lands) في فلسطين وعموم الشام، واستخرج من التوراة قائمة تحتوي على 140 مدينة، مستفيدا -في ذلك- بقوائم فراعنة مصر،

---

(101) وذلك في كتابه عن تاريخ مصر القديم (Reshafim: **Op. Cit**.)

(102) **غزّة**: إحدى المدن الفلسطينية الخمس، وهي مدينة قديمة جدا، ذكر سفر التكوين أنها تقع على حدود بلاد كنعان وجعلها سابقة لإبراهيم الخليل، ويقال أن شمشوم مات بها.. أنظر: عبّودي: **مصدر سابق**، ص634.

(103) **مجدّو**: حصن في سهل يزرعبيل على بعد 33 كلم جنوبي حيفا، إسمه الحالي (تل المتسلم).. أنظر: عبّودي: **نفس المصدر**، ص774.

لاسيما قائمة شيشنق الأول بالكرنك. ووصف تلك الأماكن بالشرائح المصوّرة، ذاكرا أسماءها في صيغها القديمة والحديثة لاسيما العربية منها(104).

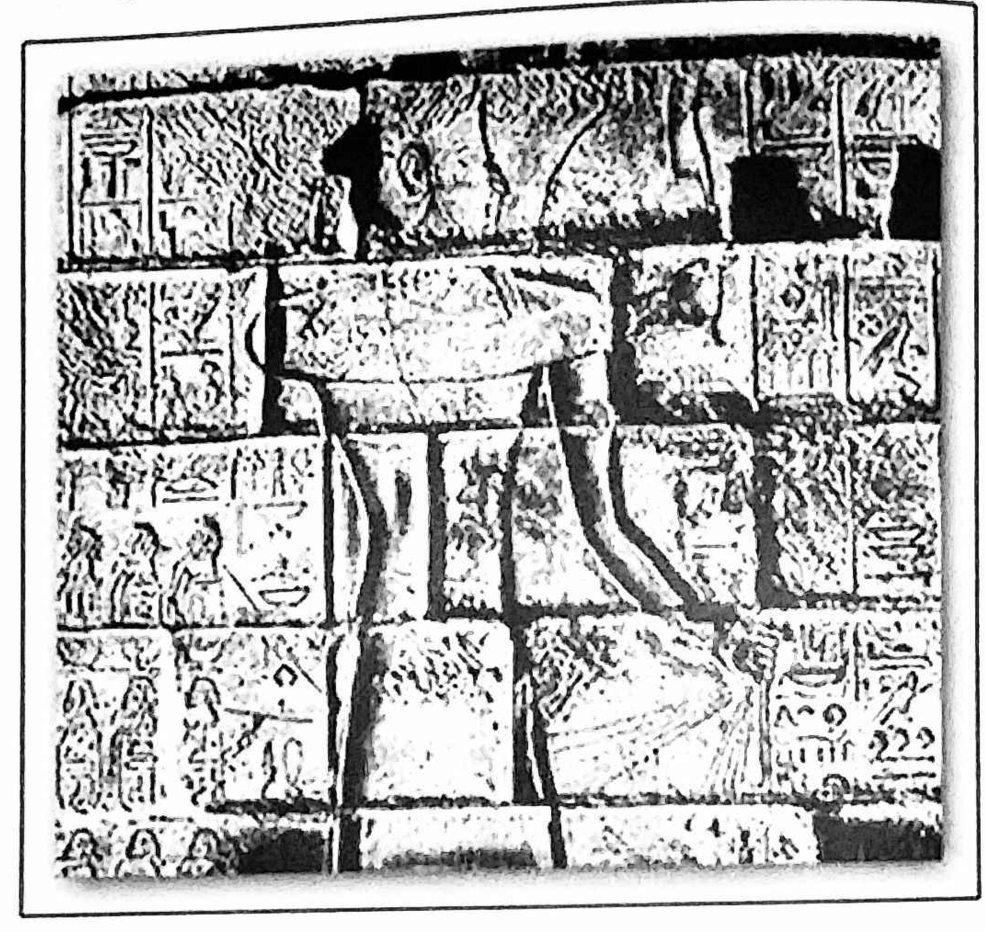
وصفت قائمة الكرنك تلك المدن على أساس أنها أسرى، لكل أسير منهم خرطوشة على جسمه كُتب فيها اسم المدينة التي ينتمي إليها. وكان عدد المدن حوالي 150. لم تُذكر القدس من بينها، مما دعا المؤرخين للاعتقاد أن شيشنق تجنّب احتلال القدس. ويرون أن شيشنق قبل الجزية من رحبعام تمثلت في كنوز المعبد والهيكل، مقابل التخلّي عن احتلال القدس. ولعلّ الخبر الوارد في الإصحاح الثاني عشر من سِفر الأخبار الثاني -سالف الذكر- يؤكد ذلك. أو لعلّه وصل إلى أسوارها، أو ربما دخلها، واكتفى بقبول الجزية سلميا وتجنّب تدميرها كما حصل مع المدن الأخرى. ولكن شيشنق -في جميع الأحوال- وصل إلى منطقة القدس التي من ضمنها مدن قريبة من المدينة المقدّسة، مثل (عيلون Ayalon) و(بيت حرون Beth-Horon) و(جبعون Gibeon)(105) وهي مدن مقروءة الأسماء بوضوح، باستثناء القدس التي قد تكون من بين أسماء المدن المطموسة أو المخفية وراء شخصية شيشنق وإلهه آمون، أو أنها لم تُذكر أصلا على اعتبار أنها أعفيت من الاحتلال العسكري ولم يلحق بها الدّمار كغيرها. ومما يزيد في شك المؤرخين حول وجود القدس من عدمه ضمن القائمة، عدم التزام الكاتب بالترتيب الجغرافي لقائمة المدن، كما سبق الذكر. وقد يرى البعض أن التوراة ركّزت على القدس عاصمة مملكة يهوذا الجنوبية كهدف رئيسي للحملة، ولم تذكر شيئا عن مملكة إسرائيل الشمالية، وبرّروا ذلك بأن سِفر الملوك يخص فقط يهوذا، رغم أنه يتضمن أخبارا

---

(104) Kent, Charles Foster: **One Hundred and Forty Places in Bible Lands**, Underwood and Underwood, New York, August 21, 1900.

(105) J.G. van der Land: **Op. Cit**. p.5.

عن مملكة إسرائيل وحكم ملكها يربعام[106]، ولكن خارج نطاق الحديث عن الحملة. وخلاصة القول أن شيشنق الأول لم يقم بتدمير الهيكل والمعبد، تاركا تلك المهمة إلى الكلدي (نبوخد نصر الثاني) ملك بابل في العام **587** ق.م. الذي هجّر العبرانيين إلى بابل[107].



يمثل النقش الفرعون شيشنق الأول وهو يستعرض أسرى الحملة أمام الإله آمون (جدارية النصر بالكرنك).

(106) Kevin A. Wilson: **Op. Cit**. p.2

(107) زودن: **مصدر سابق**، ص70. وعبّودي: **مصدر سابق**، ص ص 468 – 841.

4- إمبراطورية شيشنق الأول الأفرو/آسيوية:

بالغ اليهود في مساحة مملكة سليمان (عليه السلام). فجاء في سِفر الملوك الأول أن تلك المملكة امتدت من النهر (نهر الأردن) إلى الحدود المصرية (آنذاك) مرورا بأرض الفلسطينيين (الضفة الغربية للنهر)، أي ما بين (تفساح Tiphsah) و (غزة Gaza)[108]. وهي مساحة قليلة مقارنة بالمساحة التي ذُكرت لمملكة داود عليه السلام (**1000 – 961** ق.م.) والتي أوصلوها إلى الفرات الأوسط مرورا بدمشق وجبال لبنان الشرقية وفلسطين إلى صحراء سيناء بكاملها. ولعلّهم أرادوا بذلك ضم كل المنطقة الممتدة بين (بابل التي هُجّروا إليها على عهد نبوخد نصر)، و(سيناء التي تاهوا فيها على عهد موسى عليه السلام) إلى الدولة التي لا زالوا يحلمون بتحقيقها: (من النهر إلى النهر). كما قيل أنها ضمت أيضا الممالك الثلاث: سادوم وعامورا ومؤاب، الواقعة جنوب البحر الميت، وهي ممالك يعود أصلها -بعضها أو كلها- إلى أبناء إسحاق (عليه السلام)، أما مؤاب فيقال أنها تعود إلى نسل لوط (عليه السلام) من بناته. بينما تعود مملكتي يهوذا وإسرائيل إلى يعقوب (عليه السلام). ويرى آخرون أن سكان تلك الممالك الثلاث كانوا من الكنعانيين السابقين لليهود، أي منذ ما قبل مجيء إبراهيم الخليل وابن أخيه لوط (عليهما السلام) قادمين من مدينة أور بجنوب العراق.

اهتم الملك سليمان بتشييد معابد الربّ والقصور الخاصة به وبزوجاته الأجنبيات، كما اهتم بإقامة الحصون والأسوار الضخمة حول المدن المهمة مثل القدس وغيزر ومجدّو وغيرها، بمساعدة أصدقائه الفينيقيين. ويبدو أنه كافأ صديقه (حيرام) ملك صور الفينيقية، بأن سلّم له

---

(108) Franklin, Stephen E.: **Alignment of Hebrew, Egyptian and Assyrian Chronologies**, the Origin and Solution of the Problem ?, p.11 (chapter one: Solomon and Shoshenq).
قام الباحث بتعريبه.

عشرين مدينة في أرض الجليل (حسب سِفر الملوك الأول)[109].

بقيت جغرافية مملكتي يهوذا وإسرائيل غير محددة الملامح من قبل كتّاب العهد القديم، إلى أن شن شيشنق الأول حملته على فلسطين، ومن خلال لوحة النصر التي صنعها في الكرنك، نجد أن تلك الملامح بدأت تتضح بشيء من التفصيل. فقد تقودنا قائمة المدن التي وصلها شيشنق الأول إلى معرفة الرقعة الجغرافية التي كانت عليها المملكتان. وبذلك تكون النقوش والآثار قد غطّت النقص الذي اعترى الأخبار التوراتية. ولعلّ علم الآثار يكون أكثر مصداقية من كتّاب العهد القديم، خصوصا إذا أُحسن استخدام الكربون المشع 14 في تحديد زمن المواد وبقايا البناءات، علاوة على حسن فهم الرموز الهيروغليفية المدوّن بها النصوص المنقوشة.

وبغزوه المدن الفلسطينية وهي على وضعها سالف الذكر، يكون شيشنق الأول قد أسس إمبراطوريته الأفرو/آسيوية الممتدة من الشام إلى الشمال الأفريقي. ورغم عدم وجود أدلة جغرافية قاطعة توضح لنا حدود تلك الإمبراطورية، إلاّ أنه يمكننا تتبع بعض الجوانب التاريخية التي قد ترشدنا إلى الأراضي والممالك التي امتد إليها سلطان شيشنق الأول:

أ- **الجانب المصري**: يعتبر شيشنق الأول ملكا على مصر منذ استيلائه على العرش في العام **945** ق.م. وتأسيس الأسرة الثانية والعشرين (الليبية)، وظل الحكم في سلالته إلى أن تأسست الأسرة الثالثة والعشرين (الليبية أيضا).

ب- **الجانب الليبي**: وبحكم أصله الليبي، من جهة، واتصال مصر بشرق ليبيا بصورة دائما، على كافة المستويات خاصة التجارية، إلى جانب الهجرات غير المنقطعة منذ نهاية عصر الرعامسة، من جهة ثانية، تعتبر ليبيا -من الناحية الجغرافية- تابعة لحكم شيشنق الأول منذ تأسيس الأسرة الثانية والعشرين.

---

(109) Franklin: **Op. Cit**. p.12.

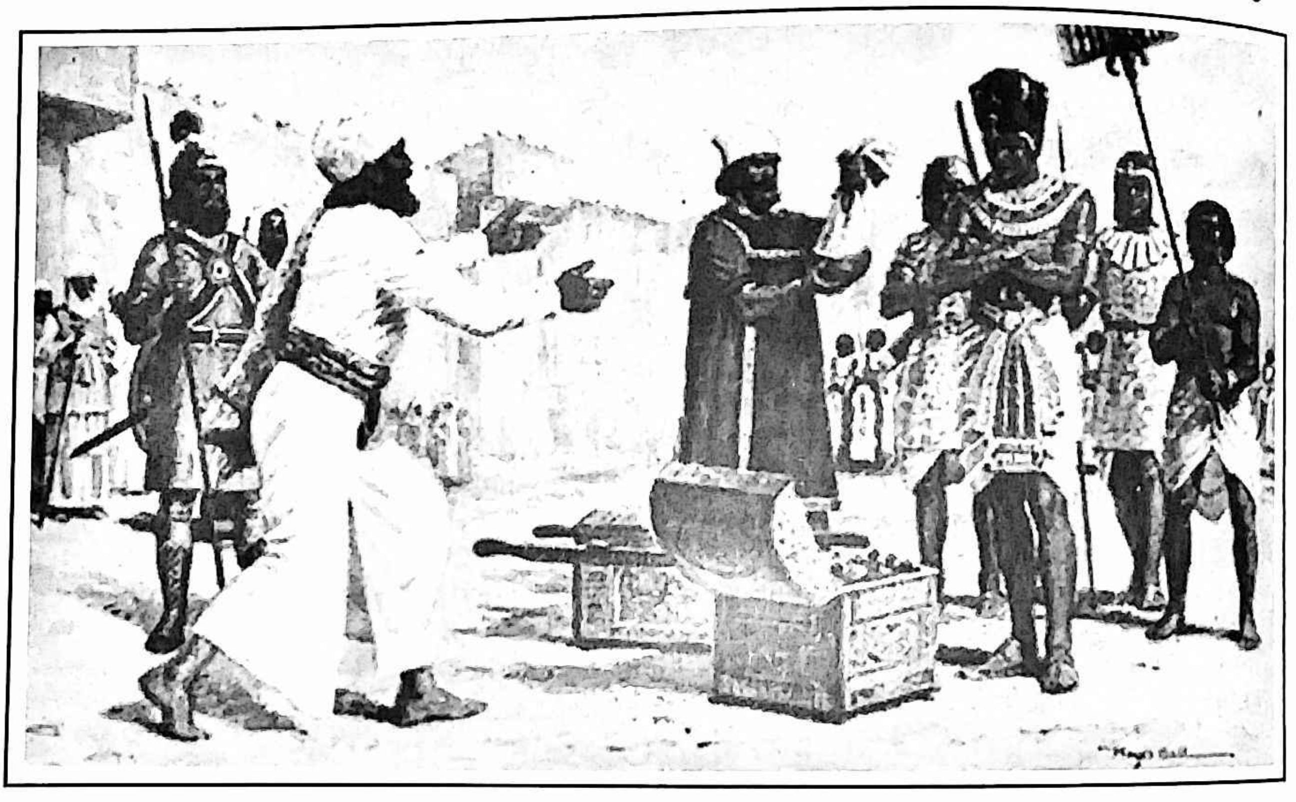
ج- **الجانب النوبي**: وكانت النوبة -على الدوام- تابعة للحكومة المركزية في مصر، خصوصا زمن المملكة الحديثة، وتمتد جنوبا إلى مروه (شمال الخرطوم حاليا). ويعرف سكان النوبة في التوراة بأنهم الكوشيون (من أبناء كوش بن حام بن نوح عليه السلام). ويشكّل الكوشيون مع الليبيين العمود الفقري للجيش المصري، فكانوا ضمن الحملة التي قادها شيشنق الأول على فلسطين.

د- **الجانب الفلسطيني**: كانت فلسطين ترزح تحت الاستعمار الإسرائيلي قبيل حملة شيشنق، ولمدة حوالي سبعين سنة. ومثلما سبق الذكر، فإن معظم المدن الفلسطينية دانت لشيشنق الأول ودفعت له الجزية. فانضمت بذلك إلى مملكة شيشنق الأول الجديدة. وكانت سيناء قد سبقت فلسطين في الانضمام إلى مصر، وذلك عندما قهر شيشنق الأول البدو في (البحيرات المرّة) قبل عبوره إلى مدينة غزة.

هـ)- **الجانب الشامي**: يُعتبر احتلال مجدّو الواقعة في أقصى الشمال الفلسطيني من قبل شيشنق الأول، إعلانا عن بداية اعتراف الممالك والمدن الفينيقية بقوته، فدانت له ملوكها وأمراؤها وقدّموا له الهدايا، ونصبوا له التماثيل تعبيرا عن الولاء. ولعل الأثر الذي وُجد في مدينة جبيل اللبنانية يُعد أحد الشواهد على اعتراف الفينيقيين بصداقتهم للملك الجديد الذي حل -في المكان- محلّ صديقهم السابق (الملك سليمان)، الذي سبق وأن أهدى مدناً بكاملها إلى ملك صور، كما سبق الذكر.

بقيت هذه الممالك خاضعة للحكومة المركزية في مصر طيلة حكم الأسرتين الليبيتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين. وكانت تتخللها فترات من التمرد التي تجبر الفراعنة على معاودة إرسال الجيوش إلى فلسطين. وقد تحدّثت أسفار العهد القديم عن حملات كانت تأتي إلى فلسطين من مصر قوامها جيوش من الليبيين والأثيوبيين. وظل الحال بين موالاة وتمرّد إلى نهاية فترة الأسرة الثالثة والعشرين الليبية، وبداية الأسرة الرابعة والعشرين الكوشية قصيرة الأمد

714-720 ق.م.)، ثم الأسرة الخامسة والعشرين (747-656 ق.م.). فتقلّصت بذلك الإمبراطورية التي أسسها شيشنق الأول سنة 925 ق.م. وتعرّض الشرق عموما للتدخّل الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد، والتدخّل البابلي في القرن السادس قبل الميلاد. إلى أن حلت به كارثة الاحتلال الأجنبي، حيث غزاه الفرس في نفس القرن، ثم اكتسحه المقدونيون في القرن الرابع قبل الميلاد، فاتخذ تاريخ المنطقة منحنى آخر.



شيشنق الأول يستلم كنوز بيت المقدس من العبرانيين حسبما تخيله الرسام (Roger Hall)، تاريخنا، ص ص 189-188.

الفصل الخامس

اللغة الليبية القديمة

أولاً: خصائص اللغة (اللهجات) الليبية القديمة[1]:

1- ما يشبه القواعد النحوية والصرفية:

لا يغربنّ عن البال أن سكان الكهوف الليبية في عصور ما قبل التاريخ، كانوا من أصل كنعاني، من بلاد جنوب الجزيرة وفلسطين[2]. وهذا يدعونا إلى الاعتقاد بوجود أثر كنعاني على لغة الليبيين الأولى. وكنعان هو ابن لاوذ بن سام بن نوح (عليه السلام)، وترجعه التوراة نفسها أحيانا أخرى إلى حام بن نوح[3]، وفي كلا الحالتين يكون أبناؤه وأحفاده قد عاشوا في زمن ما بعد الطوفان.

وإلى كنعان ينتسب كل العماليق الجبابرة الذين كانوا بفلسطين، ثم انتقل قسم كبير منهم إلى مصر وليبيا، أو إلى ليبيا ثم إلى مصر. وهذه قضية لم تُحسم إلى الآن، غير أن كثيراً من المؤرخين والمهتمين بالحضارات القديمة يرشحون أن هجرة الكنعانيين الأولى كانت في اتجاه ليبيا أولا، يقول (غوتييه): «**وإذا كان من الواضح أن طريق الحضارة قد سارت من مصر إلى المغرب، فلا يصح ذلك بالنسبة لما قبل التاريخ. فمهما كانت الحضارة المصرية قديمة فقد لزمها وقت من الزمن لتتكون فيه. ولعل سكان الصحراء قد هجروها** (أي هجروا صحراءهم) **في الطور الرابع بفعل الجفاف ليتمركزوا على ضفاف النيل. وقد دلت النقوش القديمة على التشابه بين المغرب ومصر. ولكن أيهما أثر في الآخر أولا، ابن**

---

(1) اعتمدنا في هذا الفصل على كتابنا: **أصول اللغة الليبية القديمة**، (مع إضافات وتعديلات)، ط1، 2003، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان، فصول متفرّقة.

(2) اكتشفت في كل من الجزائر وليبيا وفلسطين واليمن أربع جماجم متطابقة، أنظر: سعدي، عثمان: **عروبة الجزائر عبر التاريخ**، ط؟، 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ الجزائر، ص11.

(3) نذكر هذا التنسيب ليس من باب القول بصحته، وإنما لتبيان التناقض الذي لا تخلو منه أسفار اليهود.

الطوارق أم المصري؟ أغلب الظن أنه الطارقي، الجدّ الأول لأبناء الطوارق الحاليين»[4].

وهذه الحيرة في أسبقية الحضارة بين ليبيا ومصر تتضح أيضاً في علم اللغة المقارن، حيث تتم دائما مقارنة الألفاظ المصرية بألفاظ ليبية. وقد أكد المؤرخون الأصول الكنعانية لسكان وادي النيل. وبالتالي فالمقارنة بين اللغة الليبية واللغة المصرية تكون منطقية، وذلك نظراً لانتمائهما للغة الكنعانية. غير أنهم يُدرجون اللغتين -أحياناً- ضمن العائلة (الحامية) في حالة فصلهما عن الكنعانية، ثم يدرجونهما -أحيانا أخرى- ضمن العائلة (السامية) في حالة مقارنتهما بالكنعانية. ولكن لا تهمنا -هنا- هذه الانتماءات غير الثابتة، بقدر ما تهمنا مشرقية اللغات الثلاث، وهي الأقرب للواقع والأكثر ثبوتاً.

واللغة الليبية (اللهجات الأمازيغية) لم يتح لها الارتكاز على قاعدة ثابتة تنطلق منها وتتطور على أساسها. ولا نقصد -هنا- القاعدة التاريخية، وإنما نقصد القاعدة العلمية التي تبنى عليها اللغات. فاللغة العربية -مثلا- كانت لها قاعدة تاريخية امتدت لآلاف السنين. ولكن قاعدتها العلمية والاصطلاحية لم تبنَ بوضوح إلاّ في عهد الإسلام، عندما اهتم بها المسلمون وقيّدوها بالضوابط العلمية التي وضعت لها حدوداً منعت عنها التغريب والتشريق، فاحتفظت بشخصيتها الخاصة بها طيلة الأربعة عشر قرناً الماضية.

كما أن اللغة العربية خرجت من طور اللهجة أو اللهجات القبلية، إلى طور اللغة التي تخلصت من كل ما يُساء فهمه ويُختلف في أمره. أما اللهجات فبقيت متأثرة ببعضها البعض أحياناً وباللغة الأم أحياناً أخرى، حتى اندثر بعضها وتغير مسار بعضها الآخر، وذلك بحسب الحفاظ عليها أو نسيانها كلياً أو جزئياً. فاللغة المصرية بقيت آثارها البعيدة متمثلة جزئياً في لهجة الأقباط رغم المؤثرات اليونانية عليها. أما اللهجات العربية القديمة فقد اندثر معظمها

(4) غوتييه: **ماضي شمال أفريقيا**، تعريب: هاشم الحسيني، ط1، 1970، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص33.

بذوبان قبائلها في المجتمع العربي الجديد الذي اتسع شرقاً وغرباً مع الفتح الإسلامي، ولم يبق منها إلاّ بعض الظواهر اللغوية والمفردات القديمة التي في لهجات سكان الجزيرة جنوبيها وشماليها.

أما في الشمال الأفريقي فقد احتفظ سكانه بلهجاتهم الأولى التي توارثوها أباً عن جد، والتي يعود تاريخها إلى بداية الوجود البشري على هذه الرقعة الممتدة من النيل شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، والتي أطلق عليها قدماء المصريين ثم الإغريق فيما بعد اسم ليبيا. وعندما ارتحل الكنعانيون (الفينيقيون) إلى أفريقيا الشمالية، اندمجوا في المجتمع الليبي القديم، ومن ثم لم تعد اللهجة الفينيقية لهجة فينيقية خالصة ولم تبق اللهجات الليبية القديمة لهجات ليبية خالصة أيضاً. وعلى هذا الأساس يشير البعض أن "**لهجات ليبيا من المحتمل أن يكون أصلها البعيد هو أصل اللغات (السامية)**»[5]. ويرجع البعض الآخر اللهجات الليبية إلى ثلاثة مصادر أساسية: «**اللهجة الزناتية (ليبيا وتونس والجزائر ما عدى لغة القبائل)، اللهجة المصمودية (شلح المغرب بجبال الأطلس وبلاد السوس)، اللهجة الصنهاجية (القبائل بالجزائر والطوارق بالصحراء)**»[6].

من هنا، لا يمكننا أن نسمي اللغة الليبية لغةً بمفهومها المطلق، لأنها كانت لهجات تقترب وتبتعد عن بعضها البعض بحسب قرب وبعد القبائل الليبية. ولكنها -رغم كل ذلك- فهي متشابهة، تماماً مثل لهجات العرب الأخرى قبل الإسلام. يقول (جوليان): «**ولا شك أن هذه الوحدة قد ظهرت قديماً في ميدان اللغة، وقد لا يكون ذلك باستعمال لغة واحدة في البلاد كلها، في أغلب الظن باستعمال لهجات متقاربة تكون مجموعتها المسماة**

---

(5) جوليان، شارل أندري: **تاريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب: محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط؟، 1969، الدار التونسية للنشر، تونس/ تونس، ص5.

(6) صفر، أحمد: **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، ج1، ط؟، دار النشر بو سلامة، تونس/ تونس، ص45.

اصطلاحياً: الليبية»[7].

ونظراً لاتساع رقعة الشمال الأفريقي، واختلاف مناخات مناطق الجذب، وتنوع النواحي التضاريسية.. تباعدت مراكز العمران مشكّلةً فجوات شاسعة بينها، كما توغلت بعض قبائل البدو الرحل في أعماق الصحراء، في بحث دائم عن الكلأ والماء، والتجأ بعضها الآخر إلى المغارات والكهوف متخذين من الجبال سكناً ومستقراً. فصار -بذلك- لكل منها لغته أو لهجته الخاصة به. ولكنهم يتفقون في أساسيات لغوية معينة، وهذه أكبر مقومات وحدة أجدادنا الليبيين القدامى وأقوى مرتكزات حضارتهم.

في هذا الفصل لا يمكننا دخول اللغة الليبية القديمة من باب القواعد العلمية التي ترتكز أساساً على علوم النحو والصرف وما ينجر عنهما، لأن تلك اللغة لم تكن لغة بمفهومها العلمي الصرف، بقدر ما هي مجموعة لهجات منحُوّة ومصرّفة بطرق تضمن فقط توصيل المفاهيم بين أصحابها، دون الحاجة لتقييدها بالقواعد العلمية كالتي في اللغة. لهذا السبب نحاول دراستها من جانب الظواهر والخصوصيات والنظم الكلامية التي تميز تلك اللهجات عن اللغة العربية، وذلك في غياب معرفتنا باللغة الليبية القديمة. وقد أتاحت لنا اللهجات الأمازيغية الحالية فرصة تكوين فكرة عامة عن تلك اللغة المجهولة، والتي لا نشك مطلقاً بأنها كانت امتداداً طبيعياً للغات التي عُرفت في الشرق العربي، خصوصاً اللهجات العربيات التي ظلت لزمن طويل غير مقعّدة.

2- أسماء اللغة الليبية القديمة:

يُطلِق التوارق على لهجاتهم اسم (تماشق)، وهو مختلف كثيراً أو قليلاً عمّا يسميها

---

(7) جوليان: مصدر سابق، ص66.

البعض (البربرية) تارة و(الأمازيغية) تارة أخرى. فأما الأولى فمستهجنة ولا تمتّ للوقائع التاريخية بأية صلة، وأما الثانية فقد تتفق مع مصطلح (أمازيغ) الاسم الحديث لسكان ليبيا القديمة. إذ يبدو أن لها علاقة متينة بلفظ (تماشق). فبعضهم -أي التوارق- يسمي نفسه (إيموشاغ)، بينما يكون الأصل (إيموزاغ) لأنهم ينطقون (الزاي) (شيناً). ونلاحظ هذه الظاهرة أحياناً في اللهجة الليبية الحالية، حيث يقال: (الشمس زرقت) أي (أشرقت)، ومنها فعل (زرق) أي (أفلت) كما تفلت الشمس من الأرض لتستقر في السماء! وفي نفس التسمية يُستبدل -أيضاً- (الجيم) بـ(زاي) فتصير (إيموجاغ) بدلاً من (إيموزاغ)، وفي العامية الليبية يقولون (زواز) بدلاً من (زواج) أو (جواز)، و(عزوز) بدلاً من (عجوز) وغيرهما..

ومن خلال دراسة هذا اللفظ تجدر الإشارة إلى ظاهرة تعاقب حرفي (الغين) و(القاف)، وهي ظاهرة توجد حالياً في العربية، تماماً كما وُجدت سابقاً في المصرية والليبية القديمتين وغيرهما، ولا تزال آثارها في لهجات الخليج العربي والسودان. ولهاذين الحرفين المتقاربين في النطق اختار التوارق رمزين متشابهين في الشكل، فقرروا للقاف (ثلاث نقط أفقية) وللغين (ثلاث نقط عمودية). هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد كانت اللغة الليبية القديمة -وكذلك لهجات سكّان المغرب العربي حالياً- تُؤنث أو تُعرِّف المؤنث بالتاء في أول الكلمة. وعلى هذه الأسس نعود إلى لفظنا (تماشق) لنستبدل (الشين) بـ(زاي) ليصير (تمازق)، ونستبدل (القاف) بـ(غين) ليصير (تمازغ)، ونرفع عن أوله تاء التأنيث ليصير (مازغ). ويحدد سكّان المغرب العربي من ذوي الأصول الليبية القديمة تسميتهم بالـ(أمازيغ) بدلاً من التسمية القديمة الـ(بربر)، مفردها المذكّر (مازغ) أو (مازيغ) ومفردها المؤنث (تمازغت) وجمعها (يمازيغن) أو (أمازيغ). وبالتالي فإن تسمية التوارق للهجاتهم (تماشق) إنما هي نفسها (الأمازيغية) المنتسبة إليهم وإلى غيرهم من المتكلمين بهذه اللهجات.

ثانياً: الظواهر والخصائص في المجال النحوي والصرفي:

1- ظاهرة الابتداء بساكن:

رأى معظم الباحثين في اللغة الليبية القديمة أن ظاهرة الابتداء بساكن ظاهرة غريبة ومتميزة عن سائر لغات شعوب المنطقة. إلاّ أننا -إذا تفحصناها بعيداً عن فكرة الغرابة الراسخة في أذهاننا- لوجدنا أثر هذه الظاهرة في اللغة العربية نفسها. غير أن العرب -وهم قوم مشهود لهم بفصاحة اللسان- تداركوا الأمر وعالجوه في إبّانه. ربما حصل ذلك في زمن بناء اللغة العربية (الحديثة)، حين بدأت دعائمها الأولى تترسخ في اللهجة القرشية التي أراد لها الله أن يُرفع عنها كل العوائق والظواهر المعرقلة للنطق والتعبير، فصارت لهجة قريش أفضل لهجات العرب على الإطلاق، فنزّل بها القرآن الكريم.

ومثلما ذكرنا في الفصول الفائتة، فإن اللغة العربية (الحديثة) هي خلاصة كل المراحل السالفة، وثمرة تجارب الأولين، خصوصاً وأن (اللهجات) التي سبقتها كان معظمها ساكناً، أو أن السكون غالبٌ عليها. فانفتحت اللغة العربية، وتفتقت ألسنة أصحابها، وتميزت بالفصاحة عن سابقاتها.

أما في الشق الغربي للوطن العربي، مصر وشمال أفريقيا، فكانت لشعوبه تجربتهم الخاصة في هذا المجال. حيث أضافوا حرف الهمزة أمام كل كلمة مبدوءة بحرف ساكن، بقصد تليينها وتسهيل نطقها وتوصيلها مفهومةً إلى أذن سامعها. وفكرة إضافة الهمزة، هي -كما يبدو- متفق عليها منذ القدم. فعديد من الألفاظ العربية -التي يكون ثاني حروفها ساكناً- تبدأ بهمزة، أسماءً كانت أو صفات أو أفعالاً، على أن يكون جذرها خالياً من حرف الألف أو الهمزة في أوله، مثل:

أ- **أسماء:** أرْجل : (ر ج ل)، إمْتحان : (م ح ن)، أُغْنية : (غ ن ي)..

ب- **صفات:** أسْمر: (س م ر)، أعْمى : (ع م ي)، أشْعر : (ش ع ر)..

ج- **أفعال:** أسْلم: (س ل م)، إجْتنب: (ج ن ب)، أُخْرِج: (خ ر ج)..

د- **أفعال أمر**: أكْمل: (ك م ل)، إسْبح: (س ب ح)، أُكْتب: (ك ت ب)..

هـ- **وتقلب الهمزة ياءً في المضارع**: يدْخل: (د خ ل)، يقْبل: (ق ب ل)، يأْكل: (أ ك ل)..

والملاحظ أن لهجات العرب المشارقة بقيت متأثرة بتلك الإصلاحات التي أجراها العرب قديماً على لغتهم، فلم تكن ساكنة مثلما هو الحال في لهجات العرب المغاربة. فقد حاولنا تلقين بعضهم أن يقول: (شْكارة) بشين ساكنة كما ننطقها نحن، إلاّ أنه يعيد في كل مرة: (شِكارة) بكسر الشين، ولم يَستطع تسكينها!

على كل حال، الليبيون قديماً، وكذلك المصريون، أضافوا الهمزة لبعض مفرداتهم الساكنة، مثل:

أ- (**إدقي**) : (العامية: **دْقيق**)، وهي تسكين للعربية: (الدَقِيقُ).

ب- (**إدْييفْ**) : (العامية: **ضْعيف**)، وهي تسكين للعربية: (الضَعيفُ).

جـ- (**إحْسد**) : (العامية: **حْسَدْ، حْسودي**)، وهي تسكين للعربية: (الحَسَدُ).

في هذه العينات، قد نلاحظ أن (ال) التعريف مقدّرة تقديراً، ولم تدخل على اللفظ بصورة صريحة وواضحة، وهي من مميزات اللهجات المغاربية كلها. حتى وإن كان لها دور بارز فهو قليل، فلا تظهر إلاّ في ألفاظ (الأمازيغية) المأخوذة عن العربية حديثاً، مثل: **القرآن، الإسلام، الفرض، الوقت، الدباغ**..

وإذا أردنا معاملة هذه الألفاظ بالأسلوب السابق، لصارت مُعرَّفةً بالهمزة فقط دون مراعاة للام الشمسية أو اللام القمرية: **إفْرض** (قمرية)، **إدْباغ** (شمسية).

هذه الهمزة (وسميت هكذا، ربما لأنها تهمز الكلام وتلكزه لكي ينهض من جموده وسكونه ويتضح ويُسمَع ويُفهم!) لعبتْ دوراً كبيراً في نطق لغة قدماء الليبيين (الأمازيغية)،

فاختير لها منذ البداية الرمز: (.)، وسميت نقطة (تاغريت)، وهي مؤنث (إغري) من (يغرو، يغار، تغري)[8] أو (يقرو، يقار، تقري)، أي (قرأ، يقرأ، قراءة). وبعد استبدال الغين بقاف -على عادة العرب والليبيين قديماً وحديثاً- يتضح أن (نقطة تاغريت) الأمازيغية، هي (نقطة القراءة) أو الهمزة العربية، التي تسهّل القراءة وتليّنها[9].

ولو اتفقنا على أن أثر هذه الظاهرة موجود في العربية والأمازيغية، فلا بد من الاعتراف بأن حاجة الأمازيغية للهمزة أكثر من حاجة العربية لها. لأن هذه الأخيرة لها حلول وخيارات بديلة، وهي حركات الشكل، مثل:

شَمس (مبدوءة بفتحة)، **ثُريا** (مبدوءة بضمة)، **لِحية** (مبدوءة بكسرة).

على عكس ما في الأمازيغية، مثل:

تْفويْتْ (مبدوءة بسكون): شمس. **تْري** (مبدوءة بسكون): ثريا. **تْمارت** (مبدوءة بسكون): لحية.

حتى وإن حُلّت مسألة الابتداء بساكن في (الأمازيغية) بإضافة الهمزة لتسهيلها، تبقى أيضاً تجربة قدماء العرب في تحريك بدايات الألفاظ قائمة للاستعانة بها. فماذا يضير الأمازيغية إذا نُطقت ألفاظها هكذا: (**تَفويت**) بفتح التاء مثل (**تَامطوث**)؟ نحن -هنا- لا نقترح ولا نضيف ولا نغيّر، ولكننا نُثبت رحابة صدر (البربرية) كما يؤكد أصحابها والمتعصبون لها، من أنها «**سلسة مرنة، تقبل كل الألفاظ الدخيلة (فتبربرها) فتصبح منها**»[10]. وهم في ذلك

---

(8) لهجة منطقة (فساطو) بالجبل الغربي بليبيا الحالية.

(9) أنظر: الصويعي، عبد العزيز سعيد: أصول الحرف الليبي، ط1، 1999، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة/ ليبيا، ص323 و324.

(10) دبّوز، محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، ط1، 1964، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة/

تجارب سابقة، وذلك مثل «**إن عملية** (بربرة) **الكلمات عند** (البربر) **سهلة. إنهم إذا أرادوا** أن (يبربروا) **كلمة مقتبسة زادوا لها تاء مفتوحة في أولها وتاء ساكنة في آخرها. وإذا** (بربروا) **الدار قالوا** (تدارت) **والحانوت** (تاحنوت)**. وقد يكتفون بزيادة التاء في آخر** الكلمة، **كالغابة فإنها في** (البربرية) **(الغابت) والجنة** (الجنت)**. وقد يكتفون بزيادة ال في أول الكلمة**»(11).

نلاحظ أن الألفاظ الأخيرة هي ألفاظ عربية مباشرة. وكذلك الإضافات التي دخلت عليها و(بربرتها) هي عربية أيضاً، فالتاء الأخيرة هي في الأصل (تاء التأنيث المربوطة)، والتاء الأولى فهي في العربية لا تكون إلاّ في الأفعال. أما استهلالها ب(ال) التعريف، فهي عربية أيضاً. وبالتالي فإن الألفاظ المضافة للأمازيغية هي تدعيم واضح لنظرية انتمائها إلى أصول عربية.

أما الهمزة المفتوحة كأداة تعريف في الأسماء المذكّرة، فيُعتقد أن أصلَها أداةُ التعريف القديمة (ها)، كما في العبرية وبعض اللهجات العربية البائدة(12)، وقد ظهرت أول مرّة في اللغة الآرامية، كما سبق الذكر في الفصل الثاني من الباب الأول لهذا البحث.

2- ظاهرة تاءات التأنيث:

بدءٍ ذي بدء، يجب الاعتراف -من الآن- بأن هذه الظاهرة هي عربية خالصة، والقول بخصوصيتها (الأمازيغية) باطل من أساسه. لأن تاء التأنيث المفتوحة هي من خصائص

مصر، ص49.

(11) دبّوز: **مصدر سابق**، ص60.

(12) أنظر: خشيم، د. علي فهمي: **سِفر العرب الأمازيغ**، ط1، 1995، مطبعة الفاتح، مصراتة/ ليبيا، ص3-17.

اللغة العربية (العتيقة) منذ نشأتها الأولى عند الأكاديين ووضحت عند الكنعانيين عامة، بعدما صارت الكتابةُ أبجديةً مستقلّةً، مثل: (**بعلت**): مؤنث (**بعل**): (رب). وفي المصرية أيضاً، مثل: (**دشرت**): (الصحراء)، و(**إمنت**): (اليمين)، حيث كانت تلك التاء منطوقةً.

وعرب الجاهلية -الذين ورثوا عن أسلافهم الكنعانيين وعلى الأخص الأنباط لغتهم- كانوا يسمون آلهتهم: (**اللات**)، وهي مؤنث لفظ (**الرب**) القديم: (**إيل، أل**). وعندما رُبطت تاء التأنيث، قالوا: (**آلهة**): مؤنث (**إله**).

إن ربط تاء التأنيث جاء تلبيةً لمرحلة تحديثية قام بها العرب عندما بدأوا يكتبون لغتهم بالمداد، فهي -إذن- حركةٌ يدوية اختصارية أكثر منها قاعدة كتابية أو لغوية معينة، خصوصاً وأن عرب الجاهلية، وبالذات في فترة ما قبل الإسلام، وجدوا الكتابة متصلة الحروف بعدما كانت منفصلة. فأول محاولة للاتصال قام بها الأنباط وثبّتوها قبل وصول الكتابة إلى عرب الجاهلية.

والواقع أن ربط التاء والهاء في آخر الكلمة يوازيها مدٌّ وتعريق في معظم الحروف الأخرى، مثل اللام والميم والعين والقاف وغيرها من خواتم الكلمات.. ولكنها لم تبتعد كثيراً عن رسمها الأصلي كما حصل مع التاء الأخيرة التي ابتعدت عن شكلها الأول نتيجة الربط، وكذلك الهاء.

إن هذا الربط لا ينطبق -في الغالب- على غير الأسماء والصفات، باستثناء جمع المؤنث السالم. أما الأفعال فتاءاتها لا تزال مفتوحةً وممدةً حتى الآن. وهذا الاختلاف أعطى فرصة تمييز الاسم من الفعل بسهولة. فصارت في علم النحو قاعدة لغوية، وليست فقط حركة يدوية إختصارية. ولا يمكن لأحد أن يتصور ماذا سيحصل إذا لم يتفطن العرب قديماً لهذه المسألة.

إذن، فالعربية لا زالت تعتمد تاء التأنيث في أول الكلمة، وفي آخر الكلمة، وفي أول

وآخر الكلمة معاً، ولا تنفتح الأخيرة إلاّ في الأفعال.

مثل: - **تُغَنّي** (في الأول)، **غنّت** (في الأخير)، **تَغنّت** (في الأول والأخير معاً). أما في الأسماء فهي مربوطة دائما، مثل: -**مغنية، غانية، غناية، أغنية**.. ثم تفتح في جمع المؤنث: -**مغنيات، غانيات، غنّايات، أغنيات**..

أما اللغة الليبية القديمة، فلم تتعرض لمثل هذا التطوير والإصلاح، فبقيت الظاهرة على حالها منذ آلاف السنين، نتيجة بعدها مكانياً عن بؤرة الحضارة الشرقية، ومركز الاهتمام باللغة العربية وتحسينها وغربلتها من الشوائب، فاحتفظ بها سكان شمالي أفريقيا واستعملوها في لهجاتهم حتى اليوم. غير أنهم كرّسوا هذه الظاهرة في الأسماء أكثر منها في الأفعال، مثل:

أ - **في أول وفي آخر الكلمة**، مثل: (**تفاوت**): (النار)، (**تامورت**): (البندقية)، (**توارت**): (اللبؤة)..

ب - **في أول الكلمة**، مثل: (**تمطوث**): (المرأة)، (**تزيري**): (القمر)..

ج - **في أخر الكلمة**، مثل: (**ادّونيت**): (الدنيا)، (**اجنّت**): (الجنة)، (**الغابت**): الغابة..

وظاهرة تاء التأنيث في أول الأسماء ثابتة في القِبطية (بنت المصرية القديمة رغم التأثير اليوناني)، مثل: (ليي-أَلْويْ): الولد، تُؤنث (ت-أَلْويْ): البنت، و(ليي-إحي): الثور، تؤنث (ت-إحي): البقرة[13]..

وقيل أن التاء الأولى ليست خالصة للتأنيث، بل هي لتعريف التأنيث، كأنها تحل محل (ال) التعريف العربية، أو أن أصلها (تا) كعلامة إشارة للمؤنث. إلاّ أن كثيراً من الألفاظ المؤنثة لا تبتدئ بتاء، مثل:

---

(13) أنظر: خشيم: <u>**مصدر سابق**</u>، 3-23.

- (**أقشابيت**): (القشابية)، (**أزماليت**): (الزمالة، العمامة)، (**نازيت**): (الهضبة).. فهي تُسمع كما لو كانت معرّفة بـ (ال) شمسية، فيُنطق الألف ولا تُنطق اللام، ربما بتأثير الـ (ها) التعريفية سابقة الذكر.

أما في الأفعال فيضيفون عادة حرف (هـ) في أول الفعل الماضي مع ضمير المؤنث الغائب، مثل:

- (**هطّسّ**): (نامت)، (**هزّط**): (نسجت)، (**هيّل**): (بكت)، (**هدّلّك**): (عجنت).. كما لو كان حرف (هـ) يمثل الضمير (هي) منحوت مع الفعل ومتصل به. وهي في العربية ممدودة بألف في آخر الاسم على هيئة ضمير متصل، مثل: **نومها**، **نسيجها**، **بكاؤها**، **عجينها**..

3- ظاهرة (الوتم) التي في اليمنية:

عُرف عن لهجة اليمن القديمة ظاهرة (الوتم)، وهي جعل التاء سيناً، كـ(**النات**: الناس)، (**الفرت**: الفرس).. وبما أن التاء والهاء كلاهما من أسرة واحدة، عاملها العربُ بنفس المعاملة في الربط إذا وقعت في آخر الكلمة، مثل في المذكر: (**كُرْهٌ، بَلَهٌ**).. وفي المؤنث: (**كُرَةٌ، بَلَّةٌ**).. وفي الضمير المتصل: (**قاله، كتابه**).. كما عامل البابليون -وهم من اليمن القديم- وكذلك المعينيون والأحباش، حرف الهاء بنفس (الوتم) الذي عند اليمن، فاستبدلوا الضمير المتصل (هـ) بحرف سين، مثلما حصل مع التاء. فقالوا: (**بيتس**: بيته). وهذا يعني أن هذه الظاهرة التي كانت شائعة في لهجات اليمن وصلت أيضاً إلى ليبيا وعمّت أنحاء المغرب العربي، فتأثرت بها بعض لهجاته. وها هي متأصلة في اللهجة الميزابية[14]، مثل:

- (**ماما**): أم < (**ماماس**): أمه.

---

(14) اللهجة الميزابية: نسبة إلى وادي ميزاب بالجزائر.

- (بابا): أب < (**باباس**): أبوه.

- (**معجزات**): معجزات < (**معجزاتس**): معجزاته.

- (**ربي**): رب < (**ربس**): ربه.

- (**فرض**): فرض < (**فرضس**): فرضه.

- (**عيال**): زوجة < (**عيالس**): عياله، زوجته.

كذلك في ضمير الجمع المتصل (هم). والميم مبدل بنون (وهي علامة الجمع في اللغات القديمة)، والهاء مبدل بسين. وفي الأمازيغية يلتقي الحرفان (س) و(ن)، ويمثلان ال(هـ) و(م)، مثل:

- (**ماون**): فم < (**ماوننسن**): أفواههم: **سن**: هم، (لأن جمع ماون: ماونن).

- (**إفّر**): منخر < (**إفرنسن**): مناخيرهم: **سن**: هم،(لأن جمع إفر: إفرن).

4- ظاهرة (الكشكشة) التي في ربيعة ومضر:

ورد في (المزهر للسيوطي): «**الكشكشة، وهي في ربيعة ومضر، يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شينا، فيقولون: رأيتكش، وبكش، وعليكش**»، «**ومنهم من يجعلها مكان الكاف ويكسرها في الوصل ويسكّنها في الوقف، فيقولون: منش، وعليش**»[15]. وعلّق شارح الكتاب بالقول: «**قال في فقه اللغة للثعالبي، وقرأ بعضهم: قد جعل ربش تحتش سريا. لقوله تعالى: قد جعل ربك تحتك سريا**»[16].

وبقيت هذه الظاهرة في بعض لهجات عرب الخليج، ليس فقط في كاف الخطاب،

(15) السيوطي: **المزهر**، ج1، 1987، المكتبة العصرية، صيدا/ لبنان، ص221.

(16) السيوطي: **مصدر سابق**، هامش نفس الصفحة.

وإنما في كل كاف مهما كان موضعها في الكلمة، بل يضيفون قبلها حرف التاء لتأكيدها، مثل:

- (**تشلب**): كلب، و(**متشان**): مكان، و(**منتش**): منك، و(**عليتش**): عليك.. وتتكرر في لفظ واحد، مثل: (**متشانتش**): مكانك، و(**تشلبتش**): كلبك..

وهذه الظاهرة لا زالت أيضاً في العديد من اللهجات الأمازيغية. ففي اللهجة الميزابية مثلا، يقولون:

- (**ماما**): أم > (**ماماتش**): أمك.
- (**دين**): دِين > (**دينش**): دينك..

والغريب أن ضمير المتكلم المفرد ينطقونه (ك) بدلا من (ي)، وهي ظاهرة –وإن كانت غريبة عن العربية الحالية– فهي ثابتة في الأكادية، إذ يقولون: (أناكو: أنا). وفي الميزابية أيضاً:

- (**ماما**): أم > (**ماماك**): أمي.
- (**نيِّت**): إخلاص > (**نيّتيك**): إخلاصي..

5– ظاهرة (العنعنة) التي في قيس وتميم:

جاء في (المزهر للسيوطي): «**العنعنة، وهي في كثير من العرب، في لغة قيس وتميم، تجعل الهمزة المبدوء بها عينا، فيقولون في إنك : عنك، وفي أسلم: عسلم،**

وفي أذن: **عذن**»[17]. وأيضا في وسطها، مثل: «**الكُثأة: الكُثعة، ذؤاف: ذعاف، السأف: السعف**»[18].

وهذا يقودنا إلى ظاهرة تعاقب (العين والغين)، مثل: «**عمجرة وغمجرة، وعَشرّب وغشرب، وعبعب وغبغب**..»[19].

والقصد من التمهيد بهذه الظواهر، هو إثبات أن (الغين) في اللهجات العربية القديمة تُبدّل (عيناً)، و(العين) بدورها تُبدّل (ألفاً). لأن بعض اللهجات الأمازيغية تعتمد اللاحقة (نغ) كضمير متصل: (نا)، لأن حرف (الغين) يزيد حرف (النون) امتداداً صوتياً ينتهي بالانغلاق الحلقي، مثل:

- (**ماما**): أم < (**مامانَغ**): أمنا. نغ أو ناغ: نا، (غ: ع: أ).
- (**دين**): دين < (**دينَنغ**): ديننا.
- (**نْبي**): نبيّ < (**نبينَغ**): نبينا.
- (**حالت**): حالة < (**حالتنَغ**): حالتنا.
- (**أولي**): قلب < (**أولنَغ**) قلبنا، و(**أولننَغ**): قلوبنا.

وقد يؤيد ما ذهبنا إليه وجود ظاهرة تعاقب (العين والغين) أصلاً في اللهجات

---

(17) السيوطي: **مصدر سابق**، نفس الصفحة.

(18) الكُثأة: دسم اللبن يعلو في الإناء. ذعاف: موت ذعاف، يعجل بالقتل. السيوطي: **نفس المصدر السابق**، ص463.

(19) عمجرة: تتابع الجرع. عَشَرّب: غليظ شديد. عبعب: صنم معروف لقضاعة. السيوطي: **نفس المصدر السابق**، ص552.

الأمازيغية، مثل حرف الجر (على) فهو في الميزابية (**غَلْ**)، وعادة ما يكون متصلاً لا منفصلا، مثل: (**غلحالت**): (على الحالة)..

6- ظاهرتا الجمع والتثنية:

يعتمد العربُ حرفَ (النون) كعلامة للجمع. والنحويون يسمونها: (نون الجمع) و(نون النسوة) كدليل على صلاحيتها لجمع المذكر والمؤنث. ويصرفونها في الأسماء والأفعال بحسب محلها في الإعراب، مثل:

- جاء المعلمون، رأيت المعلمين، المعلمون قادمون، الغلمان يلعبون، نحن أكلنا ونأكل (في أول الفعل)..
- المعلمات يخرجن، خرجن..
- غسل البنات ثيابهن، مرت السنون..

وتمتاز العربية عن سائر اللغات بالتثنية. ففي اللغات الأوروبية -مثلا- يبدأ الجمع بعد الواحد مباشرة، ويعبّرون عنه بحرف(**S**) بما في ذلك المثنى الذي لا تعترف به تلك اللغات. أما في اللغة العربية فيضاف حرف التثنية لنون الجمع: (الألف، في حالة الرفع. والياء، في حالة النصب والجر)، مثل:

- جاء **الأخوان**، رأيت **الأخوين**، (إثنان وإثنين).
- جاءت **المرأتان**، رأيت **المرأتين**، (إثنتان وإثنتين).

وفي الأمازيغية أيضاً حرف النون هو علامة الجمع، مثل:

- (**أجلّيد**): الملك < (**اجلدان**): الملوك.

- (**إيّار**): شهر < (**إيّارن**): شهور.

- (**إيجدل**): الجدول < (**ايجدلاون**): الجداول.

- (**أجنّه**): السماء < (**أجنّاون**): السماوات.

وقد لا تظهر (نون) الجمع في جمع التكسير، ولكنها تُثبت (الواو) كما لو كانت مرفوعة، مثل: (**أغبالو**): عين الماء، وتُجمع (**أغبولا**): عيون الماء، و(**أماياس**): الفهد، وتُجمع (**إموياس**)[20]..

أما في حالة التثنية فتضاف البادئة (سن) للجمع. و(سن) هذه تعني (اثنان)[21]، وهي عربية أساساً، لأن ثنائي إثنين (ث ن). ويقول ابن السكّيت في الإبدال: «**يقال: أتيته مَلْسَ الظلام ومَلْثَ الظلام: أي اختلاط الظلام. والوطس والوطث: الضرب الشديد بالخف..**»[22]، وسبب هذا البدل يعود إلى اختلاف نطقه بين اللغة العربية الشمالية: (س) واللغة العربية الجنوبية: (ث). لذا يكون الثنائي (سن) هو العربي (ثن) أي إثنان. وفي الأمازيغية يشار به إلى المثنى، مثل:

- (**إتري**): النجم، (**سَنْ إتران**): النجمان، أو إثنان من النجوم، لأن (إتران): النجوم.

- (**إيّار**): الشهر، (**سَنْ إيارن**): الشهران، أو إثنان من الشهور، لأن (إيارن): الشهور.

---

(20) أنظر: خشيم: **مصدر سابق**، ص3-20.

(21) كذلك في المصرية القديمة: سنو: اثنان.

(22) أنظر: السيوطي: **مصدر سابق**، ص560.

وهذه الظاهرة لا توجد في العربية بهذا الوضع، فالتثنية فيها متصلة بأخر الأصل المفرد: (نجم + آن : نجمان)، وهي عكس: (إثنان + نجوم : نجمان). إلاّ أن ذلك جائز في جميع لهجات سكان شمال أفريقيا، إذ يقولون، مثلا:

- (**زوز حمامات**)، أو (**جوج حمامات**): حمامتان. (زوز أو جوج : زوج، أي إثنان).

- (**زوز نساوين**): إمرأتان، (نساوين: نساء).

- (**زوز رجّالة**): رجلان، (رجّالة: رجال)..

لذا، فوضع التثنية في الأمازيغية يميل إلى الصيغ العامية التي في اللهجات المغاربية الأخرى. وحتى في اللهجة المصرية يُقال: (جوز حمام) بدلا من (حمامتان).

7- ظاهرة إبدال الزاي بغيرها:

جاء في (المزهر للسيوطي): «**ومن الزاي والصاد يقال: جاءتنا زِمْزِمة من بني فلان وصِمْصِمة، أي جماعة. ونشزت المرأة ونشصت، والشرز والشرص: الغلظ من الأرض..**»[23]. وهذه الظاهرة شائعة أيضا عند العرب المغاربة اليوم، فيقولون، مثلا:

- (**إزّغار**): الصغار، (**مزدوم**): مصدوم[24]، (**لزقة**): لصقة..

وفي اللهجات الأمازيغية كذلك. حتى أن الألفاظ العربية التي دخلتها بعد الإسلام طُبّقت عليها هذه الظاهرة، تماما مثلما فعلت اللهجات الأخرى غير الأمازيغية. وإذا كانت

---

(23) السيوطي: **مصدر سابق**، ص467.

(24) هكذا عند العرب الأوائل، إذا وقع بعد الصاد دال أبدلوه زايا، السيوطي: **مصدر سابق**، ص474.

الأمثلة العربية الواردة في المزهر تصح فيها (الزاي) وتبطل فيها (الصاد)، لأن الشرص لغة في الشرز، فإن اللهجات المغاربية تعكس الآية. لنرى هذه الأمثلة في الأمازيغية:

- (**اتزاليت**): الصلاة، (الأصل هي الصاد).

- (**أزومي**): الصوم.

- (**أزعلوك**): الكبير (الصعلوك).

وهذا يقودنا إلى الافتراض بأنه إذا روعي هذا الإبدال في ألفاظ أخرى لاتّضح أصلها العربي، وذلك مثل لفظ (يزيض) الذي يعني (الديك). ولو صيرناه بالصاد: (يصيض) لاقترب من العربية (يصيح) لشهرة الديك بالصياح، وتبقى مشكلة إبدال (الضاد) ب(الحاء) قائمة.

ولقرب السين من الصاد في المخرج الصوتي، فهي أيضا في الأمازيغية تصير أحيانا زايا، مثل:

- (**إزّلوان**): الأفراح، (السلوان).

وكذلك إبدال (الجيم) ب(زاي)، وهي ظاهرة تكثر عند العرب المغاربة، فيقولون للعجوز (عزوز)، وللزواج (زواز)، وللجزيرة (زَزيرة) أو (دْزيرة). ومنها في الأمازيغية لفظ:

- (تزيري): قمر (جزيرة)، لأنها كالجزيرة على صفحة السماء!

8- ظاهرة التعريف:

ألف ولام التعريف في العربية نوعان: (لام شمسية) و(لام قمرية). أما في الأمازيغية

فتضاف إليهما تاءٌ لتعريف المؤنث، مثل:

أ- بلام قمرية، ترسم الألف وتُنطق، مثل:

- (**الهمّو**): الهم.

- (**الجنّتْ**): الجنة.

- (**الوقتْ**): الزمان.

- (**الفايدتْ**): الفائدة.

ب- بلام شمسية، تُرسم الألف فقط لأنها وحدها تُنطق، مثل:

- (**إمّشْركن**): المشركون، (ابتعدت عن الأصل لأن الميم شُدّت).

- (**إضّوضان**): الأصابع، (ابتعدت عن الأصل لأن الضاد شُدّت).

- (**أثّنيّت**): الطريق غير المعبدة، لأن في العامية (الثّنية).

- (**أدّونيت**): الدنيا.

ج- بتاء التأنيث، مثل:

- (**تحجّامت**): الحمامة.

- (**تمطوث**): المرأة.

- (**تيزوين**): الحسنوات.

- (**تجوريت**): المشية، مؤنث المشي.

9- ظاهرة الأمر:

يصرف فعل الأمر في العربية مرة بألف ومرة بدونها، مثل:

- (أُنظر، إشرب، أَدخِل).. و(قِفْ، قُل، كُلْ)..

وكذلك في الأمازيغية (الميزابية):

أولاً: بألف: - (**أتفرجد**): أنظر، العامية: تفرّج.

- (**أقِّل**): إلتفِتْ.

- (**إتْسلمد**): سَلِّم.

ثانياً: بدون ألف: - (**داوّا**): داوي.

- (**سو**): إشرَبْ.

- (**شَقّْ**): إفتح، شُقْ.

- (**زال**): صلّي.

10- ظاهرة حروف الجر:

حروف الجر عند العامة قد تتفق -في أدائها- مع العربية وقد تختلف عنها اختلافات طفيفة. وذلك بسبب الاختصار وسرعة التداول. فمن اللهجة العامية الليبية الحالية انتقينا الأمثلة التالية:

- (**عما**): مع، مقلوب، (فلان جا عما علاّن)، وأيضا (مع علاّن).

- (**بروحي**): لوحدي، بنفسي، (قعدت بروحي: بقيت لوحدي).

- (عَ): مختصر على، فوق، (حطيتها عالطاولة: وضعتها على الطاولة، أو فوق الطاولة).

- (**ف**): مختصر في ، (قعد فْحوشه: بقى في منزله).

- (م): من، إخفاء النون (..مُصبح: ..من الصباح).

- (ل): إلى، (..لليل: ..إلى الليل).

- (زي): ك، مثل، (راقد زي القطوس: نائم كالقط، أو مثل القط).

- (ب): س، سوف المستقبلية، (بيسافر غدوة: سيسافر غدا).

أما حروف الجر في الأمازيغية (الميزابية) فيتفق بعضُها مع العربية، ويختلف بعضها عن العربية اختلافات جوهرية، ويقترب بعضها الآخر أحياناً من العامية، وذلك بسبب الاستنباط التعويضي والاختراع المحلي الصرف الذي يكتسب خصوصية المكان والمجموعة المحدودة، فلا يعم ولا ينتشر، مثلما حصل مع القبائل العربية قديماً، عندما اكتسبت بالاتفاق خصوصية لهجات ليست عند غيرها. ونسوق بعض حروف الجر التي استطعنا استخراجها من قصيدة المولد النبوي الشريف التي أوردها الأستاذ (محمد دبّوز) مشكوراً في كتابه (تاريخ المغرب الكبير)[25]:

- (أس): من، (أس مكة: من مكة).

- (سَ): ب، (سَصْبَر: بالصبر).

- (فِ): في، (فِالدّونيت: في الدنيا).

- (فْوَ): على، (فْوَاسي: على من)، (فْوَ افرْنسن: على مناخيرهم)، والملاحظ أن (فْوَ) تشبه (فوق) والقاف تُنطق في العامية المصرية ألفا.

- (غَلْ): على، (غَلْحالت: على الحالة).

- (عن): على، (عنجال: أصلها: علجال، والمعنى: من أجل).

- (أمْعَ): مع، (أمع اثّنيّت: مع الطريق).

---

(25) دبوز، **نفس المصدر**، من ص55 إلى ص58.

- (**أنَ**): ك، مثل، (أنجير: كالجير)، (أنتجنويت: مثل المطر).

- (**بْلا**): بدون، بِلا، (بلا تزاليت: بدون صلاة).

- (**د**): س، سوف، ولكنها تلحق بالفعل الماضي لتفيد المستقبل، وأحيانا تكون ذالا معجمة، (يقّيمذ: سيبقى) يقيّم: أقام في الماضي، لأن الفعل الماضي مبدوء دائما بحرف ياء للمذكر، والدال تفيد المستقبل. (تلحقد: ستلحق)، فعل ماض مبدوء بتاء التأنيث وملحق بدال مستقبلية.

- (**د، أد**): حرف عطف، وهي عكس دال المستقبل لأنها بادئة وليست لاحقة، (سَصْبر د الثبات: بالصبر والثبات)، (ماماس أد باباس: أمه وأبوه).

- (**دا**): هذا، (دا سَّحّار: هذا الساحر).

- (**لكن**): لكن، وهي عربية واضحة، (لكن سَصْبر د الثبات: لكن بالصبر والثبات).

11- ظاهرة استعمال النون للربط[26]:

تمتاز العربية باستعمال النون للربط بين وحدتين صرفيتين مثل نون الوقاية وتستعمل بـ(الأمازيغية) أيضا النون للربط، مثل:

- (**القش نتمطوث**): ملابس المرأة.

- (**القش نوركاز**): ملابس الرجل.

---

(26) سعدي، عثمان: **عروبة الجزائر عبر التاريخ**، ط؟، 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ الجزائر، ص ص44-54 (فقد أورد فيها الظواهر التالية: استعمال النون للربط، الضمائر المتصلة، المشتقات التي تبدأ بالميم، ظاهرة -أنيت- وهمزة الوصل).

12- ظاهرة الضمائر المتصلة:

تشترك (الأمازيغية) مع العربية في الضمائر المتصلة أيضا، مثل:

- (**الخلاّت اطّسَنْ**): النساء نمن.

- (**نتْشْ اطّسغْ**): أنا نمت.

- (**نتاشا هطّسْ**): هي نامت.

ومن الغريب أن (الأمازيغية) تشترك مع العربية في عدم ذكر ضمير متصل مؤنث للفعل الماضي، وإنما تكتفي مثل العربية بعلامة التأنيث، وهذه العلامة هي الهاء في أول الفعل. والهاء كالتاء أو من أسرة واحدة وتُستعمل للمؤنث.

13- ظاهرة المشتقات التي تبدأ بالميم:

ومن بين العناصر التي تشترك فيها (الأمازيغية) مع العربية بعض المشتقات التي تبدأ بالميم، مثل اسم المكان، مثال:

- (**تامردومت**): المكان الذي يعد فيه الفحم الخشبي.

والتاء هنا لتعريف المؤنث. وقد أشار إلى الكثير من هذه الصفات المشتركة في البنية اللغوية بين (الأمازيغية) والعربية، العالم اللغوي الأمريكي (غرينبرغ) في كتابه (لغات أفريقيا).

14- ظاهرة (أنيت) وهمزة الوصل:

مما يؤكد أصالة اللغة (الأمازيغية) في جذورها العربية اشتراكها مع العربية في استعمال حروف (أنيت) المعروفة في العربية، وهمزة الوصل:

- (**اخسا ايطسْ**): يريد أن ينام (الياء في أول الفعل).
- (**ياللا انّطّسْ**): هيا ننام (النون بأول الفعل).
- (**اخسا اتّطّسْ**): تريد أن تنام (التاء بأول الفعل).
- (**اخسا اضطسّغ**): أريد أن أنام (الهمزة بأول الكلام).

ثالثاً: الظواهر والخصائص في مجال بناء الكلمة:

وردت ضمن الظواهر السابقة مجموعة من المفردات قمنا بشرح أو تأويل بعضها في إبّانه، ونعود إليها وإلى غيرها الآن لنتفحصها منفصلة عن جملها، علّنا نجد لها جذوراً عربية أو -على الأقل- فروعاً تقرّبها إلى تلك الجذور. ولنرى ما مدى تأثيرها وتأثرها باللهجات الدارجة المتداولة بين سكان المغرب العربي. ولنكتشف الخصوصية المحلية التي انفردت بها تلك اللهجات عن سائر لهجات العرب الأخرى.

اعتمدنا -في دراسة هذه الألفاظ- على رفع بعض الغموض الذي يكتنفها جرّاء السكون والدمج والصوت المنغلق، والتي يراها غير المتكلم باللهجات المغاربية عامة أنها صعبة القراءة والنطق:

اقتطفنا هذه الكلمات من قصيدة باللهجة الميزابية قيلت بمناسبة المولد النبوي الشريف،

وهي مقيدة بالقوافي والتفعيلات المعروفة في علم العَروض[27]، وبعض الألفاظ الأخرى[28].

1- أفعال:

- (**يلّولَد**): وُلِدَ. (الفعل في الماضي المبني للمجهول، وحرف الياء دليل على الماضي، وكذلك على التذكير).

- (**تضْوا**): أشرقت، وهي من الضياء. (فعل ماض، وحرف التاء دليل على الماضي، وكذلك على التأنيث).

- (**زال**): صلِّي. (فعل أمر من صلّى، فيه إبدال بين الزاي والصاد).

- (**اتْسَلْمَدْ**): سلِّم. (فعل أمر من سلَّمَ، وفيه شيء من المستقبلية، لأن حرف الدال يفيد ذلك. اللفظ مبدوء بالهمز لأن التاء ساكنة).

- (**تُوليد**): وُلِدَتْ، وتفيد: طلع البدر. (الفعل في الماضي المبني للمجهول، والتاء دليل على الماضي، وكذلك على التأنيث).

- (**تْشَعْشَعْ**): تلألأت. (وهو فعل مستنبط من أشعة الشمس والقمر وكافة الأنوار). و(العامة يقولون: النور يشعشع، أي: يتلألأ: شعّ، يشع، شعاعا).

- (**انّاوي**): نغني، (نحن). (فعل مضارع). (النوى: مقام موسيقي عربي، والناي: آلة موسيقية عربية. ونحن نقول للأغاني: غناوي).

- (**يمّوت**): مات. (فعل ماض، والياء دليل على الماضي والتذكير معا، ومؤنثه:

---

(27) نظّم هذه القصيدة الشاعر: باجو صالح، وشرحها: دبّوز: **مصدر سابق**، ص ص55-58.

(28) هي أمثال متنوعة: دبّوز: **مصدر سابق**، ص53،52.

تموت).

- (**تَلْحَقْ**): التحقت. (التاء الأولى للماضي والتأنيث).

- (**زَرْقد**): الماء يسيل من النبع مثلا. (وفي العامية: يزْرُقْ: يفلت، يمر بسرعة، يخرج من مكان ضيق. وماء النبع يخرج -يزرق- من فجوات ضيقة بين الصخور).

- (**تْشَقْ**): انشقت. (فعل ماض، مؤنث).

- (**نجْمضْ**): نتوقف عن مواصلة السير. (فعل مضارع. لاحظ بدايته بالنون. وأصل اللفظ: جمض، والضاد تُنطق أحيانا دالا أو بصوت كصوته، فتصير: جمد: نجمد أو نتجمّد، أي نتسمّر في مكاننا ونتوقّف).

- (**يمّرْقد**): حالة اليتيم ينام وحيدا. (في اللسان: إرقَدَّ: إذا مشى على وجهه. وتعني أيضا: النوم والرقاد. وفي العامية تأمر المرأة صغيرها بالنوم: مرقد).

- (**إنْسَيِّبْ**): نترك، (نحن). (وهي عامية واضحة. لاحظ النون: من حروف انيت).

- (**نقّرّبْ**): نقترب، نوشك، (نحن). (وهي عامية واضحة. لاحظ البداية بنون).

- (**آنْعادْ**): نعود، (نحن). (لاحظ البداية بنون).

- (**إعوعِشْ**): الديك صاح. (وفي العامية: الديك يذّن: يؤذن!. وعندما يصفق بجناحيه استعدادا للصياح فهو: يعوعش).

- (**اتفورجْ**): شاهد، نظر. (العامية: تفرّج).

- (**إيبَدّلْ**): تغير، تبدّل. (والفعل في الماضي).

- (**يدْبرْ**): مضى، أدبر. (وهي عربية خالصة).

- (**داوّا**): داوي. (فعل أمر من داوى: عالج).

- (**اتشّفّعْ**): اشفع. (فعل أمر من شفع).

-(**يطّاوَدْ**): سيصل. (الدال: سوفية. يطّاوّ: يطأ بقدميه المكان المقصود).

- (**يخْدِمْ**): عمل، اشتغل. (من الخدمة، وهي في العامية عادة).

- (**تحْما**): اشتدت حرارتها. (وفي العامية: الشمس تحمى أو تسخن: تشتد سخونتها).

2- أسماء:

- (**آرَبّي**): اللهم. (تُسمع كما لو كانت: يا ربّي، والياء -هنا- للمد وليست ضميرا متصلا، أي: يا رب).

- (**أدُّونيتْ**): الدنيا. (مُعرّفة بلام شمسية غير منطوقة).

- (**أمّيدنْ**): الناس. (النون للجمع: آمد مقلوب آدم: آدميون).

- (**اجّنْوان**): السماوات، جمع: أجّنّا: السماء، (للاعتقاد السائد بأن مكان الجنّة في السماء).

- (**أجّنّتْ**): الجنة. (وهي عربية باستثناء التاء المفتوحة والتعريف بلام شمسية).

- (**تَجْنُويْتْ**): المطر. (لأن أجّنّة: السماء، والمطر ينزل من السماء).

- (**تْزِيري**): قمر، بدر. (وفيه إبدال بين الزاي والجيم: جزيري، لأن البدر عندما يكتمل يصير كالجزيرة في وسط السماء).

- (**أزّلْوان**): الأفراح. (وهو مُعَرّف بلام شمسية. وفيه إبدال بين الزاي والسين: السلوان، السلوى والتسلية..).

- (**أنّيتْ**): النية. (كأنها بلام شمسية. وتعني أيضا: الإخلاص).

- (**أتْزاليتْ**): الصلاة. (وفيه إبدال الصاد بزاي).

-(**أزومي**): الصوم. (وفيه إبدال الصاد بزاي. وتعني أيضا: رمضان).

- (**سَعْدِكْ**): ما أسعدكِ. (والسعد هو الحظ، والمعنى: ما أقوى حظكِ).

- (**لَعْيالْ**): الزوجة. (ومعظم المغاربة متفقون على هذا الاسم، وكذلك: العيلة والعايلة، لأن الزوجة هي أم الأولاد: العيال، وأم العائلة: العيلة).

- (**إيّارْ**): شهر. (وأيار أحد شهور السنة. والجمع: إيارن).

- (**لِيتيمْ**): اليتيم. (بلام مكسورة بدل اللام القمرية).

-(**نِيرْ**): نور. (من أنار ينير نورا، لذا يكون إبدال الواو بياء مقبولا في اللهجة).

- (**ماونْ، ماين**): فم. (من الجذر العربي: م و ن. والفم يموّن الجسم بالغذاء والماء. والمصدر: تموين، لذا يكون تعاقب الواو والياء مقبولا).

- (**تيغْمَسْ**): ضرس. (لأنها تنغمس في الطعام -اللحم مثلا- عند قضمه ومضغه).

- (**إفْرِنْ**): مناخير الأنف. (في العامية يقولون: فلان ينفر خشمه، أي: يخرج المخاط من أنفه وينقيه. ويفرن في الأمازيغية: ينقي، والأنف جهازٌ لتنقية الهواء الداخل إلى الجسم. وفي اللفظ حروف مقلوبة: ينفر و يفرن).

- (**لْجير**): الجير. (لام قمرية).

- (**صْبَرْ**): الصبر. (مبدوءة بسكون، كأنها لام شمسية).

- (**ثْباتْ**): الثبات. (لام شمسية).

- (**لْيَقينْ**): اليقين. (اللام الساكنة كأنها لام قمرية).

- (**أمان**): ماء. (والعامة يسمون الماء: آمان).

- (**ايوريرن**): جبال. (مفردها: أورير. و لفظ أور في اللغات القديمة يعني: الجبل والبناء والمدينة، لأن المساكن قديما كانت تُنحت في الجبال. وأور شليم: مدينة السلام).

- (**أجلّيدْ**): الملك. (الجليل، الجلاّد، ربما لأنه –دون غيره– يحكم بالجلد وما سواه).

- (**إيجدْلْ**): جدول، حوض الماء حول الشجرة. (الجمع: ايجدلاون).

- (**إتْناستْ**): مفتاح. (إن قفل الباب بالمفتاح يوفر الحماية والأمن والأنس. والإسم –هنا– مؤنث، والمفتاح يذكّر ويؤنّث).

- (**الهمّو**): الهم. (كأنها مرفوعة بالضم).

-(**أبْريدْ**): الطريق. (البريد: منازل على الطريق. واللام شمسية في أبريد رغم أنها قمرية في البريد).

- (**غفْلتْ**): غفلة. (وهي عربية واضحة باستثناء فتح التاء).

- (**إمْشرَكَنْ**): المشركون. (لاحظ نون الجمع).

-(**لْفايْدِتْ**): الفائدة. (وهي عربية باستثناء فتح التاء وتسهيل الهمز).

-(**لْحالَتْ**): الحالة. (وهي عربية بعد ربط التاء).

- (**مْلاقا**): الملتقى. (وهي عامية واضحة).

- (**إلإبْلا**): المرض، البلاء. (وهي في العامية كل مصيبة، منها المرض).

- (**قنْطارنْ**): قناطير. (النون الأخيرة للجمع، لأن المفرد: قنطار).

- (**اظِّل**): الظل.

- (**لْقايِلتْ**): الظهيرة. (وفي العامية: القايلة: القيلولة).

- (**اصّيفْ**): الصيف.

- (**تواساعتْ**): واسعة، أو اتسعت.

رابعاً: الضمائر:

1- ضمائر منفصلة:

الضمائر في اللهجات الأمازيغية الليبية تُنطق من قبل أصحابها بصورة تبدو غريبة وبعيدة كل البعد عن الضمائر التي في اللغة أو في اللهجات العربية. ولكن بعد دراستها وتفحصها تتجلى حقيقةٌ كانت مخفية بين حروفها المركّبة منها. وتتمثل تلك الحقيقة في كون الضمير الأمازيغي مركّب بصورة لا نستطيع -حالياً على الأقل- تحديد مداها التاريخي ومصدرها التي أخذت منه. إلاّ أن المواد الأولية التي بُنيت بها تلك التراكيب هي نفسها التي بُنيت بها تراكيب الضمائر العربية الحديثة، ولها أثر في اللغات العروبية القديمة. فكان لنا فيها اجتهاد مبدئي، وذلك حسب الضمائر التي استخرجناها من اللهجات الأمازيغية المستعملة حالياً في مدن الجبل الغربي والصحراء الجنوبية بليبيا الحالية، وكذلك اللهجة الميزابية بالجزائر والعامية الليبية. وهذه اللهجات رمزنا لها بالرموز التالية: (**جادو**: جد)، (**نالوت**: نل)، (**كاباو**: كب)، (**يفرن**: يف)، (**زوارة**: زر)، (**توارق-أوباري**: تر-أوب)، (**توارق-آيير**: تر-آيير)، **إضافة لـ**(**الميزابية**: مز)، **والـ**(**العامية**: عم):

بداية، نستعرض هذه الظواهر:

أ)- ترتكز كل الضمائر العربية على حرفين أساسيين، هما: (ن) و(هـ).

– (النون): في (أنا، أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن، نحن)، مضاف إليها حرفا (م) و(ن) كعلامتي جمع: (أنتما، أنتم، أنتن، نحن)، والهمزة التي في بداية الضمائر الثلاثة الأولى جاءت لتسهيل نطق السكون الذي فوق النون الأولى، بدليل أنها حُذفت في (نحن) لأنها مبدوءة بنون مفتوحة.

– (الهاء): في (هو، هي، هما، هم، هن) مضاف إليها حرفا (م) و(ن) كعلامتي جمع: (هما، هم، هن).

ب) – نلاحظ أن مجموعة (النون) الأولى كلها ضمائر خطاب، ومجموعة (الهاء) الثانية كلها ضمائر غياب.

جـ)- بالعودة إلى ظاهرة الجمع في اللغات (اللهجات) القديمة، نجد فيها تعاقب الميم والنون، وكذلك في حالة التثنية والتنوين (التمييم قديماً).. وبقيت آثار هذه الظاهرة في اللغة العربية، وبطريقة محرّفة قليلا في اللهجات الأمازيغية.

د)- بالعودة إلى مجموعة الحروف العربية، نجد أن حرفي التاء والهاء ينتميان إلى نفس العائلة الحرفية، بدليل أن العرب عاملاهما بنفس الربط في أخر الكلمة، ونطقوا التاءَ هاءً عند الوقف.

نلاحظ أن كل الظواهر السابقة متأصلة في الضمائر الأمازيغية، مثل:

– (أنا) : نتّشْ [جد] و[زر] و[يف]، نِتْشي [نل]: يرتكزان على حرف النون الذي في (أنا). أما حرفا (ت ش) فأصلهما (ك) نُطقت هكذا (تش) تبعاً لظاهرة الكشكشة التي عند قدماء اليمن. ويضيف الدكتور خُشيم أن هذا الضمير في: المصرية

القديمة: (إنك)، وفي الأكّدية (أناكُ)، وفي الكنعانية (أنك)، وفي العبرية (أنوكي/ أنوخي)، وفي اليمنية القديمة (أني)، وفي لهجة طي العربية (أنَهْ)، وفي لهجة بلدة الحجرية في اليمن (أنأْ) وفي العربية المضرية (أنا).. وهنا يتضح أن الأصل (نك)[29]. فنُطقت الكاف في بعض اللهجات الأمازيغية (تش) وبقيت النون على حالها، كما ذُكر.

– (نحن) : نِتْشِنْ [جد] و[زر] و[يف] و[نل]: وهو مركّب من الضمير المفرد (نتش: أنا)+ (ن الجمع). وأصل (تش) كافاً مكشكشة، أي الأصل (نكن)، وقد تُبدّل الكاف بخاء: (نخن)، وفي بعض اللهجات القديمة تستبدل الحاء بخاء، وكذلك في اللهجة التارقية الحالية.

– (أنتَ) : شِكْ [جد] و[نل] و[كب]، شِكّيْنْ [زر]، إنشِكْ [يف]: جميعها يرتكز على حرف (الشين) القديم الذي أصله (كاف)، و(ك) المخاطب العربي الحديث، مثل: بيتك، أمّك..

– (أنتم) : شِكْوَنْ [جد] و[كب]، شِكّنْ [نل]: مركّبان من الضمير المفرد (شك: أنتَ)+ (ن الجمع). أما نِكْنِيمْ [زر] و كِينِيْو [يف] فهما مركّبان من (ك المخاطب)+ (ن أو م الجمع). وفي الأكّدية: في حالة الرفع (أتّنُ) وفي حالة النصب والجر (كُنوتِ): إياكم العربية[30].

– (أنتن) : شِكْمِتْ [جد] و[نل]: وهما مركّبان من الضمير المفرد (شك: أنت)+ (م الجمع)+ (ت التأنيث). أما نِكْنِيماتْ [زر] فمُضاف إليها (ات) علامة

---

(29) أنظر: خشيم: مصدر سابق، ص3-40.

(30) أنظر: سليمان، د. عامر: اللغة الأكّدية، ط2، 2005، الدار العربية للموسوعات، بيروت/ لبنان، ص225.

جمع المؤنث السالم العربية.

– (هو) : نِيتْ [جد] و[زر] و[نل] و[يف]: يرتكز على حرف (النون) الذي في (أنا) العربي وهو أساس معظم ضمائر المخاطب، وكذلك الضمير الأمازيغي (نتشن: أنا) وهو أساس معظم ضمائر الغائب. ويضاف إلى حرف (النون) حرفُ (التاء) الذي يشترك مع (الهاء) في نفس الأسرة الحرفية كما سبق الذكر. وقد يؤيد هذا المذهب وجودُ حرف (التاء) في كل ضمائر الغائب كما سنرى، إذن فهو ليس للتأنيث. ويضيف الدكتور خُشيم أن هذا الضمير في المصرية القديمة (نتف)، والفاء مزيدة على (نت).

– (هي) : نِيتّتْ [كب] و[يف]: وهو مؤنث الضمير (نيت: هو)+ (ت التأنيث). وهذا دليل آخر على أن التاء الأولى أصلها (هاء)، أما الثانية فهي فعلا للتأنيث حتى وإن كان الضمير غائباً. وهذا الضمير في المصرية القديمة (نتس)، وفي الحبشية (يئيتي)[31]، وفي الأكّدية (شي) في حالة الرفع، و(شِآت) في حالة النصب والجر[32].

– (هم) : نيتّنْ [جد] و[كب] و[نل] و[يف]: وهو جمعٌ للضمير المفرد (نيت: هو)+ (ن الجمع). ونجدها في المصرية القديمة (نتن)، وفي لهجة سيوة (انتاتّن)، وفي التارقية (سن) وتقابل المصرية في إحدى مراحلها (سن) كذلك[33]. وفي الأكّدية (شُنُ) في حالة الرفع، و(شُنوتِ) في حالة النصب والجر[34].

– (هن) : نيتّنْتْ [جد]: وهو مركّب من الضمير المفرد (نيت: هو)+ (ن

---

(31) أنظر: خشيم: مصدر سابق، ص3-42.

(32) أنظر: سليمان: مصدر سابق، نفس الصفحة.

(33) أنظر: خشيم: مصدر سابق، نفس الصفحة.

(34) أنظر: سليمان: مصدر سابق، نفس الصفحة.

الجمع)+ (ت التأنيث). **أما نِيتْنيات [زر] فواضح فيه صيغة جمع المؤنث السالم** (ات).

ملاحظة: لا يوجد ضمير مثنى في الأمازيغية، فيكتفون بإضافة علامة التثنية (سن)، وهي من أصل الثنائي العربي (ث ن): إثنان (وفيها إبدال الثاء بسين). فيقولون لـ(هما) مثلا: نيتن ألْسِنْ، أي (أنتم الإثنان)، لاحظ ال التعريف في (ألسن).

2)- ضمائر متصلة :

في كثير من اللغات العالمية المعروفة – اللاتينية مثلا – لا توجد فيها ضمائر متصلة، فهي كلها منفصلة، علاوة على ورودها قبل وبعد الاسم، مثل: الإنكليزية (**My** son)، (Take **it**)، والفرنسية (**Mon** fils)، (Prend **la**). أما في اللغة العربية فلا يكون إلا متصلاً وملحقاً بنهاية الاسم، كذلك في اللهجات الأمازيغية:

- (**نا**) : **ـنغ**: وقد شرحنا هذه اللاحقة عند الحديث عن اللهجة (الميزابية)، وقلنا أن (**الغين**) تزيد من انغلاق (**النون**) أثناء المد، إلى درجة أنها لا تُسمع بوضوح تام أثناء النطق. كما قلنا أيضا أن (**الغين**) مبدلة بـ(**العين**) المبدّلة أصلا بـ (**الألف**)، وهي ظواهر لهجية قديمة.

- (**ـه، ـها**) : **ـس**: وهي ظاهرة بابلية قديمة، تجعل من الهاء سينا، ثم ظهرت عند قدماء اليمن الذين عُرفت عنهم ظاهرة (**الوتم**) إذ يجعلون السين تاءً، مع ملاحظة أن التاء والهاء من نفس العائلة الحرفية، حتى أن التاء المربوطة تُنطق هاءً عند الوقف –كما سبق الذكر-. وفي بعض اللهجات مثل [كب] يُنطق هذا الضمير بهاء، مثل: **ـنيه** : (ـه، ـها).

- (**هم، هن**) : **ـسن**: (**س** : **هـ**) مشروحة أعلاه، أما (**ن** : **م**) فهي علامة لجمع المذكر والمؤنث. وأحيانا يضاف له (ت التأنيث) مثل: **ـسنت** :(هن).

- (**ـم، ـن**) : **ـن**:: وهي كالعربية تقريباً، لولا إبدال الميم بنون عند التذكير. وفي بعض اللهجات مثل [نل] يُنطق الضمير (**ـنكم**) بميم واضحة.

- (**ـي**) : **ـي**: وهي كالعربية تماما. إلاّ أنه في معظم اللهجات يُنطق هكذا: (**ـنو**) الواو بدل الياء.

- (**ـكَ، ـكِ**): **ـكِ**: وهي كالعربية. وقد تختلف عنها الميزابية في إبدال الكاف بشين تماشيا مع ظاهرة (الكشكشة) اليمنية القديمة.

الخلاصة:

من خلال ما قدّمناه في هذا الفصل، اتضحت لنا جملة من الحقائق، لم نكابد مشقة في التقاطها. لأن في كثرتها ووضوحها ما أتاح لنا تجميعها، وليس اصطيادها. وانتقينا منها ما يحقق لجميعنا اشتراكية البناء التاريخي والحضاري والثقافي للعروبة والإسلام.

فقد اتضح -بما لا يدعو مجالاً للجدل البيزنطي العقيم- أن لسكان الشمال الأفريقي صلات قوية وأصول متينة تربطهم بأصحاب الحضارات الأولى، التي اتفق كل المؤرخين والعلماء أن مسرحها كان شبه جزيرة العرب. فالليبيون هم أبناء عمومة الكنعانيين والفلسطينيين والشاميين واليمنيين والمصريين، الذين عمّروا سواحل وجبال وسهول وصحاري هذه الرقعة الواسعة الممتدة من النيل شرقاً إلى بلاد شنقيط غرباً، والتي أطلق عليها -منذ القديم- اسم (ليبيا).

إن قدماء الليبيين: هم أصحاب الرسوم والصور والكتابات (البيكتوغرافية) التي تمتلئ بها جبال جنوب ليبيا والجزائر. وهم بناة الحضارة الحجرية في كل من درنة وقفصة ووهران والدار البيضاء. وهم سادة الصحراء الكبرى من قبائل الجرمنت. وهم البونيقيون والقرطاجيون الذين قاوموا الرومان بشراسة فريدة اشتهروا بها. وهم النوميديون والموريطانيون الذين ساهموا في توحيد المغرب العربي الكبير تحت إمرة أغاليدهم. وهم الجمّالة راكبو الجمال، الذين دحروا الوندال. وهم أجداد طارق بن زياد فاتح الأندلس ومهيأ حضارة العرب الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا. وهم أبطال المعارك وقاهرو المحتل الأجنبي من إغريق وورومان وبيزنطيين وأسبان وفرنسيين وطليان. فبذلوا -في سبيل هذه الوطن- الأرواح والدماء، وحفظوها لنا كما أرادها الله أن تكون: عربية إسلامية.

وقد أكّد صلة اللهجات المغاربية الخاصة والعامة باللغة العربية جملةٌ من الشواهد اللغوية، من أصالة ونحت واشتقاق ونقل وتعريب ووضع.. وهي شواهد يكاد لا يخلو منها لفظ

من ألفاظ تلك اللهجات.

كما تُوطّد تلك الصلة عدةُ قواعد لغوية كالجمع والإفراد والتأنيث والتذكير وتصريف الأفعال وعلاقة الضمائر بها، بصورة لا يمكن مطابقتها مع غير العربية.

علاوة على اشتراكها مع العربية في مخارج صوتية لا توجد عند أي قوم آخر خارج حدود هذه الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج.

الفصل السادس

الكتابة الليبية القديمة

أولاً: الرسوم الصخرية:

لم يستخدم ليبيو المناطق الجبلية الجنوبية -كغيرهم من شعوب العصور الحجرية المتأخرة- حروفاً معيّنةً لتدوين وتسجيل أمورهم اليومية، وكل ما استعملوه كان رسوماً تمثل مشاهد الصيد واستئناس الحيوانات ومراسم يبدو أنها دينية، وغير ذلك من الأفكار البدائية التي كانت سائدة وقتذاك. فقد وُجدت آلاف الصخور المرسومة في عشرين موقعاً، في ليبيا الحالية وحدها، «**معظمها في فزّان -في زاوية براك ومرزق وسبها- وفي جبال (تبستي) وفي موقع ببرقة قرب حدود مصر والسودان، وفي أربعة أماكن من جبال منطقة طرابلس أيضاً**»[35]. وقد اهتم علماء الآثار الغربيون بهذه الرسوم، فلاحظوا أن الإنسان الليبي القديم -في مرحلة العصر الحجري الحديث- بدأ يتجه إلى زيادة التعبير عن أفكاره بعد أن توفر له الوقت والقدرة الفكرية ودقة الملاحظة، "**فقام بعمل نقوش كثيرة على بيض النعام وعلى صخور الهضاب والجبال تعبّر عن مفاهيمه الاقتصادية والدينية**»[36].

وكان أول من لاحظ أهمية تلك الرسوم "**هو البحّاثة الألماني (هرنيش بارت) سنة 1850، غير أنها لم تُدرس بالتفصيل إلاّ في السنوات الثلاثين الماضية، وبقيت الكثير من الرسوم تحتاج إلى عشرات السنين لفحصها ودراستها**»[37].

وقد أعطت هذه النقوش والرسوم انطباعاً عاماً عن حياة ذاك الإنسان من حيث أساليبه المتعددة في التعامل مع الحيوانات الأليفة منها والمتوحشّة، ووسائله المحدودة المستخدمة

---

(35) رايت، جون: **تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور**، تعريب: عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري، ط1، 1972، دار الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص13.

(36) الناضوري، د. **رشيد: تاريخ المغرب الكبير**، ط؟، 1981، دار النهضة، بيروت/ لبنان، ص ص138-139.

(37) رايت: **مصدر سابق**، ص14.

في ذلك، وطرق التعبير عن أفكاره البسيطة، ولم يستفد الباحث أكثر من ذلك. فالرسوم المكتشفة لا تسعفه لمعرفة المزيد، وطريقة رسمها لا تمكّنه من تحديد تواريخها بالدقة اللازمة، ولكن العثور على آثار الإنسان بجوارها يساعد على تحديد بعض التواريخ التقريبية لها.

1- الجوانب الفنية للرسوم الصخرية:

تكمن أهمية هذه الرسوم في كونها لوحات خطية تندرج ضمن فصيلة الكتابة التصويرية (البيكتوغرافية) التي تعطي لمشاهدها بعض الدلالات الكلامية، أو على الأقل انطباعات معينة عن حياة رسّاميها وأساليب عيشهم وطرق تفكيرهم، وبالتالي تعطي للدارس فكرةً عمّ يمكن أن يستشفه منها من عناصر تاريخية، ويكفي تقسيم الأدوار الخمسة سالفة الذكر دليلاً على ذلك. ولهذه الرسوم أهمية أخرى تكمن في المادة التي أنتجت بواسطتها حتى حافظت على خطوطها الدقيقة وألوانها الزاهية منذ آلاف السنين إلى الآن. وهو أمر مستغرب ومحيّر. فهل يمكننا اعتبار أن حاجة ذاك الإنسان البدائي أجبرته على اكتشاف ما في الطبيعة حوله من عناصر فتحت عقله وبصيرته على علوم الفيزياء والكيمياء البسيطة في ذاك الزمن المبكر ولو بقدر ضئيل من المعرفة المتعمدة أو الصدفة المفاجئة؟ العلماء المكتشفون لتلك الرسوم يحققون لنا شيئاً من الإجابة عن هذا السؤال المفترض. فإلى جانب المعاناة اليومية المريرة والجهود المضنية التي كان يقوم بها ذاك الإنسان الحجري في توفير لقمة العيش له ولأفراد أسرته. كان يصنع السكاكين والفؤوس والسهام الحجرية لاصطياد حيوانات ضخمة لا يقدر عليها إلا بالمطاردة الجماعية أو بنصب الكمائن لها والإيقاع بها ليسهل عليه قتلها ومن ثم تقطيعها والتهامها نيّة ثم مشوية بعد اكتشاف النار. والقيام بهذه المهام يحتاج إلى مهارة عالية في تطويع الحجارة لتصير أدوات سهلة الاستعمال يمكن التفريق فيها بين المقبض الآمن والنصل الحاد المؤدي للوظيفة، وإضرام النار في الأعشاب اليابسة والأخشاب الجافة لتصير وقوداً يستفاد منه في طهي الطعام والتدفئة

وطرد الوحوش الخطيرة. كما تتطلب قدرة فكرية بالمستوى الذي يتيح له نصب الكمائن والتحايل على إسقاط فريسته من الأعالي -حسب حجمها ونوعها ومكان وجودها- أو جلبها إلى الأماكن التي تخور فيها قواها وتشعر بالوهن ثم تستسلم وتتيح سرعة اصطيادها. كل ذلك ساعد الإنسان على تنشيط حركته العضلية والجسمية تماماً مثلما ساعده على تنشيط حركته الفكرية والعقلية. ومهما كانت الغاية من تلك الرسوم، هل هي تعاويذ سحرية لطرد الأرواح الشريرة ومباركة مغانم الصيد، أو هي وسيلة من وسائل الإيضاح وشرح الدروس في الصيد للأطفال وتدريبهم عليه، أو هي رسم مسبق للخطط والعمليات المزمع القيام بها في الغد، أو هي طريقة من طرائق قتل الفراغ عندما تثور الطبيعة في الخارج باضطراباتها الجوية من أمطار وزوابع ورياح وعواصف وغيرها، أو هي رسوم من صنع النساء دون الرجال تمارس من خلالها الزوجة هوايتها من قبيل التسلية وانتظار عودة الزوج.. ومهما تعددت الأسئلة وتنوعت الافتراضات إلاّ أنها تفرض علينا الاعتراف بأن مجرد التفكير في رسمها يعطي الانطباع بقدرة ذاك الإنسان على صنع حضارة لم تكتف بصنع الأدوات والأسلحة الحجرية فحسب وإنما ارتقت إلى مصاف الفنون الجميلة التي نقيم لها اليوم الجامعات والمعاهد والمدارس، ونستورد لها أصناف الأصباغ والألوان والفرش والسكاكين الخاصة والسطوح الورقية والخشبية والقماشية وغيرها. أما سكان أكاكوس فقد أوجدوا كل ذلك من المواد الأولية التي تجود بها البيئة من حولهم وصنعوا لوحات فنية لم تتأثر بالسريالية ولا الكلاسيكية ولا التجريدية ولا التكعيبية.. ولا بغيرها من مدارس الفنون التشكيلية المعروفة، بل كان كل ذلك من صميم أفكارهم البدائية التي تعتمد فقط على الطبع والسليقة والفطرة.

وبالعودة إلى الأحبار والأصباغ والدهون والألوان المستعملة في تلك اللوحات يندهش المرء إذا علم أن البحوث التي أقامها العلماء على التحليل الكيميائي لتلك المواد أظهرت أن سكان جبلي أكاكوس وتادرارت استخدموا خلطات كيميائية من هيدروكسيد الحديد ممزوجة بلازب مقاوم يرجع إليه الفضل في احتفاظ اللوحات بألوانها كل هذه المدة. وربما كان ذاك

اللازب مستخرجاً أو مستخلصاً من دهون الحيوانات أو النباتات أو بياض البيض. وقد كشفت البحوث عن وجود مواد بروتينية من نوع كاسئين الحليب. ولهذا اللازب ميزات غير عادية في البقاء[38]. وقد تُستثنى هذه المواد الأصيلة في اللوحات من المواد الأخرى العالقة بها نتيجة غزو مائي أكسبها طبقة من الجص الأبيض البلوري، إلاّ أن البعض يرشح أن تلك الطبقة كانت مقصودةً من الرسام نفسه وليست بسبب عوامل الطبيعة.

أما عن الأداة التي تم بها طلاء مساحات الرسوم اللونية والخطوط الرفيعة المحددة لمحتوياتها فهي فرش دقيقة جدا، ولا يبالغ الدارسون لهذه اللوحات عندما يقولون أنها أكثر دقة مما يستعمله الفنانون في عصرنا هذا. فقد تصوروا أن تلك الأدوات لا تغدو كونها فرشاً حقيقيةً مصنوعةً من شعر الحيوانات أو من ريش الطيور ولكن بدقة مكّنتهم من إخراج لوحات غاية في التناسق الشكلي والتناغم اللوني المتنوع بين أصفر وأخضر وأحمر وأحيانا أسود، تعكس -في مجملها- ذوقاً رفيعاً خالصاً وموهبةً على درجة عالية من الصقل والتمكّن التقني.

2- محاولة قراءة الرسوم الصخرية:

لا يحتاج الدارس لتاريخ ليبيا القديم إلى الآلية التي استخدمها (شامبليون) و(غروتفند) عندما فكّا رموز الكتابة الهيروغليفية في وادي النيل والكتابة المسمارية في بلاد الرافدين، بقدر ما يحتاج إلى فحص الأدوات وتحليل المخلّفات وتأمل الرسوم المنحوتة على الصخر، حيث يقول (جوليان أندري): "**خلّف لنا الأفارقة الذين عاشوا في عصور ما قبل التاريخ زيادة على آلاتهم وبقايا مآكلهم صخوراً منقوشة يسميها الأهالي (الحجرات المكتوبة)، وكانت هذه الحجارة الموجودة بكثرة في عدة جهات من أفريقيا الشمالية مادة للأبحاث التي**

(38) هزغو: نفس المصدر السابق، ص42.

قام بها (**ج. ب. فلامون) مدة أربعين سنة**»[39]. ورغم خلوّ هذه الحجارة من الكتابة إلّا أن (فلامون) يسميها (الحجارة المكتوبة Les pierres écrites)، لاعتقاده أنها تمثل نوعاً من كتابة تحتاج من الدارس إلى فك رموزها. لذا، بدأ المهتمون بها يلاحقونها بالبحث والدراسة ويضعون لها قوائم لحصرها، «**وإذا كانت قائمة هذه الصخور المنقوشة لم تكتمل بعد اكتمالاً كلياً، فإننا نجد بين أيدينا جملة وثائق كافية لتمكيننا من بحث إجمالي**»[40].

ويمكن للدارس أن يشرح تلك الرسوم، بالفحص والتدقيق تارة، وبالتأمل والتخيّل تارة أخرى. وقد تمكّن فعلاً العديدُ من الخبراء من فك بعض أسرار تلك الرسوم، والخروج منها بنتيجة مرضية حول حياة الإنسان الليبي القديم. ويمكننا هنا أن نلخّص بعضها في العناصر التالية[41]، وذلك بقصد البرهنة على القيمة التاريخية التي احتفظت بها تلك الرسوم على مدى آلاف السنين:

- ظهور رجال عراة يطلقون السهام على الوحوش الضخمة (دليلاً على بدائية الإنسان الليبي القديم).
- ظهور الفيَلة والزرافات ووحيد القرن والحيوانات البرية التي ترعى السافانا والحشائش (دليلاً على وجود حياة خصبة واسعة).
- ظهور التماسيح وأفراس النهر (دليلاً على وجود أنهار ومستنقعات نتيجة غزارة الأمطار).

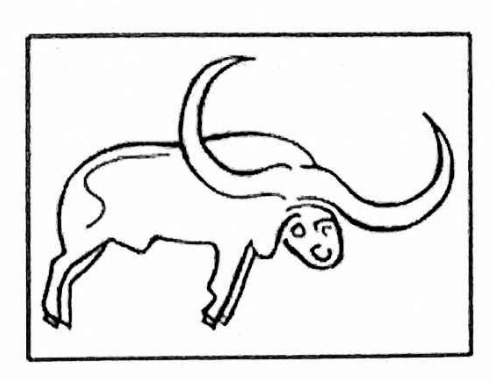
---

(39) وهو باحث فرنسي أصدر كتابا عن تاريخ هذه المنطقة سنة 1921 بعنوان (الحجارة المكتوبة)، أنظر: جوليان، شارل أندري: **تاريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب: محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط؟، 1969، الدار التونسية للنشر، ص58.

(40) جوليان: **نفس المصدر السابق**، نفس الصفحة.

(41) استخلصنا هذه المعلومات من العديد من المصادر يصعب تصنيفها، مع زيادة وتصرف.

• ظهور الجاموس القديم، وهو حيوان ذو قرنين طويلين جدا (دليلاً على أن الزمن الذي رُسم فيه هذا الحيوان هو آخر عصر البليستوسين).



تمثل الصورة حيوان (الثيتل)، وادي دجيرات في تاسيلي.[42]

• ظهور الملامح الزراعية وتربية الحيوانات (دليلاً على تطور فكر الإنسان الليبي القديم وسعيه للاستقرار وتحسين ظروفه الاقتصادية والمعيشية).

• ظهور الحصان الذي يشبه الحمار (دليلاً على بداية استئناس هذا الحيوان القادم من الشرق).

• ظهور لابسي جلود الحيوانات وريش الطيور (دليلاً على دخول الإنسان الليبي القديم مرحلةً أكثر تطور خاصة في مجال اللباس والتفنن فيه).

• إشارات لوجود ندرة في الحيوانات المتوحشة لاستيلاء الإنسان الليبي القديم على الحيوانات النافعة وتسخيرها في مجال الزراعة.

• اختفاء صور بعض الحيوانات خصوصاً النعامة من النقوش (دليلاً على انقراض هذه الحيوانات بفعل العصر الجليدي).

---

(42) الأصل من تصوير (Brugmann)، أنظر: غانم (إعداد): **الصحراء الكبرى، مصدر سابق**، ص80.

- ملاحظة زحف الصحراء على الآجام والسافانا بسبب ندرة الأمطار. وعند نهاية عصر ما قبل الميلاد اندثرت الحيوانات الأليفة أو هاجرت، وتوقف الرسّامون عن نقش صور الحيوانات، وحل الماعز والجمل مكان البقر (دليلاً على انتشار حيوانات صحراوية تتحمل قسوة الجفاف).

- وجود رسوم للأشياء، من بينها الخنجر (دليلاً على أن الإنسان الليبي القديم توصل لاستعمال النحاس أثناء العصر الحجري الحديث)، وقد تم فعلاً العثور على بعض الآثار النحاسية، ولكن في مرحلة زمنية تالية.

- إلى جانب بعض الرسوم التي لا يعرف معناها سوى ذاك الإنسان الذي رسمها، قد تحمل مفاهيمه تجاه بحثه عن الأمان والاطمئنان والانتصار على قوى الشر. وهناك إمكانية وجود غاية سحرية وراء بعض تلك الرسوم.

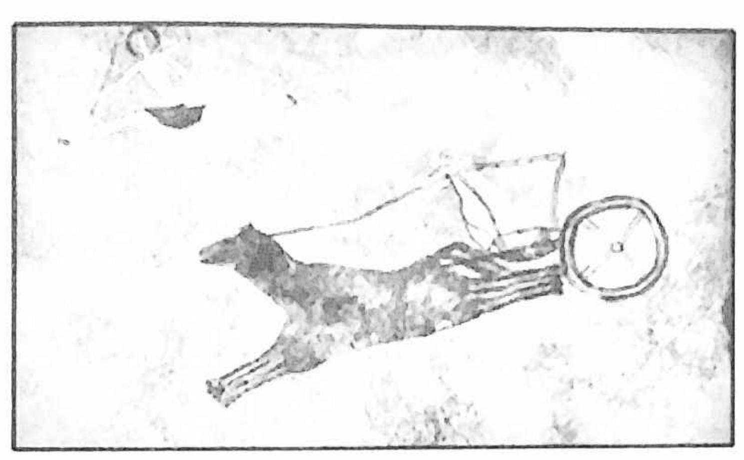
- سِمات حضارية تشبه تلك التي ظهرت في مصر (دليلاً على وجود صِلات حضارية بين ليبيا ومصر منذ القديم)، وذلك مثل:

- رسم الكبش الذي يحمل بين قرنيه قرص الشمس، ويشبه الشكل الذي رمز به قدماء المصريين للإله (آمون رع).

- في برقة ووهران وجدت رسوم لرجال ذوي خصلة شعر جانبية ويرتدون قُمصاناً وأحزمة عريضة. وقد ذكرت الوثائق المصرية خصلة الشعر كعلامة تميز بها الكهنة المصريون، والمعلوم أن رؤساء الكهنة في مصر كانوا من قبائل المشواش الليبية.

- رسم رجل ترك ذقنه بشكل يذكّر الباحث بطريقة الإله (أوزير) المصري، وقد وُجدت مثل هذه الرسوم بجنوبي طرابلس (يعود تقريبا إلى ما بين منتصف الألف الثالث ومنتصف الألف الأول قبل الميلاد)، وهي فترة تقابل فترات هامة في صميم العصر التاريخي في مصر القديمة.

• وكان للجرمنتيين دور هام في هذه الرسوم. فهم صنّاع الحضارة الصحراوية في فزان القديمة، حيث كانوا يرعون تلك المواشي ذوات القرون الطويلة، "**وربما كانوا هم الذين أحضروا الحصان والعربة من مصر**»، «**وفي متحف القلعة بطرابلس نموذج لهذه العربات**»(43). وقد تمكنوا بفضل تحمّلهم البقاء في تلك المنطقة بعد جفافها من السيطرة على مداخل ومخارج الصحراء مدة تزيد عن "**ألف عام**»(44) قبل الميلاد. وقد اعتبرت آثارهم بمثابة كتابة تمكّن العلماء من سبر أغوار تاريخهم وتحديد معالم حضارتهم.



تمثل الصورة عربة جرمنتية تجرها أربعة خيول (دور الحصان)(45).

---

(43) رايت: **مصدر سابق**، ص ص17-18.

(44) رايت: **نفس المصدر السابق**، ص18.

(45) أنظر: موري: **مصدر سابق**، ص215.

ثانياً: علاقة ليبيا بمصر من خلال الرسوم الصخرية:

1- لوحات وادي جبّارين:

اكتشف الباحث الفرنسي (هنري لوت Henri Lhote) آلاف الرسوم في منطقة (تسيلي) جنوب غربي ليبيا الحالية، وألّف فيها كتاباً بعنوان: (لوحات تسيلي). ومن أهم اللوحات المكتشفة كانت في وادٍ قديم يطلق عليه الأهالي اسم (وادي جبّارين)، وهي تعني في لغة التوارق كما يقول (لوت): "**العمالقة**»[46]. والعمالقة هم من أصطلح على تسميتهم بالجبابرة (أو الجبّارين) من أبناء كنعان، وموطنهم الأصلي فلسطين والشام. ومن بين تلك اللوحات لوحتان مهمتان وملفتتان للنظر، كوّنتا لغزاً محيّراً لـ(لوت)، ولم يستطع قراءتهما، واكتفى بإعطائهما عنوانين، الأولى: (لوحة الآلهات الصغيرات)، والثانية: (لوحة القربان). وكان يشك في "**أن رسّاميها إما أن يكونوا من الأسرى أو من التجار المصريين الذين وُجدوا بتسيلي، وإما أن الليبيين أقاموا بمصر إرادياً أو كأسرى وهم الذين حملوا لوطنهم من مصر هذا الأسلوب في الرسم**»[47]. غير أنه يرى في موقع آخر أن بعض محتوياتهما تشبه تلك التي ظهرت في مصر قبل تأسيس الأسرات[48]، أي في حدود الألف الرابع قبل الميلاد، وهو الزمن الذي تواجد فيه الليبيون في الدلتا والصعيد كما سبق الذكر.

إلاّ أن الباحث الليبي (محمد بازاما) لم يبق مكتوف الأيدي أمام هاتين اللوحتين. فبعد أن قدّم وصفاً دقيقاً للوحتين حاول تفسير معانيهما، رغم أنه لم يتحرر من مسألة مطابقة

---

(46) لوت، هنري: **لوحات تسيلي**، تعريب: أنيس زكي حسن، ط1، 1976، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص69.

(47) لوت: **مصدر سابق**، ص72.

(48) بازاما: **مصدر سابق**، ص221.

أسلوب الرسم الليبي بالرسم المصري، بل أضاف عليهما تأكيده للشبه بين شخصيات اللوحة الليبية بالإله (تحوت) المصري، وهو معبود المقاطعة الخامسة عشر من مقاطعات مصر العليا أو الصعيد. وكثيراً ما ترد مثل هذه المقارنات، فرسم الكبش الليبي المذكور آنفاً، وهو الحامل بين قرنيه قرص الشمس، يشبه إلى حد كبير الأمثلة المصرية، وبعض الرسوم البشرية التي تشبه الإله (أوزيس) أو الإله (بس) المصريين[49]. ولكن لوحتي (لوت) التي تناولهما (بازاما) بالدرس لهما شأن آخر، حيث تمكّن هذا الأخير من جعلهما ذات دلالة، وشرح كل حركة فيهما بأسلوب منطقي[50]، وهذا مجمل شرحه:

أ- اللوحة الأولى (الآلهات الصغيرات):

وهي عبارة عن لوحة رُسمت عليها أربع فتيات عاريات باستثناء غطاء الرأس، يقمن بحركات يدوية كما لو كنّ يرقصن. وقد مهّد بازاما شرحه لهذه اللوحة باستعراض التقويم المصري، ثم استخرج منه أربعة أرقام مهمة، وهي: الرقم (3) الذي يرمز إلى عدد الفصول، والرقم (4) الذي يرمز إلى عدد الأشهر في الفصل الواحد، والرقم (30) الذي يرمز إلى عدد الأيام في الشهر الواحد، والرقم (5) الذي يرمز إلى أيام النسيء التي زادها (توت) فأصبحت السنة المصرية 365 يوما. وبدأ في مطابقة ذلك على اللوحة الليبية، فوجد أن عدد الأيدي المرسلة كان (3). وأن عدد الآلهات كان (4). وأن عدد الأصابع غير المخفية كان (30). وأن عدد الأيدي المرفوعة كان (5). وقال شارحاً لذلك: «**من الجائز أن تكون المعبودات الأربع رمزاً للأشهر الأربعة التي يتكوّن منها كل فصل، وأن تكون الأيدي المرسلة الثلاث يرمزن**

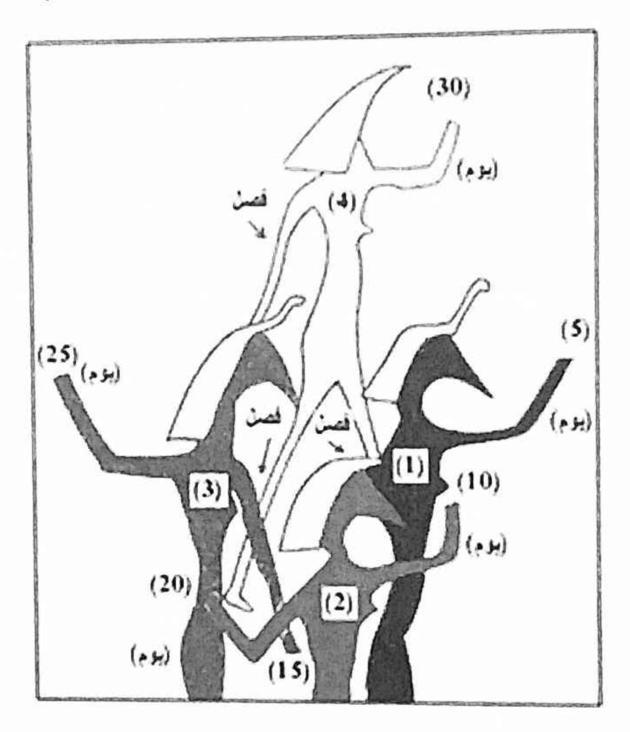
---

(49) الناضوري: **مصدر سابق**، ص ص140-150.

(50) الصويعي، عبد العزيز سعيد: **أصول الحرف الليبي**، ط1، 1999، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة/ ليبيا، ص238-246.

إلى الفصول الثلاثة، والأيدي الخمس المرفوعة إلى أيام النسيء الخمسة، والأنامل غير المستورة رمز لعدد أيام كل شهر»[51].

وإذا جاز ما شرحه (بازاما) فإن (لوت) كان محقًا عندما توقع أن تطالعه نصوص هيروغليفية يمكن أن تفسر لوحات جبّارين. فبعد شرح بازاما السابق يمكننا احتساب هذه اللوحة لوحةً خطيةً لها مدلول ومعنى، وليست مجرد لوحة فنية حتى نعطيها عنواناً أدبياً غير علمي. فهي تندرج ضمن أسلوب الكتابة التصويرية (البكتوغرافية).



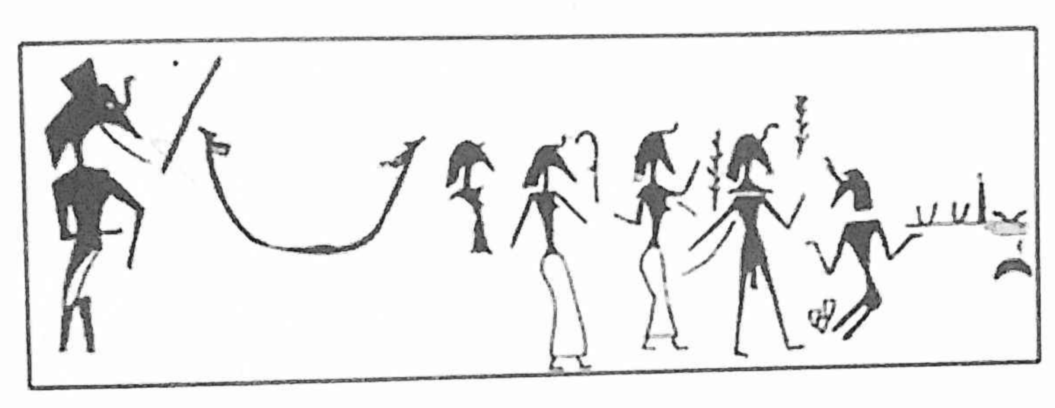
تمثل الصورة شرح (بازاما) للوحة (الآلهات الصغيرات).

ب- اللوحة الثانية (القربان):

هذه اللوحة عكس اللوحة السابقة، فهي ليست متشابكة المكوّنات المرسومة، بل تسير على محور أفقي موحَّد، مما يجعلها أكثر قرباً لأسلوب الكتابة. وتحتوي على **«ستة أشخاص (ثلاثة ذكور وثلاث إناث) وقارب وأكواب ثلاثة، وثلاثة رموز إحداها على شكل العكّاز المعقوف الرأس، والآخران كأنهما أغصان شجر أو مقدّمة (جريدة نخل بسعفها)، وأخيراً**

(51) بازاما: مصدر سابق، ص200.

بعض الأشكال المركّبة من خط أفقي طويل فوقه ما يشبه الكوبين والمسلّة والصحن أو قرنين وتحته خطان أفقيان يمتدان ما بين المسلة وآخر الخط، وأسفلهما خط عمودي وشكل يشبه الهلال المفتوح إلى أسفل»[52]. والفرق بين اللوحتين -إلى جانب عدم تشابك المحتويات المرسومة من عدمه- هو أن النساء في اللوحة الأولى كنّ عاريات تماماً باستثناء غطاء الرأس، بينما احتفظت نساء اللوحة الثانية بهذا الغطاء مع ارتداء ثياب تغطي نصفهن الأسفل. أما الرجال فقد وضعوا على خصورهم جراب العورة على عادة قدماء الليبيين، بالإضافة إلى بعض الأشكال الأخرى المكمّلة -على ما يبدو لمعنى- اللوحة الثانية.



تمثل الصورة لوحة تقديم القرابين[53].

لم يقم (بازاما) -وكذلك (لوت)- بشرح هذه اللوحة كما فعل مع سابقتها، إلاّ أن الناظر فيها قد توحي له بعدّة تفاسير: فقد تكون تجسيماً لطقوس دينية تقام عادةً في مواسم جني المحاصيل، وقد تكون مراسم تقديم قرابين لأحد الآلهة -كما تخيّلها لوت-، وقد تكون تجسيداً لعملية محاسبة الأجراء أثناء تسليم إنتاجهم إلى مستأجرهم، وقد تكون رقصات خاصة ابتهاجاً بتأمين مخزونهم السنوي من الطعام، وغيرها من الاحتمالات التي لا تخرج عن نطاق كونها تسجيلاً لأحد المواكب الرسمية التي كان سكّان جبّارين يقومون بها في موعد معيّن أو في

---

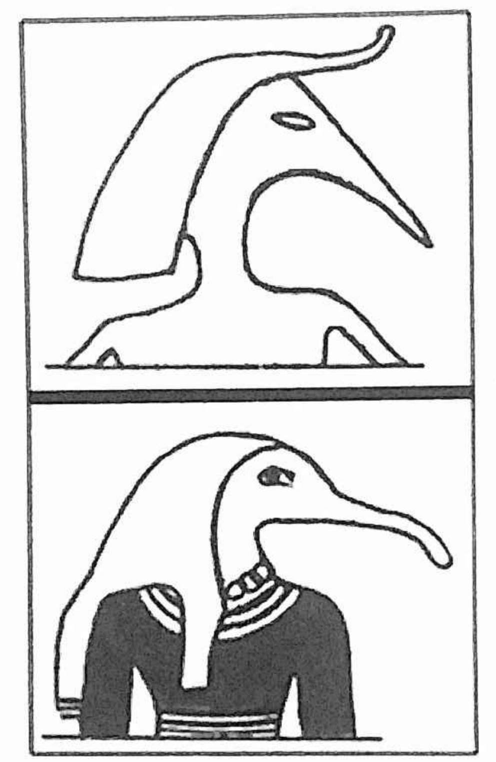
(52) بازاما: نفس المصدر السابق، ص188.

(53) لوت: مصدر سابق، ص ما بين 81 و82.

موسم معيّن في كنف ضمان لقمة العيش وبالطريقة التي ترضي آلهتهم[54].

إلاّ أن بازاما اقتنص لبحثه شخصية مصرية يمكننا الوقوف عندها ومطابقتها بالشخصيات الليبية المجسّمة على لوحتي وادي جبّارين، وهي شخصية المعبود (تحوت) المصري. لنتابع هذه المطابقة الأولية التي أجريناها على الشخصيتين (الليبية والمصرية):

أولا: الشخصية المصرية (أسفل): رسم المصريون المعبود (تحوت) إله الكتابة، على صورة إنسان له رأس الطائر (إبيس)، يحمل لوحةً بيده اليسرى وقلماً بيده اليمنى[55]. وهي صورة غنية بالتفاصيل التي تُظهر بوضوح قناع الطائر إبيس، وغطاء الرأس، والقلائد حول الرقبة، والصدرية ذات الشريط الرابط بين الكتف الأيمن والجهة اليسرى من الحزام، والتنّورة التي تغطي جزءاً من نصف الجسد الأسفل، وما يشبه الذيل الطويل الذي يصل إلى الأرض.



ثانياً: الشخصية الليبية (أعلى): رسم الليبيون إحدى شخصيات لوحة تقديم القربان، بشيء من التجريد دون الاهتمام بالتفاصيل، رغم ذلك يظهر بوضوح قناعُ الطير بمنقاره الطويل الشبيه بالطائر إبيس، وغطاء الرأس، وجراب العورة باعتباره ذكراً، وفي الخلف يظهر خط يشبه الذيل، وهي عادة معظم قدماء الليبيين.

---

(54) الصويعي: **مصدر سابق**، ص243.

(55) زكري، أنطوان: **مفتاح اللغة المصرية القديمة**، ط1، 2003، دار الآفاق العربية، القاهرة/ مصر، ص12.

ويتضح من هذه المطابقة الشبهُ الشديد بين الشخصيتين. غير أن الشخصية الليبية التي حوتها لوحة (تقديم القرابين) كان قد أرجعها مكتشفها إلى زمن ما قبل تأسيس الأسرات في مصر[56]، أي قبل الألف الرابع قبل الميلاد. أي أنها سابقةٌ لزمن رسم الشخصية المصرية المتمثلة في الإله (تحوت). ويؤكد هذا الرأي علماءُ الآثار الفرنسيون الذين قالوا: "**أن إحدى القبائل الأفريقية التي يرجع تاريخها إلى 4000 سنة ق.م. شنّت الغارة على مصر وتسلطت عليها واختلطت بأهلها، وكوّنا معا المصريين المعروفين في ذلك الزمان تحت حكم الأسرة الفرعونية الأولى، وأن هذا الشعب هو ولا شك الذي اخترع الكتابة الهيروغليفية وجمع قواعدها**»[57]. وبعد، هل بإمكاننا اعتبار أن (تحوت) الصحراوي كان أسبق زمنياً من (تحوت) النيلي؟

2- الأثر الهيروغليفي على الرسوم الليبية:

بداية علينا أن نعترف بأن صفة (الهيروغليفية) قد أطلقها المؤرخ اليوناني الشهير (هيرودوتس) على الكتابة المصرية القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد، ولم تكن قبله موصوفةً بتلك الصفة. والملاحظ على أشكال الكتابة الهيروغليفية المدوّن بها آلاف النصوص والآثار المصرية، أنها متناسقة على حساب مقياس الرسم، حيث تُلغى فيها النسب والأبعاد المنطقية بين الأجسام، أي رسم الإنسان الواقف مثلا، يتناسب في طوله مع ريشة الطير الصغيرة. وهذا ما جعل الرمز المصري يفقد شكله كرسم حقيقي للشيء، فيبرز شكله المجرّد ليمثل الرمز الكتابي[58].

---

(56) بازاما (عن لوت): **مصدر سابق**، ص195.

(57) زكري: **مصدر سابق**، ص ص13-14.

(58) الصويعي: **مصدر سابق**، ص249.

وبعد استعراض الحروف الأبجدية المصرية، وُجد أن عدداً منها يشبه إلى حد كبير الرموز التي حوتها لوحة جبّارين الثانية (القربان)، بغض النظر عن المعنى اللفظي للحروف المصرية التي أصبحت واضحة لدى الباحثين، والمعنى اللفظي للرمز الليبي الذي لم يتضح بعد. مع مراعاة البعد الزمني الذي امتد بين الفترة التي أنجزت فيها لوحة جبّارين في ليبيا، وآخر مرحلة تطوير شهدتها الكتابة الهيروغليفية المصرية حتى صارت أبجدية مستقلّة[59]. وهذه مقارنة أولية بين الرموز الليبية والرموز المصرية:

الرمز الليبي

الرمز المصري

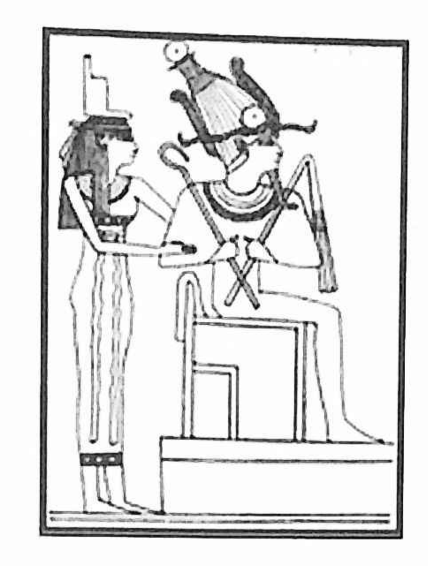
إذن، فالرموز الكتابية الليبية -رغم قلّة عددها وغموض معانيها- جديرة بالوقوف عندها وتدبر أمرها بعناية. وقد حاولنا عبثا قراءتها بالمفهوم الذي تعنيه الحروف المصرية التي تقابلها في الشكل، إلاّ أن خبراء المصريات لهم في ذلك شأن آخر، فقد يصل أحدهم -في يوم ما- إلى المعنى الحقيقي الذي تحويه لوحات جبّارين وغيرها من اللوحات والكتابات المتناثرة هنا وهناك على امتداد الصحراء الليبية[60]. وفي إطار مقارنة الأساليب الفنية في الرسم التي اتخذها كل من الرسّام الليبي في وادي حبّارين والكاتب المصري في وادي النيل، ترد مجموعة ملاحظات هامة. وذلك مثل الأخطاء الفنية التي وقع فيها كلاهما، حيث كان رسم الشخصيات يعتمد على توجيه الرأس والوجه إلى جهة جانبية (بروفايل Profile)، بينما يكون الصدر والجدع الأعلى في مواجهة المشاهد، تخرج منه اليدان متجهتان إلى نفس اتجاه الوجه، بينما تكون الرجلان في نفس الاتجاه دون التفريق بين الرجل اليمنى والرجل اليسرى. كما تتميز

---

(59) الصويعي: **نفس المصدر السابق**، ص251.

(60) الصويعي: **نفس المصدر السابق**، ص252.

الشخصية الرئيسية في اللوحة الواحدة باتخاذ الحيّة في مقدمة غطاء الرأس (تعبيراً عن الإيمان بالحياة الثانية)، ومسك العصا أو الصولجان (تعبيراً عن امتلاك السلطة)، وذلك مثل:





الأولى: لوحة إيزيس وأوزوريس، مع ملاحظة أن القرنين في هذا المثال كانا بدل الحية التي في معظم النماذج المصرية.

الثانية: لوحة جني المحاصيل وتقديم القرابين (الليبية).

3- ولكن، ما سر هذا التوافق؟:

لو عُدنا بالتاريخ إلى الوراء لوجدنا أن الهجرات التي انثالت على وادي النيل لم يكن مصدرها الشرق فقط، وإنما الغرب أيضاً كان له نصيبه. وربما كانت تلك الهجرات متزامنة مع بعضها البعض، أو متفاوتة تفاوتاً بسيطاً، وذلك بسبب التأثير المناخي الذي طرأ على المنطقتين، الواقعتين على نفس خط العرض 25^0 شمال خط السرطان، يفصل بينهما -طولياً- أخدود البحر الأحمر. وقد ثبت تاريخياً "**أن التغيير المناخي والتشكل الحضاري الذي مر بالصحراء الليبية تزامن مع ذاك الذي حدث في الصحراء العربية، وأن الهجرة إلى وادي النيل كانت تأتيه من الشرق والغرب على دفعات مما جعل هذا الوادي بوتقة انصهار**

كبرى»[61]. وهذا يؤكد أن قدماء الليبيين كانوا من بين السلالات البشرية التي بدأ الوجود البشري يتشكّل منها على ضفاف النيل بوجهيه البحري والقبلي. ولو افترضنا أن مثل تلك الهجرات حصلت في نهاية العصر الحجري الحديث، وهذا أقصى الاحتمالات، فلا بد أن الليبيين -عندما هاجروا إلى مصر- حملوا معهم مفاهيمهم الفلكية ومعتقداتهم الدينية وطرق تجسيدهم لتلك المفاهيم والمعتقدات التي كانوا يرسمونها على جدران كهوفهم.

وإذا صح ما ذهبنا إليه، فهل يمكننا افتراض أن شخصية المثال الأول (الليبية) هي عبارة عن خطوط أولية (كروكيCroquis) لشخصية المثال الثاني (المصرية) التي تطورت فيما بعد، وأصبحت تمثل إله الكتابة (تحوت) المصري؟ والشيء الباعث إلى مثل هذه الاحتمالات والافتراضات دون تحفظ، بعضُ الحقائق التاريخية التي يؤيدها هنري لوت نفسُه، وذلك عند حديثه عن لوحة القربان الليبية، إذ يقول: ''**يلاحظ أيضا بعض الأكواب الشبيهة بتلك التي لعصر ما قبل الأسرات، وخاصة التقارب الديني لمصر العليا..**»[62]. إلى جانب ذلك يذكر التاريخ أن الليبيين سكنوا الدلتا منذ ذاك الزمن، أي ''**قبل توحيد الدلتا والصعيد سنة 3200 قبل الميلاد**»[63] على يد (نعرمر). هذه الحقائق تدعونا إلى افتراض أن الذين رسموا المثال الأول قد يكونون -هم أو أحفادهم- من رَسم المثال الثاني، مع مراعاة ارتقاء الفكر ومواكبة التطور، حيث أن الزمان والمكان اللذين أُنتجا فيهما المثالان قد تباعدا وتغيّرا. فالمؤرّخون هم من أطلق على سكّان وادي جبّارين اسم (ليبيون) وعلى سكّان وادي النيل (مصريون)، وذلك بقصد

---

(61) خشيم، د. علي فهمي: **آلهة مصر العربية**، ج1، ط1، 1990، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة/ ليبيا، ص25.

(62) بازاما: **مصدر سابق**، ص195.

(63) خشيم: **مصدر سابق**، ص51.

التفريق بين الزمنين والمكانين لا بين الشعبين وحضارتهما، بل يعترفون دائما بالامتداد البشري والحضاري بين ليبيا ومصر منذ تلك الأزمان القديمة.

إذن، فالتأثير الحضاري الذي ظهر على مخلفات الليبيين والمصريين لم يكن فقط بسبب الحروب وملاحقة الجيوش واقتناص الأسرى، وإنما الهجرات الأولى التي تشكّل منها الوجود البشري في مصر (سواء من الصحراء العربية في الشرق أو الصحراء العربية في الغرب) كان لها أثرها على الحضارة المصرية منذ ما قبل التوحيد وتأسيس الأسرات. وأن مسألة الشبه بين الآثار الكتابية الليبية والمصرية، لا تخرج عن نطاق انتقال الأفكار الحضارية مع أصحابها من مكان إلى آخر تحت تأثير عدة عوامل. ولنا في شبه الجزيرة العربية دليل على ذلك. فبعد سقوط حضارات بابل وآشور في بلاد الرافدين، ظهرت حضارة الكنعانيين بسوريا وفلسطين وعموم الشام، والتي أدت بدورها إلى انتشار الحضارة (الفينيقية) بسواحل شمال أفريقيا عبر عاصمتهم الجديدة (قرطاجة).

ولكن الليبيين الذين أقاموا بمصر قبل سنة **3200** ق.م. كان لهم شأن آخر. فبعد أن غطى الجفاف والتصحّر أوديتهم، فرّوا بجلودهم باحثين عن موطن آخر يصلح لمواصلة سعيهم لبناء الحضارة التي كانوا ينشدون، فاستقبلتهم أراضي مصر الخصبة، وتشابكت أيديهم مع من سبقهم، واتحد الجميع لبناء حضارة مصر العظيمة.

الفصل السابع

الأديان في ليبيا

من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام

أولاً: المراحل الوثنية:

1- غموض العقيدة:

في محاولاته المتكررة للتقرّب من القوى الخفية المجهولة لديه والتي رآها متحكّمة في حياته وبيئته المحيطة به، بدأ الإنسان الليبي القديم يصوّر بعض مشاعره في أشكال الجوامد والحيوانات رغبةً في تحقيق الأمن والطمأنينة وإرضاء تلك القوى الخفية، وأيضاً للتخلص من الأرواح الشريرة التي كان يتخيّلها وإبعادها عن مجالات حياته. وقد قسّم (أوريك بيتس **Oric Bates**) مراحل العقيدة الليبية القديمة إلى أدوار رئيسية ثلاثة: الأول: الاعتقاد في روحانية المادة الطبيعية (**Animistic-Phases**)، والثاني: الإيمان بالآخرويات (**Eschatol-ogy**)، والثالث: اللاهوت: (**Theology**)[1].

فقد دلّت الحفريات التي جرت بعدة مواقع أثرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط، على وجود أكوام متناسقةٍ من الكُرات الحجرية الكبيرة جيدة التشذيب[2] تتوسط المواقع. ورغم صعوبة الكشف عن أغراض تلك الأكوام، إلاّ أن الاعتقاد ينصرف إلى تفسيرها تفسيراً ميتافيزيقياً ينتهي إلى الغايات الروحية، ربما للاجتماع حول تلك الأكوام الحجرية اعتقاداً في وجود قوّة خفية مقدّسة تستوجب الاسترضاء. وفي المجتمعات القديمة لاسيما في سومر، ثم في أثينا وروما، كانت المعابد تتوسط المدن ربما للغاية نفسها، أو ربما كنوع من التطور الفكري تجاه إشباع الجانب الروحي الذي ظل متواصلاً منذ العصور الحجرية القديمة. ومن الحجارة-الآلهة تبرز حجارة سِيوَه التي يقال أن رياح (القِبلي) الجنوبية تهب بعنف إذا لمس أحدُهم بيده

---

(1) Bates, Oric: **The Eastern Libyans**, Macmillan and Co. London, p172.

(2) الناضوري، د. رشيد: **المغرب الكبير، العصور القديمة**، ج1، ط؟، 1981، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت/ ليبنان، ص104.

ذاك الحجر. وتقول الأسطورة الكلاسيكية أن تلك الرياح قضت على قبيلة البسيلّي الليبية القديمة بخليج سرت وجفّفت خزّانتاهم المائية[3]، كما قضت أيضاً على القائد الفارسي (قمبيز) وجيشه عند هجومه على سِيوَه. وبقي التشاؤم من رياح (القِبلي) سائداً إلى الآن في ثقافة سكّان المغرب العربي. وإلى جانب الحجارة قدّس الليبيون -في العصر الكلاسيكي- التلال، واعتقدوا أن لها أرواحاً توافيها بكل ما تقف عليه هي من معلومات[4]، وبالتالي فإن هذه العبادة ليست بعيدةً عن عبادة الحجارة سالفة الذكر. وينسب (ج. كامب **G. Camps**) للجرمنتيين والقتوليين النصبَ الجنائزيةَ أو التعبديةَ المصنوعةَ من الحجارة في شكل هلال مفتوح نحو الشرق، وقال أنها كثيرةٌ جدّا في وسط الصحراء الليبية وغربها، وكان فقراءُ الناس يكتفون بكومةٍ من الحجر أو من التراب أو نصبٍ صغيرةٍ دائريةٍ[5]. وتُعرف بعض المدافن باسم (بازينة)، وهي ذات درج أو اسطوانة مخروطية[6]. ولعلّ أصل اللفظ من اللغة الليبية القديمة، حيث لا تزال المقابر في الجبل الغربي بليبيا تسمى أحياناً باسم (بازينة).

---

(3) Hiridotus: **History of Herodotus**: Book IV, 3rd edition, Vol I, Henry Slatter, London, 1846, pph 173, p 350.

(4) البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: **التاريخ الليبي القديم، منذ أقدم العصور إلى الفتح الإسلامي**، ط1، 1981، دار صادر، بيروت/ لبنان، ص ص 204-206.

(5) كامب، ج.: **البربر.. الذاكرة والهوية**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، ط1، 2005، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا، ص95.

(6) كامب: **نفس المصدر**، ص102.

ومن الحجارة كجماد تحوّل قدماء الليبيين إلى عبادة الحيوان. ويبدو أن الدافع من وراء ذلك يكمن في عدم فهمهم لماهية ظواهر السماء الغامضة فربطوها بظواهر الأرض الواضحة، حيث أدمجوا أشعة الشمس أو نور القمر بقرني الكبش، ربما لأن القرن يشبه الهلال في تقوّسه أو الشمس في استدارته[7]، أو ربمّا لقوّة قرنيه المستخدمَين في القتال والدفاع عن النفس، وقد اشتهر الكبش الليبي -منذ القديم- بالقوة وصعوبة اصطياده والحصول عليه في المناطق الجبلية، مما جعله حيواناً جديراً بالإعجاب والتقديس[8]، فرسم قدماء الليبيين قرصَ الشمس بين قرنيه وعبدوا هيأته المرسومة. وظهر هذا التقليد في النقوش المصرية الأولى، أحياناً بين قرني الربّة (حتحور) الدموية، وأحياناً أخرى بين قرني الكبش (آمون)[9]. ويقال أن عبادةَ هذا الإله كانت سائدة في ليبيا انطلاقاً من منطقة برقة قبل أن تستقر في معبد (آمون) بسيوه. وكان إله الشمس عند قدماء الليبيين يسمى (جرزل **Gurzil**) ويظهر إلى الآن في نحت على الصخر حاملاً قرص الشمس بين قرنيه[10]، ويوجد هذا الأثر بموقع (الدياديب) جنوب مدينة مزدة[11]. وقد يتحوّل قرصُ الشمس من قرني الكبش إلى قرني الثور للقوة التي يتصف بها الحيوانان، وقد ذكر الكتّاب الكلاسيكيون أن في ليبيا كان يعيش نوع من الثيران ذوات قرون طويلة وثقيلة

---

(7) خلاصة هذه الأفكار نجدها في: البرغوثي: **نفس المصدر**، هامش ص ص206-207.

(8) Bates, Oric: **The Eastern Libyans**, Macmillan & Co. Limited, London, 1914, p 195.

(9) موسوعة تاريخنا: **تاريخنا من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن السابع قبل الميلاد**، الكتاب الأول، ط؟، ؟، دار التراث، ص86.

(10) موسوعة تاريخنا، **نفس المصدر**، ص88.

(11) Erica Mary & Abdul Bari Khalil: **Libya, Down The Centuries**, 2006, Darf Publishers, Lodon-Tripoli-Cairo, p 66.

بحيث تسير إلى الخلف عند رعيها. وذكر البكري -في القرن الحادي عشر الميلادي- أن قبائل متعددة في منطقة طرابلس من بينها قبيلة (هوارة) كانت تقدّم الصلوات لصنم من الحجر يقام على رابية، اسمه (كرزا) وذلك من أجل حماية قطعانها، والمقصود هو (قرزل). ولا زالت أطلال مدينة (قرزة) قائمةً بوادي زمزم جنوب شرقي مدينة طرابلس إلى الآن، كذلك (غرزا): اسم مدينة قديمة (الآن: الخلة الكبيرة) شمال سوسة بالجبل الأخضر[12]. كما أنه لا زال الاعتقاد -في الثقافة الشعبية الليبية- أن (القرن) إلى جانب (الحوت) و(خمسة اليد) من الرموز الدافعة للعين الحاسدة، ويعبّرون عن ذلك بالقول: (حويتة وخميسة وقرين[13].. في عيون الحاسدين). وعلى عكس الكبش والثور المقدّسين، فقد حرّم قدماءُ الليبيين تربيةَ وأكلَ لحم الخنزير تحريماً قاطعاً واعتبروه نجساً[14]، وقد ظهر هذا التحريم في مصر أيضاً. وتحريمه في الإسلام معروف. وإلى جانب تحريم أكل لحم الخنزير باعتباره نجساً، فقد حرّم الليبيون القدامى على أنفسهم أكل لحم حيوانات أخرى باعتبارها مقدسةً، وذلك مثل البقر والكلاب والقطط، فقد وُجدت قبور قطط بأعداد كبيرة غربي مدينة (بوباستيس) في إقليم (أهناسيا) بدلتا النيل، عندما كان قدماءُ الليبيين يقيمون شعائرهم الدينية هناك، وذلك قبل اتخاذ تلك المدينة عاصمةً للأسرة الثانية والعشرين الليبية.

هكذا، وبعد أن ربط الإنسان الليبي القديم بين الظواهر السماوية المجهولة والظواهر الأرضية المعلومة، مثل ربط رياح (القِبلي) بالصخرة الصلبة، وربط قرص الشمس بقرون الحيوانات، أتجه إلى الجوانب الرمزية ذات العلاقة، وذلك عندما بدأ يتخذ أقنعة الحيوانات،

---

(12) Erica & Abdul Bari: **Ibid**., the same page.

(13) (حويتة وخميسة وقرين): تصغير للحوتة والخمسة والقرن.

(14) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص217.

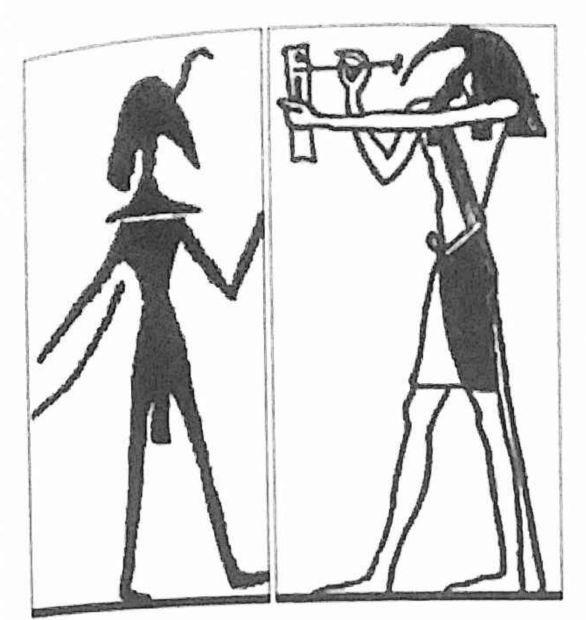
وأثرُ ذلك لا يزال ماثلاً في كهوف (أكاكوس وتادرارت وتاسيلي) وغيرها. حيث ظهرت عادة اتخاذ مظاهر الحيوانات كوضع القرون وريشة الطير على الرأس وأقنعة الطيور على الوجه واستعمال الذيل في المؤخرة، وكلها اقتباس من الحيوانات، ربّما بهدف تخويف الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة، أو بهدف دفع القوى الشريرة، أو بهدف إرضاء تلك الحيوانات التي اتُخذت كمعبودات.. وهي في مجملها طقوس عقائدية تندرج في إطار إشباع الجوانب الروحية غريزياً، والتي بدأت -مع الزمن- ترتقي فكرياً وتأمّلياً إلى مرحلة البحث عن المعبود الحقيقي خالق هذا الكون ومسيّر هذه الطبيعة، فيما عُرف باللاهوت.



الإلهة البيضاء ذات القرنين (دور الرؤوس المستديرة)، عن هنري لوت.

وهذا يعني أن قدماءَ الليبيين تدرّجوا -في عقيدتهم- من تقديس الجماد والحيوان إلى تقديس البشر، ولكن في شكل حيواني أو مشبّه بالحيوان، ربما بهدف إضافة هالة من السحر على الشخصية البشرية، وذلك باستخدام الأسرار الغامضة والبراءة الصامتة التي تكتنف الحيوان باعتباره غير عاقل وغير ناطق، عكس الإنسان الذي بإمكانه الإفصاح عن مكامنه، فتبقى تلك الأسرار الحيوانية مجسمّة في الشخصية الإنسانية عن طريق الرموز الشكلية كالذيل والقرون وريش الطير والأقنعة الحيوانية. وهذا ما وُجد -فيما بعد- بوضوح تام في الآثار المصرية القديمة، حيث كان الإله آمون على هيئة قرص شمس بين قرني ثور، والإله حورس على هيئة

طير، والإله تحوت (إله الكتابة) الذي يضع قناعَ طير على وجهه وذيلاً طويلاً في مؤخرته، بالإضافة إلى تقديس عجول (**Apis**) والقطط، واتخاذ الحية في مقدّمة الرأس، وغيرها من المظاهر الدينية التي تتخذ من صور الحيوانات رموزاً لها.



مقارنة بين شخصية ليبية (على اليسار) بالإله تحوت المصري (على اليمين) وكلاهما يضع قناع طير على وجهه وذيل حيوان في مؤخرته.

ونظراً لصعوبة نقش الحجر على هيئة تماثيل في ذاك الزمان، تمكّن قدماء الليبيين في العصر الفخّاري من عجن الطين وتشكيله على هيئة حيوانات، حيث عُثر في الأكاكوس على رأس غزالة من الفخار المشوي يمكن تأريخه عن طريق الكربون المشع بسنة **3680** ق.م. كما عُثر أيضاً في نفس المكان على هيكل كلب فخاري[15]. وفي ذلك إشارةٌ إلى بداية محاولة صناعة الأصنام وتجسيد المعبودات الملموسة والمتنقّلة بدلاً من الاكتفاء برسمها أو نقشها على جدران الكهوف الثابتة، إلى جانب اتخاذ المجسّمات الصلبة ذوات الملامح بدلاً من أكوام الحجارة -سابقة الذكر- المجرّدة من أي ملمح.

واستكمالاً لمرحلة تقديس البشر، تواصل احترام وتأليه الأجداد حتى بعد الموت، وهذا يعني أن قدماء الليبيين انتقلوا إلى مرحلة أخرى، وهي تقديس الأرواح البشرية والتقرب من قبور

---

(15) باريش، باربارا: **حفريات جديدة في جبل الأكاكوس**، ترجمة مكاييل محرز: الصحراء الكبرى، إعداد: د. عماد الدين غانم، ط؟، 1979، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا، ص143.

الموتى، مما أدى -بدوره- إلى ممارسة العرافة والتنجيم والسحر، مثل استخدام السحر لاستنزال المطر. وقد تخصصت النساءُ في تأدية هذه الطقوس. ففي أوجلة وبالذات عند قبيلة النسامونس كانت أرواح السلف المؤلهّين تُعتبر ذات صلة بالسماء[16]، وكانت تُستشار عن طريق النوم عند القبور واستنباط التنبؤات من خلال الأحلام[17]. وعندما يحلف النساموني يضع يده على قبر أحد الشخصيات المعهود لهم بالجاه ويُقسم[18]. ويقول (ميلا **Mela**) أن الأوجليين لا يعرفون إلهً آخر غير أرواح الأسلاف[19].

أما أفراد قبلية البسيلّي فكانوا يتحلّون بقدرة عجيبة على سحر الأفاعي ومعالجة عضّاتها باستخدام ريقهم الذي يشفي من عضة الأفعى السامة[20]. ولا زال عندنا -ولوقت قريب- الاعتقادُ في أن ريقَ بعض الصالحين يشفي من عضّة الأفعى ولسعة العقرب وغيرها، ربما يتم ذلك بواسطة مص السم من مكان العضّة بعد دهن الفم بالزيت، وبالتالي فلا علاقة للريق بعملية إبطال مفعول السم. ولكن قدماء الليبيين ربطوا تلك الغوامض بالخوارق التي تمنحها الطبيعة الغامضة إلى بعض العناصر البشرية الغامضة أيضاً، فيكون ذلك سبباً في اتجاه العامة إلى احترامها وتقديسها وتأليهها في الحياة وبعد الممات. ولقبيلة البسيلي قصصٌ كثيرةٌ مع السم، فقد كان فراعنةُ مصر يستدعونهم لعلاج عضّات الأفاعي. ويحكي عنهم (بليني **Plinus**)

---

(16) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص208.

(17) Herodotus: **Op. Cit**., p172.

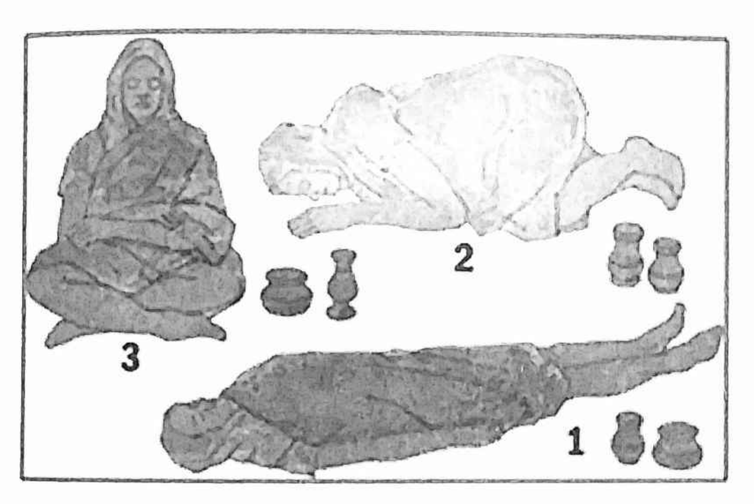
(18) Mela, Pomponius: **Geographie**, traduite par Louis Baudet, Paris 1843, Livre I, p 8.
and Herodotus: **Op. Cit**., the same page.

(19) Mela: **Ibid**, p35.

(20) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص209، وكذلك في: (Herodotus) و(Bates).

أنهم كانوا يعرّضون المولود الجديد لأشرس الأفاعي، فإذا تجنبته ولم تُؤذه يكون ابن أبيه حقيقةً، أما إذا حصل العكس فستُتهم أمه بالزنا[21].

ويشير اهتمام قدماء الليبيين بالدفن وطقوس الجنازة إلى أنهم كانوا يتوقّعون حياةً أخرى بعد الدفن، وهي فكرة سادت معظم حضارات العالم القديم. ففي المدة الأخيرة عثرت بعثةٌ بريطانية/ليبية قرب مدينة جرمة الأثرية على مومياء غريبة، إذ كان طولها يتجاوز المترين وسبعين سنتمتراً، وقُدّر تاريخها المبدئي بحدود **7000** سنة قبل الميلاد، وهي أطول مومياء في التاريخ، حيث تناقلت خبرَها وكالاتُ الأنباء والفضائياتُ والصحفُ العالمية.



وقدماءُ الليبيين كانوا يدفنون موتاهم بثلاثة أوضاع: **1**- استلقاء الجثة على الظهر، ويكون الرأس في اتجاه الشرق. **2**- في وضع الجنين في بطن أمه، وذلك بضم الرجلين والساقين إلى مقدمة الجسم، ويكون الرأس في اتجاه الغرب.

3- في وضع الجلوس، بحيث يساعد أصحابُ المريض المحتضر على مفارقته الحياة وهو جالس، ويبقى القبرُ بارزاً على سطح الأرض على هيئة هرم صغير، ربما تكون هذه نفس طريقة (البزينة) سالفة الذكر. وقد اهتم قدماء المصريين -فيما بعد- بدفن فراعنتهم في قبور هرمية ضخمة. أما المومياء الجرمنتية المعثور عليها مؤخراً فكانت في الوضع الثاني (وضع الجنين في بطن أمه).

من هنا بدأ الإيمان باليوم الآخر عند قدماء الليبيين يتضح في دفن بعض الأواني

---

(21) See: Plinus, C. Secundus: **Natural History** (the thirty-seven books), translated by Dr. Philemon Holland, ed. 1601, George Barclay 184748-, volume I.

الفخارية مع الميت ليستعين بها بعد البعث على حد اعتقادهم، ولعلّ عملية التحنيط كانت واحدةً من أهم الدلائل التي تؤكد إيمان قدماء الليبيين بالحياة الثانية، وهذا ما وُجد عند قدماء الفراعنة فيما بعد. كما بدأت العقيدة اللاهوتية تتبلور عند قدماء الليبيين، وبدأت تتضح المعبودات المتخصصة في التحكّم في ظواهر الطبيعة.

2- الآلهة الليبية القديمة:

لم يترك قدماء الليبيين نصوصاً دينيةً معينةً تدل على أسماء آلهتهم ومعبوداتهم، فتركوا ذلك لاجتهاد الكتّاب والمؤرخين الأجانب، كالإغريق والرومان، أو النقوش المصرية التي تحدّثت عنهم عندما استقروا في الدلتا التي مارسوا فيها نشاطهم الاجتماعي والثقافي والديني والعسكري.. وإذا كان قدماءُ الليبيين دخلوا العصر التاريخي عملياً أيام الفينيقيين في الألف الأول قبل الميلاد، كما سبق الذكر، فإنهم -في واقع الأمر- دخلوا العصرَ التاريخي منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن من البوابة المصرية، وذلك عندما ساهموا مع غيرهم في تأسيس الأسرات الأولى في مصر والتي قام (نعرمر) بتوحيدها في مملكة واحدة. ومن أسماء الآلهة الليبية القديمة التي تناقلها الكتّاب الكلاسيكيون وأخذها عنهم الكتّاب المعاصرون ما يلي[22]:

1- الإله (أش Ash): ظهر اسم هذا الإله على نقش للملك المصري (سحورع) من الأسرة الخامسة. بل كان معبود الليبيين منذ المملكة القديمة، إلاّ أنه لم يُعرف شيءٌ عن طبيعته ووظيفته.

2- الإله (شاهيدد Shaheded): وُجد من بين أسماء أخرى لليبيين المقيمين

---

(22) للإطلاع على تصنيف الآلهة الليبية القديمة أنظر مثلا: (Oric Bates, p184..) و(البرغوثي، ص213..) و(Herodotus، الكتاب الرابع، صفحات متفرقة) وغيرهم.

في الدلتا على لوحة تعود إلى المملكة الحديثة المتأخرة. ورغم بعض الشكوك إلاّ أنه يبدو من المعبودات الليبية.

3- الإله (سينيفي-رع **Sinifere**): ذُكر أنه إلهٌ عبده الليبيون الشرقيون. ويبدو أنه إلهٌ قبلي يساعد القبيلة في الحرب والسلم.

4- الإله (ماستيمان **Mastiman**): وهو أيضاً إله حرب مثل سينيفي-رع.

5- الإله (أبتوشوس **Aptuchus**) والإله (بعليوس **Baleus**): بالقرب من أبولونيا (سوسة) مكانٌ يُدعى (أبتوشوس) أو (أبتوجنسيس) ربما يكون اسم آلهة عُبدت في برقة. وقرب قورينا (شحات) قريةٌ أخرى تحمل اسماً ربما يكون فينيقياً: (بعل-قيرين **Ba'al-ķeren**): إله قورينا، مما دعا البعضَ إلى الاعتقاد بأنها كُرّست لعبادة الإله الفينيقي (بعل-اشمون).

6- إله البحر (بوسايدون **Poseidon**): يقول هيرودوتس أن الإغريق أخذوا هذا الإله من الليبيين، وأن الليبيين دون غيرهم عبدوا هذا الإله. وربما يكون هو نفسه الإله (تريتون **Triton**) نسبة لبحيرة (تريتونس) بشط الجريد، أو هو إله آخر منفصل عنه.

7- الإلهة (أثينا **Athena**): وهي الإلهة الليبية المشهورة باسم (أنتينيا)، ويقال أن الإغريق تبنوها باسم (أثينا). وتقول الأسطورة أنها ابنة الإله (بوسايدون)، وعندما اختلفت معه تبناها (زيوس) وهو (آمون) إله سيوه. وكان العذارى الجميلات من قبيلة الأوزيين يقيمون لها احتفالاً سنوياً حول بحيرة تريتونس يعتمد على المظاهر الحربية من لبس التروس وامتشاق الأسلحة وركوب العربات. لذا كانت أثينا الإغريقية ترتدي الترس الحربي، فهي عندهم إلهة الحكمة والحرب.

8- الإله (آكور، أو آشور **Achor**): يعتقد بعضُ المؤرخين القدامى أنه (الإله القوريني أكوريم أو أشوريم أو أكورون)، وأن له علاقة ما بالإله الشرقي (بعل-زيبوب).

9- الإله (بسافون **Psaphon**): تقول الأسطورة أن رجلاً ليبياً أراد أن يؤلّه نفسه، فجمع عدداً من الببغاوات وعلّمها أن تردد (الإله بسافون العظيم)، فانطلت الحيلة على الليبيين وبدأوا يقدّمون له القرابين.

10- (إله الشمس **The Sun-God**): ذكر هيرودوتس أن قدماء الليبيين كانوا يقدّمون القرابين للشمس والقمر وليس لإله آخر. كما أكد ذلك ابن خلدون أيضاً. وكان الاسم الوحيد لهذا الإله هو (چرزل **Gurzil**) سابق الذكر. وعبادة الشمس ظاهرة كانت عند معظم شعوب تلك الحقبة كالبابليين والآشوريين وقدماء المصريين، وقد عُرف في معابد طيبة باسم (آمون). ولا بد أن يكون هذا الإله هو نفسه (زيوس آمون، إله التنبؤات **Deus Fatidicus**) الذي اشتهر في سيوه قبل أن ينتقل إلى الدلتا عندما احتل الفراعنة واحة سيوه في عهد الأسرة الثامنة عشر، بينما يرى البعضُ الآخر أن ذلك حصل سنة **550** ق.م.

11- (إله القمر **The Moon-God**): يذكر هيرودوتس أسطورةً مفادها أن النسامونس كانوا يعتقدون أن العقيقَ الأحمرَ مصدرُه السماء، فيخرجون للبحث عنه عند اكتمال القمر بدراً. كما كان الاعتقاد في أن الملح في سيوه يزداد وينقص تبعاً لازدياد القمر ونقصانه. ويقترح (ج. مرسييه **G. Mercier**) أن اللفظ الأمازيغي (أچور aggur) أو (أيور aiyur) ومنه (إيارو ieru) الذي يبدو كما لو كان اسماً مقدّساً، يرتبط بالصفة (أغسطس augustus) حسبما ظهر على نقش وُجد بالقرب من الإسكندرية. علماً بأن لفظ (إيار) في الأمازيغية يعني (شهر). ويبدو أنه اسم إله القمر عند قدماء الليبيين.

12- (إله السماء **Deus Coelestis**): اعتقد قدماء الليبيين أن السماء كانت عبارة عن سطح صلب معلّق فوق الجو الأرضي. كما كانوا يعتقدون أن إله السماء يموت مؤقتاً في فصل الخريف، فيحتفلون بانبعاثه في فصل الربيع، ويقدّمون له بواكير الفواكه. وقد أشاروا للإغريق أن سماء قورينا "مثقوبة" أي كثيرة المطر، وبالتالي فهو رغم غموضه يُعتبر إله

الطقس عند قدماء الليبيين. كما وُجدت أيضاً إلهة للسماء (أنثى)، وقد التبس أمرُها في العصر القرطاجي بالآلهة القرطاجية (تانيت)، أما في العصر الروماني فعُرفت باسم (إلهة الأغذية Dea Nutrix).

مناقشة جانبية: من خلال السرد التاريخي الذي خصّ به المؤرخون الديانات الليبية القديمة، يتضح لنا أن الآلهة التي توصّل قدماءُ الليبيين لعبادتها خلال بحثهم عمن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، كانت عبارة عن أفكار بدائية ساذجة، ولكنها -في حقيقة الأمر- كانت أفكاراً إنسانية خلاّقة في زمن لم تعرف فيه البشريةُ الأنبياءَ والرسلَ الذين يرشدون أقوامهم إلى الخالق الحقيقي الجدير بالعبادة والالتجاء إليه، فتمثلوا ذلك في أشياء رأوها أقوى منهم كالظواهر الكونية من رياح وغيوم وسحب وبرق وسراب.. وموجودات طبيعية من حجارة وأشجار وحيوانات.. ثم جسّدوا ذلك في الأجساد والأرواح البشرية. ولكن الأمر المهم في هذا الصدد هو أن قدماءَ الليبيين كانوا كغيرهم من شعوب تلك الحقب، يولون اهتماماً إضافياً للنواحي الروحية، حتى توصلوا إلى ما توصلوا إليه من معبودات ومراسم دينية يُشبعون -من خلالها- غريزة العقيدة عندهم، وبات لهم آلهة لها أسماؤها وخصوصياتها ووظائفها وخوارقها. ومن هنا عرفت الشعوب المجاورة لهم تلك الآلهة فاستعارتها وعبدتها بعد أن وضعت لها أسماءً معينةً أو غيرت أسماءَها الأولى. فقُرصُ الشمس بين قرني الكبش الليبي الذي عُرف بإله الشمس صار الإله آمون في سيوه، ثم عُبد في طيبة المصرية. والقبور الهرمية الليبية الصغيرة صارت أهراماً ضخمةً في مصر، ناهيك عن التحنيط وطرق الدفن التي تشير إلى الإيمان باليوم الآخر. أم المعبودات ذات الأسماء فقد يكون أهمها على الإطلاق (بوسايدون) وابنته (أثينا) التي تبنّاها آمون إله سيوه، والتي صارت ربة الحكمة والحرب عند الإغريق، وربما تكون هي (نيث) التي عبدها الليبيون في غربي الدلتا منذ ما قبل تأسيس الأسرات، وهي المعروفة بـ"**إلهة السهم**

والقوس» الذي اشتهر بهما الليبيون، وهي أيضاً «**نيث الليبية المروّعة زعيمة الأقوام التي تعيش غرباً**»(23). كما أن إله الصقر للمقاطعة الثالثة الغربية في مصر يُدعى ''**حورس الليبي ذا الذراع القاصمة** "The Libyan Horus with the striking arm''(24) وبالتالي فيبدو أن العقيدة الليبية القديمة -رغم بساطتها وسذاجتها- لم تكن مستعارة مباشرةً من الشعوب المجاورة، بل كانت محليةً خالصةً، وربما كانت فعّالةً في زمانها إلى درجة أن قدماءَ المصريين والإغريق استعاروا الآلهة الليبية وقدّسوها، واشتهرت عندهم أكثر من اشتهارها في بيئتها الأولى. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الحضارة الليبية القديمة كانت محليّة ومن صنع أصحابها. ولكن -رغم كل ذلك- نعتقد أن مقوّمات تلك الحضارة لم تكن -بأي حال من الأحوال- منبثقة كالفطر من تحت الأرض، وإنما كانت مبنية على أساس التأثير والتأثر الذي يسببه الانتقال والترحال والهجرة والمجاورة والاختلاط الدائم بين المجموعات البشرية منذ العصور الحجرية الأولى، إلى أن استقرت الأمم في أقاليمها ودوّنت أحداثها على صفحات سجلاتها التاريخية، فاتضحت خصوصياتُ الحضارات ونُسبت إلى أقوام معينة.

(23) جاد الله، د. فوزي فهيم: **مسائل في مصادر التاريخ الليبي قبل هيرودوت**، مجلد المؤتمر التاريخي، الجامعة الليبية، 1968، ص57.

(24) جاد الله: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

ثانياً: اليهودية في ليبيا:

1- اليهود في فلسطين:

جاء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) من أور الكلدانيين بالعراق في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد، إلى مصر عن طريق بيت المقدس. وكانت معه زوجتُه سارة، وابنُ أخيه لوط وزوجتُه وبنتاه. فتزوّج من هاجر المصرية، وأسكنها مع ابنها إسماعيل في وادي غير ذي زرع، وهو موقع مكة المكرّمة بين الصفا والمروى. بينما أنجبت له زوجتُه العبرانية سارة ابنَه إسحاق واستقرت به في بيت المقدس بفلسطين. ومن إسحاق جاء يعقوب إسرائيل الله، وهو أبو يوسف (عليهم السلام أجمعين). وفي عهد يوسف دخل اليهود إلى مصر، في حدود القرن السادس عشر قبل الميلاد. وبقوا هناك أكثر من أربعة قرون، وخرجوا منها في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد، في عهد رعمسيس الثاني. وفي صحراء سيناء تعاهدوا مع الإله العبراني (يهوه). وجاءهم موسى (عليه السلام) بالتوراة (الوصايا العشر) من جبل طور سيناء. ولكنهم خانوه ونقضوا عهد الرب. وعندما دخلوا إلى فلسطين بعد أربعين سنة من التيه في صحراء سيناء، اصطدموا مع الفلسطينيين الكنعانيين. وفي بداية القرن الحادي عشر قبل الميلاد تأسست مملكة إسرائيل ويهوذا على يد النبي داوود وابنه سليمان (عليهما السلام)، تلك المملكة التي دامت اثنين وسبعين سنة، ثم تفككت، وعاد اليهود إلى التشتت والتشرذم، حيث سباهم نبوخذنصر ملك بابل في القرن السادس قبل الميلاد، وحطّم هيكل سليمان، فزاد من تشتتهم، إلى أن عاد قليل منهم إلى فلسطين في عهد كورش الفارسي، وأعادوا بناء الهيكل. ولكن الإغريق -في حملتهم على الشرق بقيادة الإسكندر المقدوني في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد- اضطهدوا اليهود وحملوهم على الأغرقة وأجبروهم على ترك معتقداتهم، كما أن الرومان اضطهدوهم أيضاً ودمّروا هياكلهم، مما أثار حفيظة اليهود في كل مكان فثاروا عدة مرات.

2- علاقة قدماء الليبيين باليهود واليهودية:

تزامن دخول اليهود بزعامة يوسف (عليه السلام) إلى مصر مع التواجد الليبي المكثف في الدلتا. فقد استقر اليهود في (أرض جوشن)، وهي أرض تقع في الشرقية، بها مدينة (بوباستيس) التي صارت -فيما بعد- عاصمةً للأسرة الثانية والعشرين الليبية. غير أن الليبيين كانوا سريعي الاندماج في المجتمع المصري، بينما منع الفراعنةُ ذاك الاندماج على اليهود -كما منع اليهودُ أنفسَهم من ذلك- منذ البداية، فبقوا منفصلين عن المصريين طيلة أكثر من أربعة قرون. وقد قيل أن الملك سليمان تزوّج من ابنة شيشنق الأول، وقيل أيضاً أنه تزوّج من ابنة بسوسنس الثاني[25] أخت زوجة شيشنق، وبالتالي يكون سليمان إما صهر شيشنق الأول أو عديله. وقد كان الليبيون شديدي الولع بالنواحي الدينية، حتى أنهم ترأسوا الكهانة في مصر ورعوا المعابد فيها، بينما كان ولع اليهود بالسحر وبثوه في المجتمع المصري، حتى أن معجزةَ النبي موسى (عليه السلام) كانت تعتمد على إبطال مفعول السحر. وبالتالي، فيبدو أن المنافسة كانت على أشدّها بين الليبيين واليهود على الأرض المصرية، حيث اتضح ذلك في الغزوة الشهيرة التي قام بها شيشنق الأول على مملكة إسرائيل ويهوذا إثر وفاة سليمان، فأنهى نفوذها في المنطقة.

ويعتقد (أرنولد توينبي **Arnold Toynbee**) أن اسم (موسى) اختصار لاسم إلهي مركّب من (أتون): اسم قرص الشمس + (موس) أو (مسه)، والأدلة على ذلك كثيرة، مثل: (أحموس) و(تحتموس) و(رامس:رعمسيس).. ورغم عدم ورود اسم (موسى) في الوثائق المصرية إلاّ أن (توينبي) يقارنه بالفرعون الموحّد (إخناتون)، لأن اسم الإله العبراني (يهوه) يعني مبدئياً: (الحياة) أو (الواهب الحياة)، وهذان كانا من صفات الإله (أتون). وهذه الاعتبارات

---

(25) بسوسنس الثاني هو آخر فراعنة الأسرة الواحدة والعشرين، يقال أنه لم يُنجب وريثاً للعرش، فأوكل هذه المهمة إلى شيشنق زوج ابنته وقائد قواته المسلحة ومستشاره، الذي تولى بعده العرش وأسس الأسرة الثانية والعشرين الليبية سنة 945 ق.م.

توحي بأن (موسى) قد يكون شخصيةً حقيقيةً، مثل نظيريه الليبيين اللذين قد يكونان معاصرين له: (ميريي) و(مشر) الثابت وجودهما تاريخياً[26]. وهذا الطرح يوحي بأن (إخناتون) قد يكون من أصول ليبية، ربما توافقت أفكارُه التوحيدية مع دعوة النبي موسى (عليه السلام) إلى عبادة الإله الأوحد. وحقيقة الأمر أن ثورة إخناتون لم يُكتب لها النجاح في مصر، حيث حوربت من قبل خلفائه وعادت عبادة الآلهة المتعددة، ربما حصل ذلك بعد خروج اليهود مع نبيهم موسى إلى صحراء سيناء. علماً بأن زمن إخناتون (الأسرة الثامنة عشر) كان سابقاً لعهد رعمسيس الثاني (الأسرة التاسعة عشر) الذي قيل أنه فرعون موسى.

أما الديانة اليهودية، فهي في الأساس ليست من النوع القابل للانتشار باعتبارها ديناً خاصاً بأبناء (يهوه) من بني إسرائيل، فلم يهتموا بالتبشير به بين الشعوب التي عاشوا على أراضيها. غير أن بعضاً من الأقوام الوثنية اعتنقت اليهودية باعتبارها ديانةً سماويةً. وعلى سبيل المثال، لم يكن ثلثُ يهود إيطاليا ينحدرون من نسل إبراهيم وموسى، بل ربما كانوا من نسل (رومولوس وريموس) لأن أسلافهم كانوا وثنيين أصلاً، فبدأوا يعتنقون الديانة اليهودية منذ القرن الأول الميلادي[27].

من الصعب تحديد تاريخ دقيق لوجود اليهود في ليبيا، إلاّ أن ذلك قد يكون منذ دخولهم -سالف الذكر- إلى مصر، وأنهم ظلوا كعادتهم معزولين في نطاقهم الضيق، يعملون وحدهم ويعيشون وحدهم، واضعين أنفسهم في خدمة الأطماع الأجنبية. فبعد منتصف القرن الرابع قبل الميلاد أعلن بوليوس أن "**بطلميوس بعث بفريق من اليهود إلى مدينة قورينة ليستقروا بها، ذلك لأنه كان مهتما بتشديد قبضته على هذه المدينة وبقية مدن**

---

(26) توينبي: **مصدر سابق**، ص115.

(27) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص402.

ليبيا الأخرى»[28]. ومقابل هذه الخدمة كان اليهود يظفرون بمعاملة خاصة من جميع الحكّام الأجانب، حتى سمحوا لهم بإنشاء هيئات مستقلّة، بمثابة دولة داخل دولة، لها محاكمها وقضاتها وقوانينها، ولها حق جباية الضرائب من اليهود وإرسالها إلى الهيكل في بيت المقدس[29]. وهذا ما جعل الديانة اليهودية حكراً عليهم. "**وقد بلغ من قوة اليهود في برقة أن الملكة كليوبترة الثانية كانت تعوّل عليهم لمساعدتها في الاستئثار بحكم مصر، واتخذت منهم قائدين لجيشها ضد بطليموس الصغير**»[30].

وقد تكاثر اليهود -مؤخراً- في المغرب العربي مع طرد اليهود من إسبانيا، فتوزع حوالي خمسة عشر ألف يهودي في شمال أفريقيا ومصر، حيث تمتعوا -على هذه الأرض الطيبة التي احتضنتهم- بكامل حريتهم الدينية والاقتصادية لعدة قرون في ظل الدولة الإسلامية أولاً، ثم في ظل الدولة العثمانية[31]، على عكس ما واجهوه من اضطهاد في أوروبا.

لذا، فإن تواجد اليهود في طرابلس كان منذ زمن الفينيقيين بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، ثم تكاثروا فيها بعد طردهم من إسبانيا سنة **1496**. أما في برقة فقد كانت بداية استقرارهم فيها عندما قدموا إليها من مصر بتشجيع من البطالمة، الذين كانوا يأسرونهم ويعودون بهم إلى مصر في أعقاب غزواتهم المتكررة لفلسطين. إلى جانب هروبهم من الأغرقة المفروضة

---

(28) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، الكتاب الثاني، ص178.

(29) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(30) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(31) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص403.

عليهم في فلسطين، فكانوا يأتون إلى برقة وينضمّون إلى يهودها. ويبدو أن أعداداً قليلةً منهم تغلغلت في منطقة طرابلس في تلك الفترة[32].

مناقشة جانبية: يبدو أنه عندما استقر اليهودُ في الشمال الأفريقي (ليبيا القديمة)، وجد بعضُ قدماء الليبيين في الديانة اليهودية مخرجاً مناسباً من التخبط الوثني، حتى أن الكاهنة الداهية ملكة الأوراس كانت -كما قيل- تعتنق اليهودية عندما جاء العربُ فاتحين إلى المغرب. غير أننا نرى أن هذا الرأي كان من وضع الكتّاب الغربيين، مثل (جون رايت **John Wright**) الذي يقول بأن اليهود اجتذبوا قبيلة زناتة التي تنتمي إليها الكاهنة، حيث كان ذلك عقب ثورة اليهود في برقة سنة **115** ميلادية وهروبهم إلى الصحراء في الجنوب والغرب من برقة، فاحتاجوا للمساعدة من قبل السكان المحليين الذين ظهرت منهم فرق الجمّالة (الهجّانة) المعادية للرومان، كما يُرجّح أن اسم (الكاهنة) كان صورةً مبكّرةً لاسم (كوهن) الشائع حالياً بين اليهود[33]، بينما نرى -من المرجح- أنه يعني (الكهانة والعرافة) باعتبارها ملكة و(داهية) سياسية إلى جانب أنها شخصية مقدّسة عند أفراد قبيلتها.

---

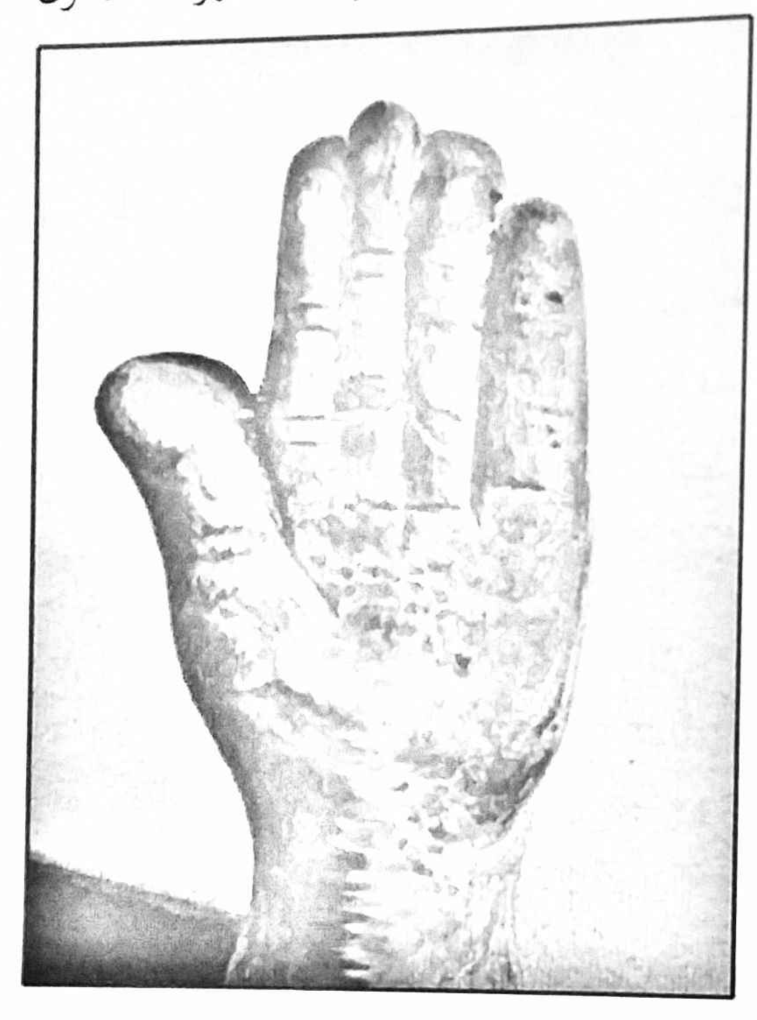
(32) البرغوثي: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(33) البرغوثي: **نفس المصدر**، ص415.

ثالثاً: الاندماج الديني بين قدماء الليبيين والفينيقيين:

1- الأرباب ورموزها:

إن الإله (بعل) الفينيقي أصبح اسمه في قرطاجة (بعل حمون)، وهي صيغة تجمع -فيما يبدو- بين (بعل) الفينيقي وبين (أمون) الليبي[34]، خاصة وأن هذا الإله بدأ يظهر حاملًا فوق رأسه القرون نفسها التي قلنا سابقاً أنها تحتضن قرص الشمس كرمز لإله الشمس عند قدماء الليبيين. أما الربّة (عشتار) الفينيقية فقد أخلت مكانها أو اندمجت -أحياناً على الأقل- في الربّة (تانيت) الليبية التي ظهرت في قرطاجة بمثابة ربّة الخصوبة والإنتاج، ويُرمز إليها في المعابد بسيدة تُرضع طفلها أو بمثلث يمثل الجسد ودائرة تمثل الرأس، أو بيد مرفوعة إلى أعلى. "**وقد كشفت الحفريات عن جميع هذه الرموز في مدينة صبراتة**»[35].



ويبدو أن تلك الرموز تحوّلت إلى تمائم، حيث شاعت صورة اليد التي ترمز إلى (تانيت) وأصبحت تُرسم على الجدران وتُعلّق في الأعناق لدفع العين الحاسدة. وأيضاً ظهرت صور

---

(34) موسوعة تاريخنا: **مصدر سابق**، ص202.

(35) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

العين والأذن والقدم وأصابع اليد الخمسة المفردة[36]. وقد سبق وأن تحدثنا عن ظاهرة الـ (حويتة وخميسة وقرين) في الثقافة الشعبية الليبية الحالية، وها هي تظهر عند قدماء الليبيين في الزمن الفينيقي (خمسة اليد) كرمز مقدّس مثلما كانت القرون قبلها. ولا نشك في أن رمز (خمسة اليد) كانت قد أُخذت مباشرة من اليهود لأنها استمرت كتقليد يهودي إلى الآن، وجميعنا يعلم تأثير الإسرائيليات على الثقافة الشعبية العربية عموماً.

2- المدافن والإيمان بالحياة الأخرى:

قلنا أن قدماء الليبيين قد مارسوا طقوساً توحي بإيمانهم باليوم الآخر، وذلك عندما اهتموا بدفن موتاهم بطرق غريبة وترك معدّات وأوانٍ قد تكون مليئة بالطعام والشراب تساعدهم في رحلتهم إلى المجهول، وقدّموا لهم القرابين، واستنبطوا من قبورهم التنبؤات عن طريق البيات عندها وتفسير الأحلام التي تنتابهم، وفي ذلك إشارات واضحة إلى غموض ماهية الرحلة بعد الموت. والحقيقة أن مثل تلك الاعتقادات لم تكن من شيم قدماء الليبيين وحدهم، بل كانت ظواهر مشتركة بين المجتمعات المعروفة في العالم القديم. فالقبور المكتشفة في ليبيا وقرطاجة تعكس الأفكار نفسها التي سادت في مصر القديمة وبابل وآشور، وتضم المتاع نفسه الذي قد يحتاجه الميتُ للعبور إلى رحلته نحو العالم الآخر بسلام. فمنذ بضع سنوات كشفت الحفريات في ليبيا عن قبرين متجاورين يعودان إلى العصر القرطاجي: الأول يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، والثاني يعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد. وفي مدينة صبراتة الأثرية عُثر أيضاً على ضريحين من نفس الطراز، يعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وفي جنزور (غربي طرابلس) عُثر على طراز مختلف من المدافن، وهي حجرات محفورة تحت الأرض، تتكون جدرانها من صفوف من المشكاوات لحفظ الأوعية المحتوية على رماد الجثث، والظاهر أن عادة حرق الموتى بدلاً

---

(36) موسوعة تاريخنا: **نفس المصدر**، ص203.

من دفنهم كانت شائعة بين الطبقات الفقيرة خاصة في المدن، وأنها لم تنقرض نهائياً حتى منتصف القرن الأول بعد الميلاد[37]. غير أننا نرى أن ذلك ليس دقيقاً، لأن قبر الملك النوميدي (مسينيسا) في دُقّة بتونس وُجد به جفن يحتوي على جثته محروقة، ولم يكن مسينيسا رجلاً فقيراً، بل كان ملكاً وشخصيةً تاريخيةً مرموقةً، امتد نفوذُه من الجزائر (حالياً) إلى كامل سهل الجفارة الطرابلسي، وكان زمنه عقب سقوط قرطاجة بيد الرومان سنة **146** ق.م. وكان في بداية عهده موالياً للسلطة في روما.

إن عادة حرق الجثث التي مارستها شعوب عديدة إنما تعكس الخوف من أهوال العالم الآخر، وهي عكس وضع الأواني المليئة بالطعام والشراب والأسلحة والمجوهرات الثمينة في القبور. ربما اكتشف الإنسان القديم مسألة الثواب والعقاب، وتخيّل العذاب بالنار في الآخرة، فاستبق ذاك العذاب بحرق جثث موتاه أملاً في عدم حرقها ثانية بعد بث الروح فيها من جديد. غير أن ذلك لم يعد مجدياً بعد نزول الرسالات، خصوصاً الدين المسيحي الذي انتشر على مستو واسع وقتها، واتضحت العلاقة بين الإنسان وربه، وشاعت معرفة الثواب والعقاب في الآخرة تبعاً للأعمال الدنوية خيراً كانت أم شراً. ورغم كل ذلك لا تزال عادة حرق الجثث سائدة عند بعض الديانات الوضعية كالهندوس في الهند.

---

(37) أنظر: تاريخنا: **نفس المصدر**، ص ص206-207.

رابعاً: المسيحية الأرثوذكسية تنطلق من ليبيا:

1- ظهور المسيحية:

تقول كتب العهد الجديد[38] أن عيسى (عليه السلام) وُلد من أمه مريم بنت عمران -من نسل داوود (عليه السلام) من سبط يهوذا- في (بيت لحم) في أيام (هيرودس) الملك على اليهودية بأمر الإمبراطور الروماني (قيصر أوغسطس). وخُتن على سنّة جدّه إبراهيم (عليه السلام) وهو في يومه الثامن، وسُمي (يسوع) أي (المخلّص). ولما سمع به هيرودس قرر قتل كل المواليد في بيت لحم، فهرّبوه إلى مصر إلى أن هلك هيرودس، فعادوا به إلى الجليل والناصرة. ولما تجاوز العشر سنوات صعدوا به إلى أورشليم ليصلّي فيها حسب شريعة موسى (عليه السلام)، وهناك حاجّ العلماءَ في أمر الناموس، فخافت عليه أمه وعادت به إلى الناصرة. وسكتت الأناجيل عن المدة التي عاشها المسيح بين سن الثانية عشر وسن التاسعة والعشرين. أما عن نبوّته فقد بدأت منذ أن جاء إلى (يوحنا المعمدان) وهو (يحي بن زكريا) وعمّده في نهر الأردن، فنزل عليه (روح القدس)، وتلقى (الإنجيل) عندما بلغ الثلاثين، وهو على (جبل الزيتون)، وسلّمه إلى تلاميذه، وهي لا وجود لها حالياً باستثناء ما ألّفه أولائك التلاميذ. وكانت مهمة النبي عيسى (عليه السلام) هي أن بني إسرائيل قد طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وحرّفوا شريعة الله التي جاءهم بها موسى (عليه السلام). لذا جاء المسيح ليرد اليهود عن ذاك الانحراف.

كان تلاميذ المسيح وحواريوه إثنى عشر، وكان سبعون نفراً من أوائل المؤمنين بنبوّته، فوضع فيهم ثقته وأرسلهم للتبشير برسالته في كل الاتجاهات. أما اليهود خصوصاً الكهنة والفريسيون، وهم الدراويش أو الزُهّاد الذين قطعوا صلتهم بالعالم إلاّ للضرورة، وكانوا قد

---

(38) عن تاريخ عيسى (عليه السلام) من خلال الأناجيل المسيحية والقرآن الكريم، أنظر: النجار، عبد الوهاب: **قصص الأنبياء**، ط3، ؟، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان، ص ص371-468.

فسدوا، فأراد المسيح أن يردّهم إلى الحق ويبين فساد ما هم عليه من الطمع والتهالك على الدنيا، فأنكروا عليه نبوّته وحاربوه منذ البداية، ثم شكوه -أخيراً- إلى الوالي الروماني الذي بعث الجند للقبض على عيسى ابن مريم، فأنقذه ربُّه، وألقى شبهه على شخص آخر وهو أحد تلاميذه الاثنى عشر، اليهودي الخائن المدعو (يهوذا الأسخريوطي)، فأخذوه وصلبوه، وشاع بين الناس أن يسوع الناصري قُتل بعد أن صُلب (وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبّه لهم).

مناقشة جانبية: يتضح من خلال السرد الإنجيلي لحياة المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) أن المؤمنين بنبوّته والمتتلمذين على يديه وعلى أيدي حوارييه ورسله لم يكونوا في الغالب من اليهود المتنكّرين له والرافضين لرسالته والمتشبّثين بعقيدتهم الأولى والمحافظين على كتبهم المحرّفة تحريفاً يخدم مصالحهم في المنطقة. لقد كان في فلسطين وقتها ثلاث ملل رئيسية: الكنعانيون واليهود والجيوش الرومانية المحتلة. فلم يكن في اليهود من يرضى بتغيير نمط الحياة الدينية السائدة منذ عهد موسى (عليه السلام) أي منذ حوالي ألف ومائتي سنة. ولم يكن في الجيش الروماني من يقبل تغيير نمط الحياة السياسية بعد أن سيطروا على اليهود وجعلوهم مؤيدين ومناصرين لهم. فمن يا ترى له المصلحة في التغيير وإعلاء كلمة الحق غير أصحاب الأرض الحقيقيين وهم الشعب الكنعاني الفلسطيني المناوئ لليهود والرومان معاً؟ فلا نستبعد أن الكنعانيين كانوا على رأس من آمن بنبوّة المسيح، فناصروه والتفوا حوله وأخذوا منه تعاليم الدين الجديد. غير أن اليهود -على ما يبدو- أرادوا حشر أنفسهم كعادتهم وأرجعوا بعض التلاميذ والحواريين إلى أصول يهودية، رغم أن التوراة لم تذكر النبي عيسى على الإطلاق، كدليل على عدم الاعتراف بنبوّته، بل حرّضوا الرومان على صلبه وقتله. ومن هؤلاء الحواريين والرسل المشهورين بأناجيلهم ورسائلهم[39]:

---

(39) أنظر: النجار: **نفس المصدر**، صفحات متفرقة، وكذلك: عبّودي: **مصدر سابق**، صفحات

- متّى (Matthew):

يقال أنه لم يكتب إنجيله باليونانية، بل بالعبرية، وذلك إجابةً لبعض اليهود الذين آمنوا بنبوّة المسيح، أو أن العبرية كانت شبيهة بالآرامية التي بشّر بها المسيح. ويبدو أنه لاتينياً وليس يهودياً، حتى أن جثمانه قد نُقل من الحبشة إلى سالرنو بإيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي.

- لوقا (Luke):

يقال أنه وُلد في سوريا، وامتهن الطب في أنطاكيا. وبالتالي فهو -على ما يبدو- كنعانياً وليس عبرانياً.

- يوحنّا (John):

أبوه (زبدي الصياد) وأمه (سلّومة)، وُلد في بيت صيدا من الجليل قرب بحيرة طبرية. وكان عيسى يحبّه جدا.

- مرقس (Mark):

يقولون أنه يهودي (من سبط لاوي)، بشّر بإنجيله باللغة الفرجية وليس بالعبرية، وألصقوا له اللقب العبراني (يوحنّا) الذي يبدو أنه لغيره ولا يخصه. وسنخصص لهذا الرسول حديثاً مستقلاً لأهميته في سياق هذا البحث.

- بطرس (Peter):

سمّاه المسيح (كيفا) ويعني بالآرامية (الصخرة)، وتُرجم إلى اللاتينية (بيتروس)، وأصل

متفرقة.

اسمه (سمعان بن يونا). وُلد أيضاً في بيت صيدا بالجليل. وتشير بعض المصادر إلى أصله الكنعاني.

- **بولس (Paul):**

وُلد في طرسوس وتوفي في روما، ولقبّه اليهود بـ(شاول). وكانت له عدة رحلات تبشيرية إلى أنطاكيا وتركيا واليونان. قبض عليه اليهود في أورشليم وسلموه للرومان فسجنوه عدة مرات في فلسطين، ثم في إيطاليا حيث قُتل هناك.

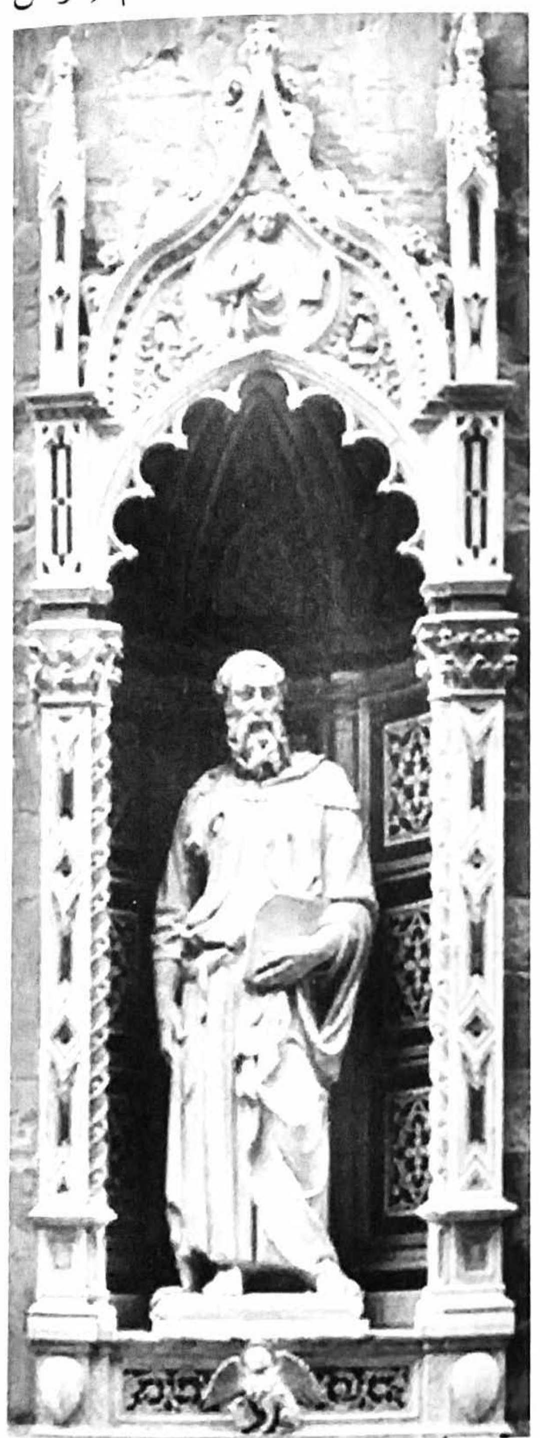
- **برنابا (Barnabas):**

قبرصي الأصل، ويقولون أنه (لاوياً) أي يهودياً، وهو خال (مرقس). إنجيله غير معترف به، ربما لأنه بشّر بنبيّ سيأتي بعد المسيح اسمه (أحمد)، وهذه تكفي للبرهنة على أنه ليس يهودياً، وكذلك ابن أخته مرقس.

من خلال هذه الأسماء وغيرها لا يبدو من بينها ما يشير إلى الأصل اليهودي لتلاميذ المسيح وحوارييه والرسل السبعين الذين كلّفهم بنشر تعاليمه.

2- مرقس القوريني (الدرناوي) الليبي يبشّر بالمسيحية خارج القدس:

أ- أصله وموطنه: يقول اليهود أن مرقس الرسول أصلُه من أبوين يهوديين، هاجرا من فلسطين إلى ليبيا، وأطلقوا عليه الاسم العبراني (يوحنّا **John**) ويعني (يهوه حنان)، أما اسم (مرقس **Mark**) فهو روماني ويعني (المطرقة) ويشير إلى أنه قاد المقاومة من الناحية الدينية والوطنية في ليبيا ضد الرومان فأطلقوا عليه هذا اللقب. كما أنه حمل اسم (لابيوس **Labios**) أي (الليبي)[40]. ولا يوجد أي دليل مادّي على أصله اليهودي. فهو من مواليد (قورينا) بالجبل الأخضر بليبيا (منطقة برقة)، وآثارُ معبده لا زالت قائمة في كهفٍ بالقرب من مدينة (درنة) الحالية. وكانت قورينا وقتها تعج بالإغريق واليهود وكذلك الكنعانيين الذين توافدوا عليها من الشرق خصوصاً في العصر البطلمي، إلى جانب العنصر المحلي وهو الأغلب. فلم يكن مرقس يهودياً بالضرورة، فقد يكون إغريقياً أو كنعانياً أو ليبياً.



الرسول مرقس الليبي بهيئته الرومانية (عن Wikipedia 2009)

---

(40) سعيد، د. لؤي محمود: **الأصول المصرية الليبية للأرثوذوكسية، وأثرها على العالم المسيحي**، محاضرة مقدمة إلى ندوة (الجذور المشتركة للحضارات العروبية القديمة)، مجمع اللغة العربية بطرابلس ليبيا، 14-2009/06/17، ص2، عن داود حلاق: **مرقس الإنجيلي**، ص39..

وقد وصفته المصادرُ أيضاً بـ(القيرواني)، والمعلوم أن القيروان كان قد بُني في وسط تونس (الحالية) من قبل عُقبة بن نافع في حدود سنة **670** الميلادية، إذ يبدو أن بعض المؤرخين أساءوا ترجمة اسم مدينة (قورينا **Cyrene**) وهي إحدى المدن الخمس (**Pentapolis**) التي أنشأها الإغريق ببرقة، فترجموها بـ(القيروان). اسم والده إغريقيٌّ: (أرسطوبولس) وأمه (مريم)[41] وهي امرأة تقية صار لها اعتبارُها بين المسيحيين الأولين. لقد تعلّم مرقس اليونانية واللاتينية والعبرية كدليل آخر على أنه لم يكن إغريقياً ولا يهودياً، فالإغريق واليهود لم ينسوا لغتهم مهما تباعدوا عن أوطانهم ومهما طال بهم الزمن في الغربة. فكان مرقس ليبي المولد والنشأة والثقافة[42] مهما كانت أصوله الأولى. وكان يمت بصلة القرابة للرسول بطرس، إذ كان والده ابن عم زوجة القديس بطرس الرسول أو ابن عمتها، كما يمت بصلة القرابة لبرنابا الرسول كونه ابن أخته أو ابن عمه[43]. وهذه القرابة تثير قضية انتماء مرقس من جديد، فإذا كان الرسولان بطرس وبرنابا ليسا يهوديين، فلا بد أن يكونا كنعانيين، وتكون عائلة مرقس كنعانية من التجار الفلسطينيين التي سكنت برقة قبل أن تعود إلى (أرض الوطن)، تلك العودة التي اعتقد -من خلالها- البعضُ أنها عائلة يهودية.

---

(41) أعمال الرسل **Acts of the Apsoltes**: 12 :12، جاء فيه:
(So, when he had considered this, he came to the house of **Mary**, the mother of John whose surname was **Mark**, where many were gathered together praying).

(42) سعيد: **مصدر سابق**، نفس الصفحة.

(43) الجبارين **Colossians**: 4: 10، جاء فيه:
(Aristachus my fellow prisoner greets you, with **Mark** the cousin of **Barnabas**..).

ب- إنتقال عائلة مرقس إلى فلسطين والانخراط في خدمة المسيحية: كانت عائلة مرقس من العائلات الثرية في برقة، وعندما تحوّلت إلى فلسطين هروباً من بعض القلاقل في ليبيا في أواخر عهد أغسطس قيصر (**30** ق.م.-**14**م)، استفادت أمه مريم من الأموال التي نقلتها معها إلى الأراضي المقدسة، فاستغلتها في خدمة المسيح (عليه السلام)، حيث كانت عليّة بيتها كنيسةً يجتمع فيها الرسلُ بالمسيح[44]، وهناك غسل المسيحُ أقدامَ التلاميذ، وسلّمهم سرَّ (الإفخار ستيا)، فصارت بيتُ مريم أم مرقس أول كنيسة مسيحية في العالم دشنها السيد المسيح بحلوله فيها[45]. أما مرقس فلا بد أنه رأى السيد المسيح وجالسه وعاش معه، لذا لقّبته الكنيسة بـ(ناظر الإله). ويذكر التقليد المسيحي أن الشاب مرقس كان حاملاً الجرّة عندما التقى به التلميذان ليُعدّا الفصح للسيد[46]، أي أن (العشاء الأخير) كان قد أقيم في بيت أمه وبحضوره. وقيل أنه تبع المسيح وكان لابساً إزاراً على عُريّه فأمسكه الرومان أو أتباعُهم اليهودُ، فترك الإزار وهرب منهم عرياناً[47].

---

(44) أعمال الرسل: مصدر سابق، نفس الفصل، نفس الفقرة.

(45) Marnarsay.com (2009).

(46) لوقا **Luke**: 22:11، جاء فيه:

(Then you shall say to the master of the house (**بيت أم مرقس**), 'The Teacher says to you, "Where is the guest room where I may eat the Passover with My disciples?" ').

(47) مرقس **Mark**: 14: 52-51، جاء فيهما:

(Now a certain **young man** followed Him, having a linen cloth thrown around his naked body. And the young men laid hold of him), (And he left the linen cloth and fied from them naked).

ج- **خروجه للتبشير خارج الأرض المقدّسة**: رغم أن مرقس لم يكن من التلاميذ والحواريين الإثني عشر، ربما لصغر سنّه، إلاّ أن مؤرخي الأقباط وبعض مؤرخي المسلمين[48] أجمعوا على أنه كان ضمن الرسل السبعين الذين ذكرهم لوقا في إنجيله[49]. ويخبرنا سفر (أعمال الرسل) أن مرقس انطلق مع بولس وبرنابا للتبشير في أنطاكيا وقبرص ثم في آسيا الصغرى[50]، واضطر للعودة إلى القدس ربما لمرض انتابه فلم يُكمل مع زميليه الرحلة، وعاد في رحلة ثانية مع برنابا إلى (سيلوسيا) في آسيا الصغرى وقبرص[51].

وبالعودة إلى أصول الرسل غير اليهودية، نلاحظ أن المسيح (عليه السلام) كان قد حذّر أتباعه -وقتها- بعدم الخروج من الأرض المقدّسة قائلاً لهم: "**إلى طريق الأمم لا تمضوا**»، فهو يرى أن اليهود -قبل ظهور المسيح- كان لديهم اعتقاد راسخ بأنهم سيحكمون العالم، لهذا كانوا ينتظرون مسيحاً يعيد لهم مملكة **داود وسليمان** (عليهما السلام) على الأرض، أو بلفظ آخر، كانوا يتمنّون «**مسيحاً دنيوياً**»، فلما جاءهم «**مسيح أخروي**» يزيّن

---

(48) سعيد: **مصدر سابق**، ص3.

(49) لوقا: **مصدر سابق**، 10: 1، جاء فيه:
(After these things the Lord appointed **seventy** others also, and **sent them** two by two before His face into every city and place where He Himself was about to go).

(50) Marnarsay.com (2009): Op. Cit.

(51) أعمال الرسل: **مصدر سابق**: 13: 4، جاء فيه:
(So, being sent out by the Holy Spirit, they went down to **Seleucia**, and from there they sailed to **Cyprus**).

لهم «**ملكوت السموات**» انصرفوا عنه وآذوه هو وأتباعه[52]. وهذا يعني أنه ليس من بين أتباعه يهودي، وبالتالي فإن مرقس لم يكن يهودياً كما قالوا عنه فيما بعد. ولكن رغم كل ذلك خرج الرسلُ يبشّرون بالدين الجديد في أصقاع العالم القديم. وعليه فقد دفع الاضطهادُ اليهودي زعماءَ المسيحيين الأوائل للخروج من بيت المقدس، بل وهجران اليهودية كلها موطناً وعقيدةً، واتفق الرسلُ في المجمع العام (منتصف القرن الأول الميلادي) على أن يحملوا الإنجيل إلى خارج يهوذا ''**إلى طريق أمم**» رغم تحذير المسيح[53].

3- مرقس يعود إلى موطنه في ليبيا:

بعد أنطاكيا وقبرص وآسيا الصغرى والبندقية وروما، عاد مرقس ليواصل حملته التبشيرية في القدس، إلاّ أن أعماله الفعلية في الكرازة والتبشير كانت في برقة موطنه ومسقط رأسه، في إحدى المدن الخمس الإغريقية في سيرينايكا (**Cyrenaica**)، تلك المنطقة التي جذبت المبشّرين المسيحيين الأوائل لأنها -كما يقول الأب روفير الفرنسيسكاني- كانت امتداداً طبيعياً لفلسطين عبر دلتا النيل، ولهذا فإن مرقس هو مؤسس الكنيسة الليبية بحق[54]، ولكن المصادر تذكر -في أكثر من موقع- أن مرقس كان يتنقل بين الأماكن المذكورة، لا سيما ليبيا، عن طريق البحر، وبالتالي لم يأت برّاً عن طريق الدلتا. كان ذلك في سنة **56** الميلادية، بعد عودته من روما، فقصد مباشرة ميناء أبولونيا (سوسة الحالية)، وراح يبشّر بالمسيحية في الواحات الجنوبية القريبة من ليبيا والصحراء الأفريقية، علاوة على المدن الخمس التي ذكر سترابون أن مرقس زارها،

(52) سعيد: **مصدر سابق**، نفس الصفحة، عن رأفت عبد الحميد: **الفكر المصري في العهد المسيحي**، ص92.

(53) سعيد: **نفس المصدر**، ص4.

(54) سعيد: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

وهي (سيرين، وأبولونيا، وتوكرة، وبرنيس، وبرقة)، وقد سُميت بـ(المدن الخمس الغربية) تمييزا لها عن (المدن الخمس الشرقية) التي تقع على سواحل لبنان شرقي البحر المتوسط، وهي: (سدوم، وعمورة، وأدمة، وسيجور، وصبوئيم)(55). وقد أسهبت المصادر القبطية في ذكر ''المعجزات الباهرة'' التي صنعها مرقس في برقة مثل: شفاء المرضى، وإخراج الشياطين، وإبراء الأبرص، بل وحتى إقامة الموتى وإعادتهم للحياة(56). بالإضافة إلى إنشاء الكنائس والبيَع وتعيين الأساقفة والشمامسة والكهنة لمتابعة الخدمة الدينية للمسيحيين في ليبيا، وكان أول أسقف عيّنه في قورينا يُدعى (لوقيوس القوريني) المذكور في الكتاب المقدّس(57).

كان مرقس يسافر -بين الحين والآخر- إلى الإسكندرية. وبسبب هذا التواجد المتكرر للقديس مرقس في كل من ليبيا ومصر، وبسبب التواصل البشري والعقائدي بين البلدين منذ القديم، فقد تمتع الليبيون والمصريون بوحدة دينية تحت رئاسة مرقس وخلفائه. ومن أهم الآثار التي تركها مرقس في ليبيا، كما ذكرها الدكتور (لؤي محمود سعيد)(58) في محاضرته بمجمع اللغة العربية في طرابلس في صيف **2009**، ملخصها في ما يلي:

---

(55) سعيد: **نفس المصدر**، نفس الصفحة، عن البابا شنودة الثالث: **مرقس الرسول**، ص44، وحلاّق: **مصدر سابق**، ص15.

(56) سعيد: **نفس المصدر**، نفس الصفحة، عن: مخطوطات عن سير الرسل والتلاميذ بالباطريركية.

(57) أعمال الرسل: **مصدر سابق**: 13: 1، جاء فيه:
(Now in the church that was at Antioch there were certain prophets and teachers: Barnabas, Simeon who was called Niger, **Lucius of Cyrene**, Manaen who had been brought up with Herod the tetrarch, and Saul).

(58) سعيد: **مصدر سابق**، ص ص8-9، عن: حلّاق: **مصدر سابق**، صفحات متفرقة.

أ- في عام **1987** اكتُشفت مقارٌ محفورة في واجهة صخرية في منطقة تسمى ''وادي مرقس''، وتضم شواهد أثرية مثل صهاريج رومانية لحفظ المياه، وبقايا رأس أسد[59]، مما أُعتبر صرح مرقس الإنجيلي، به آثار تدمير واضحة تشير إلى أن الرومان قد دمروا الصرح لمحو اسم مرقس بعد وفاته.

ب- رسومات صهريج خيدرا الصخرية، والتي تُمثل مجموعات تحمل صلباناً كأنها عملية صلب جماعي.

ج- وجود ما يسمى ب''وادي الإنجيل'' في ليبيا، وهو مجاور ل''وادي مرقس''، مما يبعث على الاعتقاد بأنه المكان الذي دوّن فيه مرقس إنجيله.

د- جاء في القانون السادس من قوانين مجمع نيقية المسكوني الذي عقد عام **325** الميلادي: ''**فلتحفظ العوائد القديمة التي في مصر وليبيا والخمس مدن، بأن تكون سلطة أسقف الإسكندرية على هذه جميعها**»[60].

---

(59) تقول الأسطورة أن القديس مرقس اجتذب والده أرسطوبولس للإيمان المسيحي خلال سيرهما معاً في الطريق إلى الأردن حيث فاجأهما أسد ولبوة، فطلب الأب من ابنه أن يهرب، بينما يتقدم هو فينشغل به الوحشان، لكن الابن طمأن الأب وصلى للسيد المسيح، فانشق الوحشان وماتا، فآمن الأب بالسيد المسيح. وكان مرقس قد بدأ إنجيله بقوله: (**صوت صارخ في البرية** The voice of one crying in the wilderness): لوقا 1: 3. ومن ثم بدأ يُرمز له بالأسد: ,(2009) Marnarsay.com Op. Cit

(60) سعيد: **مصدر سابق**، ص9، عن: القمص كيرلس الأنطوني: **عصر المجامع**، ص69.

4- الإسكندرية ونهاية المطاف:

كانت مصر على أيام القدّيس مرقس مركزا للعلم، بها المكتبة الشهيرة في العالم، وكانت بها أجناس عديدة: مصريون وأثيوبيون ونوبيون ورومانيون ويهود، وكانت أكبر فئة أجنبية فيها مكوّنة من الفلاسفة وطلاّب العلم اليونانيين. إلى جانب كل ذلك كانت الإسكندرية مركزاً تجارياً هاماً منفتحاً على البحر المتوسط، فاعتُبرت ثاني أكبر مدينة في العالم القديم بعد روما.

أُختلف في السنوات التي ذُكرت فيها زيارات مرقس المؤقتة إلى الإسكندرية والسنة التي استقرّ فيها نهائياً حتى استشهاده. ولكن يبدو أن زيارته الأولى إليها كانت سنة **55** م، بينما استقراره النهائي فيها كان سنة **66** م، أي قبل استشهاده بسنتين (سنة **68** م). ويقال أن أثناء رحلته الأولى من ليبيا إلى مصر عبر الواحات الجنوبية والصعيد[61]، إلتقى في الإسكندرية بالإسكافي (أنيانوس)، الذي أصلح له حذاءه الممزق من كثرة السير على قدميه، فآمن به، وكان أول مصري يدخل المسيحية، فقام مرقس بتعيينه أسقفاً ثم خلفه بعد استشهاده. وكان مرقس أول بطارقة الديار المصرية، ومؤسس المدرسة اللاهوتية لمواجهة المدرسة الوثنية الأفلاطونية، فحمل لقب "بابا الإسكندرية" إلى اليوم، وأضحى آباء هذه المدرسة المسؤولين عن صياغة اللاهوت الأرثوذكسي الرسمي. غير أن الوثنيين قبضوا على مرقس الرسول يوم **27** أبريل من سنة **68** م، وربطوه بحبل في خيل وأطلقوها تجري في شوارع مدينة الإسكندرية، فتمزق جسده وتهشمت عظامه وقطعوا رأسه.. فقام المسيحيون بدفنه في كنيسة (بوكاليا).

(61) ذُكرت هذه القصة في عدة مصادر، منها ما كان مقتضباً ومنها ما كان مفصلًا، وهذا ملخصها.

5- سمعان الليبي.. حامل صليب المسيح:

يحي المسيحيون الكاثوليك ذكرى درب الصليب، وهي صلاة معروفة لتذكار آلام المسيح، تؤدى فيها رياضة تمثيل مراحل درب الصليب، وهي أربعة عشر مرحلة. وفي المرحلة الخامسة يقال أن المسيح تعب من حمل الصليب لأنه كان يعاني من شدة التعذيب، وإذا بشخص خارج لتوه من حقله، فسخّره الجنودُ الرومان لحمل الصليب مع يسوع المسيح. يقول مرقس في إنجيله: إنه (سمعان القوريني) أبا اسكندر وروفس[62]. أما (متّى) فيقول في إنجيله: ..أنهم صادفوا رجلا من قورينا فسخّروه لحمل الصليب[63]. وقد أجمعت المصادر المسيحية على أن ذاك الرجل اسمه (سمعان القيرواني)، وقلنا -عند الحديث عن مرقس الرسول- أن لقب (القيرواني) إنما هو تحريف للقب (القوريني : البرقاوي، الليبي). يقول (سيزار ميخا هرمز): أعلن القيرواني أمام الملأ -عندما سُخّر لحمل الصليب- بأنه بريءٌ من هذا الرجل، أي يسوع، إلاّ أن نظرةَ المسيح في عيني سمعان جعلته يشعر بالخزي، لأنه تبرأ من المسيح، فساعد المسيح بحمل الصليب، حيث أن يسوع لم يترك الصليب، وانصبّ نظرهما على الطريق لتكملته، ولم يُذكر مقدارُ المسافة التي سار فيها القيرواني مع المسيح إن كانت طويلةً أم قصيرةً[64].

---

(62) مرقس: <u>مصدر سابق</u>، 15: 21، جاء فيه:
(Then they compelled a certain man, **Simon a Cyrenian**, the father of Alexander and Rufus, as he was coming out of country and passing by, to bear His cross).

(63) متى <u>**Matthew**</u>، 27: 32، جاء فيه:
(Now as they came out, they found **a man of Cyrene**, **Simon** by name. Him they compelled to bear His cross).

(64) هرمز، سيزار ميخا: <u>**سمعان القيرواني.. أحمل الصليب معه**</u>، موقع (Kaldaya.net) 2009.

خامساً: دور الليبيين في الفكر المسيحي:

1- سابيليوس:

أ- **من هو سابيليوس؟**[65]: وُلد سابيليوس (**Sabellius**) في نهاية القرن الثاني الميلادي، وتوفي سنة **261** م، وهو أحد الأساقفة الليبيين الذين كانوا في (بطلومايس) إحدى المدن الخمس الغربية بمنطقة برقة بالجبل الأخضر. تتلمذ على يد (نونيوس) وهو ليبي أيضاً تعلّم في روما واستقر بها.

ب- **تعاليمه**: قام سابيليوس بشرح ما تُعلّمه الكتبُ المقدّسةُ عن الأب والابن والروح القدس بطريقة تختلف عما ينادي به أستاذه نونيوس، فاعتقد أن جزءاً من الطبيعة الإلهية أُفرز من الله الأب وكوّن الابن بالاتحاد مع الإنسان يسوع المسيح، وأن جزءاً آخر انفصل عنه فكوّن الروح القدس. واعتقد سابيليوس أن عقيدة الثالوث المسيحية في الله الواحد صعبة وغير مقبولة. فاعتبرت الكنيسة في الإسكندرية ذلك بمثابة هرطقة، غير أن تلك الأفكار عمّت وانتشرت في أنحاء الغرب. وفي عام **220** م صدر حرمان كنسي ضد سابيليوس، بينما تواصل نشر أفكاره باسم (السابلية **Sabellianism**)، وفي الغرب تُدعى (مؤلمي الأب **Patripassian-ism**)، وهي مذهب أتباع سابيليوس بعد وفاته.

---

(65) موسوعة تاريخ أقباط مصر **coptichistory.org**: هرطقة سابيليوس.

2- آريوس:



لوحة تمثل آريوس (عن Wikipedia website 2009)

أ- <u>من هو آريوس</u> **Arius**: وُلد (آريوس آمونيوس)[66] في قورينا سنة **256** أو **260** أو **270** م. وهو من أصل ليبي بإجماع كل المصادر. تلقى تعليمه اللاهوتي بمدرسة الإسكندرية المصرية، ثم بمدرسة أنطاكية السورية، وصار يُلقّب - مع زملائه - بـ(اللوكيانيين) نسبة إلى مدرسة (لوكيانوس) الأنطاكية. وهذه الازدواجية التعليمية جعلت الأنطاكيين يتهمونه بأنه أسكندري الانتماء، بينما يتهمه السكندريون بأنه أنطاكي الهوى[67].

وهو المفكّر المناضل اللاهوتي العنيد الذي شغل العالم المسيحي كله بدءاً من القرن الثالث الميلادي ولعدة قرون لاحقة استمرت حتى بعد وفاته. لقد كان عالماً مثقفاً وزاهداً متقشفاً، فاستطاع أن يجتذب حوله جماعة كبيرة في الإسكندرية الذين تحلّقوا حول شخصيته الفريدة[68].

رسّمه الأسقف (بطرس) كاهناً، ولكنه كان منضماً للأسقف المنشق (ميليتوس) أسقف

---

(66) Ar.wikipedia.org (website) 2009.

(67) Wikipedia: <u>**Ibid**</u>.

(68) سعيد: <u>**مصدر سابق**</u>، ص ص9-10.

(ليكوبوليس) بأسيوط. فعُزل من منصبه، ثم أعاده الأسقف (أخيلاس) خليفة (بطرس)[69]. فأصبح مسؤولاً عن منطقة (بوكاليس **Baucalis**) القريبة من الإسكندرية ذات الكثافة السكانية، إلى أن وقع الصدام الفكري-العقائدي بينه وبين البطرس (إسكندر) حوالي عام 318 الميلادي[70]، وبدأ صراعه اللاهوتي مع الكنيسة السكندرية.

ب- آراؤه في السيد المسيح: تنص عقيدة التوحيد المسيحي التي تبناها آريوس على أن "**الله واحدٌ فردٌ غير مولود، لا يشاركه شيءٌ في ذاته تعالى، فكل ما كان خارجاً عن الله الأحد إنما هو مخلوق من لا شيء، وبإرادة الله ومشيئته**»[71]. وهذا يعني أن المسيح -ضمن هذا التعريف- بشرٌ مخلوق. ولا يعتقد هذا المذهب بألوهية المسيح، ويقول بأن الكلمة "المسيح" ليس بإله، فهو مولود من الله الأب، لذلك فإن علاقته مع الأب علاقة بنوّة وليست علاقة مساواة أو مشاركة في ذات الطبيعة الإلهية، وعلى هذا فـ(الكلمة **Logos** : المسيح) ليس أزلي ولكنه مخلوق خاضع لله. يقول آريوس في هذا الصدد:

«إذا كان الله الأب مطلق الكمال، ومطلق السمو، ومطلق الثبات. وإذا كان منشئ كل الأشياء دون أن يكون ذاته صادراً عن أي شيء آخر، فإنه من الواضح أن كل شيء وكل شخص آخر في العالم منفصل عن الله». "وإذا كان كل شيء منفصلاً عن الله، فلا بد -إذاً- أن يكون يسوع أيضاً منفصلاً عن الله»[72].

---

(69) Wikipedia: **Op. Cit**.

(70) سعيد: **مصدر سابق**، ص 10.

(71) Wikipedia: **Op. Cit**.

(72) Wikipedia: **Ibid**.

وفي ذلك رد واضح على آراء آريوس ومؤيديه الليبيين، فجملة (المولود من الأب قبل كل الدهور) هدفها الرد على ما نادى به آريوس بأن (الابن ليس أزلياً، بل جاء في زمان لم يكن موجوداً فيه)، أما جملة (مولود غير مخلوق) فهدفها الرد على رأيه بأن المسيح (مولود ومخلوق باعتباره ليس أزلياً)، بالإضافة لمصطلح (هوموسيوس) أو (أوموأوسيوس) الذي يساوي تماماً بين جوهر الأب والابن، وهذا عكس ما نادى به آريوس تماماً[76].

<u>مناقشة جانبية:</u> نستخلص مما سبق ذكره، أن الليبيين كان لهم دورٌ عظيم في مسيرة الدين المسيحي منذ ظهوره على يد عيسى ابن مريم (عليه السلام)، فكان مرقس الرسول، صاحب ثاني إنجيل في التاريخ المسيحي، والمساهم الرئيسي في تأسيس عدد من الكنائس الأولى في كل من أنطاكيا وقبرص وروما وغيرها، وكذلك في ليبيا مسقط رأسه قبل أن يؤسس كنيسته الأولى في مصر. وكان سلمان الليبي صاحب حظ وفير عندما ساعد المسيح على حمل الصليب وسار معه على طريق الآلام المشهور عند المسيحيين. وكان القسيس الليبي (سابيليوس) سبّاقاً لمناقشة مسألة طبيعة المسيح، حيث اشتهر مذهبُه بين الأوساط المسيحية في كل من الإسكندرية وأنطاكيا. وختمها آريوس الليبي الذي أجبرت أفكارُه الكنائسَ المسيحيةَ في الشرق على الاجتماع في نيقية، وإصدار أول قانون إيماني مسيحي أرثوذكسي. وكان آريوس وزملاؤه الليبيون مصرّين على آرائهم رغم المعارضات التي واجهوها، فبقيت أفكاره حيةً حتى بعد موته سنة **336** م، فصارت عقيدةً لدى العديد من الأنصار في الإسكندرية نفسها، كما تبناها الإمبراطور البيزنطي (قسطنطينوس) ابن (قسطنطين) الذي أعلن أنه آريوسياً. وما أن جاء العام **359** م حتى حلّت الأريوسية محلّ المسيحية الرومانية. ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب التوحيد الآريوسي كان موجوداً في نواحي الشام والعراق والتخوم الشمالية للجزيرة العربية، زمن البعثة

(76) سعيد: <u>نفس المصدر</u>، نفس الصفحة. وكذلك (wikipedia: Op. Cit).

النبوية المحمّدية، وقيام الدعوة الإسلامية. بالإضافة إلى أنه كان متّبعاً في مصر زمن فتحها، مما سهّل على الفاتحين فتحها دون عناء، فتبع أقباط مصر الإسلام على أنه دين توحيدي خالص[77]. ثم أن هذا المذهب ورد ذكره في كتاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل عظيم الروم، الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، فكان نصّه كما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن توليت، فإن عليك إثم الأرسيين».

وفي عصرنا الحاضر، هناك جماعة من اليهود تستخدم ذات الأفكار التي استخدمها آريوس الليبي قديماً، بل يستخدمون نفس مقاطعه الكتابية، وينادون بأن المسيح ليس هو الله، بل إله، وهو ليس واحدا مع الله في الجوهر، لكنه مخلوق من مخلوقات الله، فهو بكر خلائق الله[78].

(77) Wikipedia: **Op. Cit**.

(78) Wikipedia: **Ibid**.

سادساً: الحركة الدوناتية في طرابلس:

1- من هو دوناتوس؟:

كان (دوناتوس **Donatus**) أسقف قرطاجة، من العنصر الوطني الخالص. وهو مؤسس مذهب الدوناتية الذي ظهر سنة **311**، وبقي حتى بعد وفاته سنة **355**. وكان أتباع دوناتوس يذهبون إلى أنهم هم خلفاء الرسل، وأنهم يمثّلون الكنيسة الكاملة الحقيقية، وأن عمادة وسيامة رجال الكنيسة التابعين لروما غير صحيحتين. وقد حكم على هذا المذهب وأتباعه بالهرطقة[79].

2- سبب ظهور الدوناتية:

بمقتل (اسكندر سيفيروس) سنة **235** م انتهى عهد الأباطرة الإفريقيين، وحلّ محلّه عهد الفوضى العسكرية، إلى أن اعتلى العرش الإمبراطور (ديوقلتيان) سنة **285**، ولكنه استقال سنة **305** دون أن يحقق إصلاحاً حاسماً. وفي سنة **313** أصدر (قسطنطين) مرسوم (ميلان) المشهور الذي أعطى المسيحيين حرية العبادة. غير أنه وجد المسيحيين منقسمين إلى كنيستين إفريقيتين: إحداهما كاثوليكية تأخذ بوجهة نظر كنيسة روما القائلة إن المسيحي المرتد يبقى مسيحياً إذا ندم على ارتداده، والأخرى دوناتية تقول إن المسيحي المرتد لا يجوز اعتباره مسيحياً إلاّ إذا عُمّد من جديد. ويبدو أن حركة الدوناتية لم تكن تهدف للخلاف الديني بقدر ما كانت تتجه اتجاهاً وطنياً تسعى من خلاله لمقاومة الكنيسة الكاثوليكية المرتبطة بالإمبراطورية الرومانية الحاكمة. فارتبطت الدوناتية بالثقافة واللغات المحلية من خلال الطبقات الدنيا، بينما

---

(79) البرغوثي: **مصدر سابق**، هامش ص441.

ارتبطت الكاثوليكية بالثقافة واللغة الرومانيتين من خلال الطبقات العليا والعناصر الحاكمة[80].

وما دامت الدوناتية تتجه اتجاهاً وطنياً، فلا بد للكتّاب الغربيين أن يقذفوها بأبشع الأوصاف، واتهموها بالجنوح إلى الأعمال التخريبية. فقد قيل أن هذه الحركة بدأت تزداد تطرفاً وعنفاً، وتجتذب لصفوفها الكثير من اللصوص وقطّاع الطرق. فاغتنم أتباعُها الفرصةَ لمهاجمة الرومان في المدن الطرابلسية الثلاث (صبراتة وأويا ولبدة)، خصوصاً لبدة التي هوجمت وحوصرت عدة مرات سنة **363**، وأُلحق بها الخراب، إلاّ أن الدراسات الأثرية الحديثة أثبتت أن معظم ذاك الخراب كان بسبب زلزال شديد ضرب المنطقة في سنة **365**[81]، ولم يكن بسبب غارات الأهالي أتباع الحركة الدوناتية.

3- الوندال والحركة الدوناتية:

اعتنق الوندال المذهب الآريوسي -سالف الذكر- منذ تجوالهم في أوروبا وقبل دخولهم إلى شمال أفريقيا. ولهذا السبب كان الوندال أعداء المذهب الكاثوليكي، فراحوا يضطهدون الكاثوليك في شمال أفريقيا ويصادرون ممتلكاتهم الدينية. ومن ناحية أخرى، فإنهم اعتبروا الدوناتيين حلفاء طبيعيين لهم ضد الكاثوليكية، وأعادوا لهم كل ما فقدوه جراء مناهضة الكنيسة الكاثوليكية لمذهب دوناتوس واتهامه بالهرطقة منذ سنة **411**، أي قبل مجيء الوندال. وبعد موت (جنسريك) أول ملوك الوندال في الشمال الأفريقي، نهضت الثورة الوطنية الشعبية، بعد أن جُرّد الأهالي من نشاطهم الزراعي الذي كان أهم مقومات حياتهم منذ الدولة البونيقية. وكان الجمل قد صار من أهم الوسائل الاقتصادية في المنطقة الطرابلسية عبر طرق القوافل

---

(80) أنظر البرغوثي: **نفس المصدر**، ص ص440-441.

(81) البرغوثي: **نفس المصدر**، هامش ص443.

التجارية بين الشمال الجنوب منذ عهد الإمبراطور الليبي (سبتيموس سيفيروس)، وعادت القبائل الليبية المحلية إلى خشونة البداوة، وظهرت قوة الجمّالة (الهجّانة) في ثورة عنيفة ضد كافة أشكال الاستعمار، اشتهر فيها القائد الطرابلسي (كاباون **Cabaon**) الذي هزم الوندال بعد أن اتضح عجزهم عن القضاء على المقاومة الليبية إيذاناً بقرب انتهاء عهدهم المظلم الذي إن كان تميّز بشيء فإنما تميّز بالعنف والقسوة والتدمير والتخريب[82]. لذا فقد كانت الحركة الدوناتية هي الشرارة الأولى التي أشعلت فتيل المقاومة الوطنية ضد الجيوش المحتلة: الرومانية والبيزنطية والوندالية.

سابعاً: التمهيد السماوي لحلول الدين الجديد:

1- الوضع العام في ليبيا بعد خروج الوندال:

ذلك هو وضع ليبيا الذي استفحل فيه الوجود الأجنبي المختلط بين روم غربيين وشرقيين ووندال، وذلك بعد سقوط قرطاجة، وأفول نجم الشعب الجديد الذي تشكل من الليبيين والفينيقيين، والذي لم يبق له نشاط سياسي وعسكري باستثناء الجانب الحضاري المتمثل في مواصلة الازدهار الاقتصادي أو إعادة بناء البلاد بعد أن دمرها الوندال. أما الجانب الديني المؤثر في الحياة الثقافية عامة، ففي الزمن الغابر كان الليبيون وثنيين في أول عهدهم، ولهم آلهة عرفها عنهم المصريون القدامى والإغريق واشترك جميعهم في عبادتها، مثل (نيث، وهي أثينا) في الشرق و(بوسايدون، إله البحر عند الأوزيين) في الغرب. كما كان لقبيلة لواتة زمن الوندال آلهة تسمى (غرزل). وكانت اليهودية قد دخلت إلى ليبيا زمن الفينيقيين، ومن بعدها المسيحية زمن الرومان. غير أن الليبيين لم يعتنقوا الديانتين بصورة عامة، إذ أن الاقتناع بهما -على ما يبدو- كان ضعيفاً، فبقيت اليهودية حكراً على الجالية اليهودية، والمسيحية حكراً

---

(82) أنظر: البرغوثي: نفس المصدر، ص448-449.

على الأجانب المحتلين، وبعض الليبيين اللذين آمنوا بالرسالات السماوية استعاضةً عن الوثنية الأولى. فحصلت بين المسيحيين صراعات مذهبية، حيث قام الجدل الآريوسي في الكنائس المسيحية، والانقسام الدوناتي الذي أعلنه (دونات) أو (دوناتوس) في قرطاج، ثم في منطقة طرابلس سنة **311**م.. وعندما دخل الوندال إلى الشمال الأفريقي ناصروا المذهب الآريوسي الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية، فاضطهدوا الكاثوليك وصادروا ممتلكات كنائسهم.. وانقسامات عديدة أخرى، خصوصاً بعدما تحكم أباطرة بيزنطة في الدين واحتكروه لصالحهم، ونصّب بعضُهم نفسه بابا الشرق، فانبثق الشقاق بين العرش والكنيسة. وقد شهد المغرب شيئاً من الاستقرار النسبي في عهد هرقل، مما ساعد القساوسة الرومان على نشر الدين المسيحي بين الأهالي، وتولوا حمايتهم من البيزنطيين، وكان البطريق (غريغوريو) أكثرهم استقلالاً عن الإمبراطورية البيزنطية، وذلك بمساعدة أهل برقة وطرابلس. إلاّ أنه صيّر نفسه إمبراطوراً لأفريقيا والمغرب كله قبيل الإسلام، حيث اتخذ من مدينة إسبيطلة عاصمة له بدلا من قرطاجة، وذلك من أجل الوقوف في وجه العرب القادمين من الشرق ناشرين الدين الإسلامي في كل من برقة وطرابلس بقيادة عمرو بن العاص، غير أن الفاتحين عادوا إلى مصر بعد فتحهم مباشرة لمدينة صبراتة غرب مدينة طرابلس، وتركوا مهمة مواصلة فتح أفريقيا إلى عبد الله بن أبي سرح الذي هزم الرومان بقيادة (غريغوريو) سالف الذكر[83]، مهيئاً بذلك بقية بلاد المغرب للفتح الإسلامي عبر حملات لاحقة.

---

(83) كثير من المصادر ذكرت مقتل (غريغوريو) أو (جرجير) الروماني على يد عبد الله بن الزبير في حملة العبادلة على أفريقيا بقيادة عبد الله بن أبي سرح في عهد الخليفة عثمان بن عفان، أنظر مثلا: إبن عذاري المرّاكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، ط2، 1980، دار الثقافة، بيروت/ لبنان، ص ص12-9. وكذلك: زغلول، د.سعد: **تاريخ المغرب العربي**، ج1، ؟، دار المعارف، ؟، ص ص105-95.

ورغم كل ذلك فقد اعترف كثير من المؤرخين الغربيين أن زمن الفينيقيين وبالذات مرحلة العهد البونيقي، وكذلك الصراع المذهبي المسيحي سالف الذكر، والتذبذب الديني بين وثنية وأديان سماوية، والوجود الروماني والبيزنطي والوندالي بالبلاد، قد هيأ -كل ذلك- سكان الشمال الأفريقي كله لاستقبال الدين الإسلامي بتلقائية وسهولة ويسر شهدت لها مراحل الفتح الأولى. وفي هذا الخصوص يعترف (غيزل) بالقول: «**إن قرطاجة القديمة قد ساهمت في إعداد البربر لاعتناق الديانة الإسلامية**»[84].

2- نبوغ الليبيين في الفكر المسيحي سهّل عملية الفتح الإسلامي في ليبيا:

ما أن أنهى الدكتور (لؤي محمود سعيد)، من جامعة المنوفية، محاضرته التي كانت بعنوان (الأصول المصرية الليبية للأرثوذوكسية، وأثرها على العالم المسيحي)، والتي ألقاها ضمن ندوة (الجذور المشتركة للحضارات العروبية القديمة) التي أقامها مجمع اللغة العربية بطرابلس في منتصف صيف سنة **2009**، حتى تساءل مستغرباً في عدم وجود مسيحي واحد في ليبيا رغم نبوغ قدماء الليبيين في الفكر المسيحي منذ اليوم الأول من ظهور الدين المسيحي في الأرض المقدسّة. إلاّ أن الإجابة على تساؤله المنطقي لم تكن متاحةً في حينها، بل أن جزءاً كبيراً من تلك الإجابة كانت ضمن نص تلك الورقة التي أتقن الأستاذ لؤي حبكتها العلمية والتاريخية بتجرّد تام.

لقد كان مرقس الليبي من بين الرسل السبعين اللذين عينهم يسوع المسيح (عليه السلام) للتبشير بالدين الجديد، بل وكان صاحب ثاني أهم الأناجيل الأربعة المعترف بها والمعتمدة في الكنائس المسيحية إلى الآن، وقد اعتنق المسيحية -على يده- كثيرٌ من قدماء

(84) غوتييه، أ. ف.: **ماضي شمال أفريقيا**، تعريب: هاشم حسني، ط1، 1970، دار الفرجاني، طرابلس/ ليبيا، ص101.

الليبيين في برقة وغيرها. وكان آريوس الليبي أول من أثار مسألة طبيعة المسيح ونادى بوحدانية الله، فاعتُبرت أفكارُه مجرّدَ هرطقة وزندقة، أدت إلى انعقاد المجمع المسكوني الذي تحددت فيه قوانين المذهب الأرثوذوكسي. وكان دوناتوس الليبي صاحب الانشقاق الديني الذي استُخدم كستار لمناهضة الحكم الروماني وإشعال فتيل الثورة الوطنية الشعبية ضد كافة أنواع الاحتلال الأجنبي. كل هذه العناصر وغيرها كانت قد هيأت الليبيين لإعمال الفكر عند اختيار المسالك المؤدية إلى الخلاص، سواء كان ذاك الخلاص دينياً أو سياسياً أو اقتصادياً أو ثقافياً. لقد عم الاضطهاد كافة مناحي الحياة في ليبيا:

أ- العنفُ الديني، ونشرُ الثقافة الرومانية عن طريق اللغة اللاتينية.

ب- فرضُ الضرائب الباهظة على الشعب.

ج- التفرقة العنصرية بين الطبقات الحاكمة والأهالي.

د- تنفيذُ السياسات الاستعمارية على العنصر الوطني الذي بدأ يعود إلى حياة البداوة والتقشف بعد ازدهار ثقافي ورخاء اقتصادي دام قرون.

فبات من الضروري البحث عن الخلاص. وكالعادة، كانت بوادر الخلاص تلوح دائماً من المشرق العربي، فمثلما وجد قدماء الليبيين خلاصهم عن طريق الدين المسيحي الذي جاء به مرقس الرسول من المشرق إلى برقة، وجدوا أيضاً خلاصهم في الدين الجديد الذي جاء به العرب من المشرق بقيادة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح وعقبة بن نافع وموسى بن نصير..

وجد الليبيون في الدين الإسلامي القرآنَ الكريمَ الذي حدّثهم بلغةٍ هي أقرب إلى لغتهم من اللاتينية، ووجدوا فيه الرأفة في دفع الزكاة والجزية والصدقات بدل الضرائب الباهظة التي كانت تُدفع للأباطرة والحكّام الأجانب، ووجدوا فيه المساواة الإنسانية التي حُرموا منها

طيلة قرون الاضطهاد الروماني، كما وجدوا فيه حلاً حاسماً لمسألة وحدانية الله، تلك القضية التي ظلت معلقّة في أذهانهم منذ عهد آريوس وأتباعه. فاعتنقوا الإسلام دون إراقة قطرة دم واحدة. وكانت قبيلة لواتة، وهي أكبر القبائل الليبية المنتشرة في منطقة برقة، السبّاقة لذلك، فأسلمت عن بكرة أبيها، وحسُن إسلامها.

3- الفرق بين الإسكندرية وبرقة:

وفي خضم الكثافة السكانية والتنوع الثقافي والعرقي الذي شهدته مصر عقب سقوط الحضارة المصرية القديمة وحلول الحضارة الإغريقية محلّها (العهد البطلمي)، وظهور الطبقة الجديدة التي عُرفت تاريخياً باسم الأقباط، وبعد دخول العديد من القبائل العربية خاصة اليمنية إلى مصر واستقرارها بين النيل والبحر الأحمر، ومشاركة الجميع في الحركة السكّانية المصرية الجديدة. وكانت الإسكندرية مقر الكنيسة المسيحية الأولى التي أسسها مرقس الرسول، قد شهدت الصراع الفلسفي الديني الذي أثاره القساوسة الليبيون في قضية طبيعة المسيح. في ذاك الخضم كان عمرو بن العاص يزور مصر بين الحين الآخر قبل البعثة المحمّدية بقصد التجارة، فارتبطت بينه وبين أقباطها أواصر الصداقة، مما دعاه للتفكير في فتحها عندما كُلف بفتح فلسطين، وبعد أن تم له ذلك، قيل أنه اتجه إلى مصر دون إذن من الخليفة عمر بن الخطاب، فوجد مساعدة لم تكن مفاجئة من قبل الأقباط الذين أسلم كثير منهم على يده، وربما ساعد الجدل الديني في مسألة وحدانية الله على إسلام كثير من الأقباط، بينما بقي كثير منهم أيضاً على دينه في ظل التسامح الديني الذي جاء به الإسلام (لا إكراه في الدين). بينما نجد أن برقة لم يكن لسكانها علاقة بعمرو بن العاص، ولم تكن فيها كنيسة مسيحية رئيسة كالتي بالإسكندرية. ومن هنا، فيغلب على الظن أن مسألة طبيعة المسيح ووحدانية الله كانت دافعاً أساسياً لإسلام القبائل الليبية دون استثناء.

الفصل الثامن

الفنون والثقافة العامة

لمحات موجزة عن الحياة الاجتماعية اليومية

أولا: فنون الرسم والتزيين والموسيقى:

1- الرسوم الصخرية:

لم يكتف سكّانُ جبال أكاكوس وتادرارت وغيرها من جبال الجنوب الليبي بصنع الأدوات والأسلحة الحجرية فحسب، وإنما ارتقت صناعتُهم إلى مصاف الفنون الجميلة التي نقيم لها اليوم الجامعات والمعاهد والمدارس، ونستورد لها أصناف الأصباغ والألوان والفرش والسكاكين الخاصة والسطوح الورقية والخشبية والقماشية وغيرها. أما سكانُ أكاكوس فقد أوجدوا كلَّ ذلك من المواد الأولية التي تجود بها البيئة من حولهم وصنعوا لوحات فنية لم تتأثر بالسريالية ولا بالكلاسيكية ولا بالتجريدية ولا بالتكعيبية.. ولا بغيرها من مدارس الفنون التشكيلية المعروفة عندنا، بل كان كلُّ ذلك من صميم أفكارهم البدائية التي تعتمد فقط على الطبع والسليقة والفطرة.

وبالعودة إلى الأحبار والأصباغ والدهون والألوان المستعملة في تلك اللوحات يندهش المرءُ إذا علم أن البحوث التي أقامها العلماءُ على التحليل الكيميائي لتلك المواد أظهرت أن سكّان جبلي أكاكوس وتادرارت استخدموا خلطات كيميائية من هيدروكسيد الحديد ممزوجةً بلازب مقاوم يرجع إليه الفضلُ في احتفاظ اللوحات بألوانها كل هذه المدة. وربما كان ذاك اللازب مستخرجاً أو مستخلصاً من دهون الحيوانات أو سوق النباتات أو بياض البيض. وقد كشفت البحوث عن وجود مواد بروتينية من نوع كاسئين الحليب. ولهذا اللازب ميزات غير عادية في البقاء[1]. وقد تُستثنى هذه المواد الأصيلة في اللوحات من المواد الأخرى العالقة بها نتيجة غزو مائي أكسبها طبقة من الجص الأبيض البلوري، إلاّ أن البعضَ يرشِّح أن تلك الطبقة كانت مقصودةً من الرسّام نفسه وليست بسبب عوامل الطبيعة.

---

(1) تاريخنا، الكتاب الأول: **مصدر سابق**. ص42.

أما عن الأداة التي تم بها طلاء مساحات الرسوم اللونية والخطوط الرفيعة المحددة لمحتوياتها فهي فرش دقيقة جداً، ولا يبالغ الدارسون لهذه اللوحات عندما يقولون أنها أكثر دقة مما يستعمله الفنانون في عصرنا هذا. فقد تصوروا أن تلك الأدوات لا تغدو كونها فرشاً حقيقيةً مصنوعةً من شعر الحيوانات أو من ريش الطيور ولكن بدقة مكّنتهم من إخراج لوحات غاية في التناسق الشكلي والتناغم اللوني المتنوع بين أصفر وأخضر وأحمر وأحياناً أسود، تعكس -في مجملها- ذوقاً رفيعاً خالصاً وموهبةً على درجةٍ عاليةٍ من الصقل والتمكّن التقني والفني.

2- النحت وتشكيل الخزف:

ذكرنا في الفصل الثاني أن عصرَ الزراعة وصنع الأواني الفخارية قد حل في الجنوب الليبي عامةً في حدود الألف السابع قبل الميلاد. ونعود ونقول أن زخرفة الأواني بالنقط والخطوط المتعرّجة بواسطة المساطر، والتي وُجدت في أكاكوس، كانت قد امتدت بين الألف الثامن والرابع قبل الميلاد، وبتعبير آخر تعود أقدم طبقة إلى سنة **7130** ق.م.[2] وتتميز هذه الحقبة بالمعرفة الفجائية للتخصص الاقتصادي، ويمكن قراءة ذلك في النسبة المئوية المرتفعة لعظام الأبقار التي تحوي صفات التدجين. ولم تكن العلاقةُ مع الفن الصخري واضحة كثيراً في السابق كما عليه في هذه الفترة، لقد أنجز أصحاب قطعان الأبقار اللوحات الصخرية كفنّانين معتمدين أسلوب الرعاة في فنّهم. ويعتبر ظهورُ الخزف تعبيراً نموذجياً للتوسع الطبيعي على مستوى الحياة المادية والروحية والعلاقات الاجتماعية، مع التأكيد أن ذاك التوسع كان محلياً[3]. ويبدو أن سكّان أكاكوس طوّروا صناعةَ الفخار من تشكيل الأواني النمطية المستديرة إلى الأشكال المعقّدة،

---

(2) باريتش: **مصدر سابق**، ص142.

(3) باريتش: **نفس المصدر**، ص ص141-142.

لقد عُثر في إحدى طبقات الحفريات في وادي (آثال) في جبل أكاكوس، مع قطع مكسورة وأدوات حجرية، على رأس غزالة من الفخار المشوي، يمكن تأريخه بالاعتماد على طريقة الكربون (^{14}C) بحدود سنة **3680** ق.م. مع احتمال فارق بحدود **50** سنة. كما تم العثور أيضاً في وادي أكاكوس على هيكل كلب من الفخار.



(الشكلان من رسم: فيراف جاجيرن)[4].

والمنحوتات التي عُرفت في ليبيا إجمالاً قليلة وترجع إلى عهد متأخر. ولعل أهم المنحوتات الليبية تلك التي وُجدت في (غرزة) إلى الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس. وهي منحوتات تكتسب أهميةً خاصةً عندما يذكر المختصون أن أشكالها ومستواها الفني يدلاّن على أنها كانت من عملٍ محلي، وأنها تمثل مرحلة متوسطة بين النقوش الصحراوية القديمة وبين النقوش الرومانية[5]. وقد اكتشف (دوفيريير **Duveyrier**) قرب غدامس لوحاً حُفر عليه

---

(4) باريتش: **نفس المصدر**، ص143.

(5) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص196.

مشهدٌ تظهر فيه فتاة بيدها جريدة نخل أو ريشة نعام، وهي جالسة على كرسي ملتفة نحو اليمين، ووراءها إحدى وصيفاتها الصغيرات كما لو كانا يؤديان طقساً دينياً أمام إله[6].

3- الملابس وتصفيف الشعر ومواد الزينة:

ظهر في الوثائق المصرية اهتمام قدماء الليبيين بتصفيف الشعر. حيث كان النساءُ يتركن شعورهن مسترسلةً لتغطي الكتفين ومنسدلةً لتبلغ الصدر. أما شعر الرجال فقد كان أقصر ويغطي الجبهة، مع ترك جديلة منه على جانب الصدغ، مضيفين له بعض القواقع وريش النعام. وفي مرحلة متقدّمة أخرى سادت عادةُ حلق الرأس تماماً والاحتفاظ بجديلة جانبية طويلة تنسدل على الصدغ، مثل قبائل المكاي والماخيلي والأوزيس. كما سادت أيضاً ظاهرة الشعر المستعار. وتميز قدماءُ الليبيين منذ أقدم العصور باللحية الطويلة المدببة عند رؤساء القبائل، وتكون متوسطة -عند العامّة- تحيط بالوجه مع شارب صغير. وبالتالي فإن أسلوب تنسيق اللحية والشارب عند قدماء الليبيين يختلف عن غيرهم من الشعوب التي أطلقت لحاها كالسوريين والزنوج[7]. هذا ما أظهرته الوثائق المصرية التي سجلت حياة الليبيين في دلتا النيل. أما الرسوم الصخرية الباقي آثارُها في الجنوب الليبي، فقد أظهرت أيضاً اهتمام قدماء الليبيين بالزينة وتصفيف الشعر، فمن بين اللوحات التي اكتشفها الفرنسي (هنري لوت **Henry Lhote**) في منطقة تاسيلي لوحةٌ تجسّد أناساً منشغلين بتزيين



(6) Bates: **Op. Cit.**, p p128-129.

(7) للمزيد، أنظر: تاريخنا: **مصدر سابق**، ص ص113-127

بعضهم البعض استعداداً لحضور حفلة، وتعود اللوحة إلى (دور الثيران)[8] السابق ذكره في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

أما عن اللباس والحلي، فقد تزيّن قدماءُ الليبيين -نساءً ورجالاً- بقلائد طويلة أسفل العنق تصل أطرافُها إلى الخصر، كما تزينت النساءُ بأساور عريضة حول الرسغ وحول الكاحل. وظهر المشواش على الآثار المصرية وهم يرتدون غطاءَ الرأس الذي يشبه الكوفية العربية التي يشدونها بشَدّة صغيرة بدل العقال[9]. أما المرأة فكانت ترتدي فوق ثيابها لحافاً من جلد ماعز جُرّد من الشعر وصُبغ بلون قرمزي صارخ، وهو الثوب الذي استعاره الإغريق من النساء الليبيات وجعلوه دروعاً ولباساً لتمثال أثينا، ويسميه هيرودوتس (پلاّس **Pallas**) ويقول عنه أنه قادم من ليبيا، ولأجل ذلك سمى الإغريقُ الدروعَ باسم (إيجس **ægis**)[10]، وهو لباس المرأة الليبية المصنوع من جلد الماعز. وفي سياق الحديث عن الثياب فقد ارتدى الرجال أحياناً شريطين متقاطعين على الصدر ملتفين حول الظهر، ووضعوا حول الخصر حزاماً لتثبيت جعبة صغيرة نصف دائرية على الجنب وشد الإزار وتثبيت ذيل طويل. أما النساء فكن يرتدين نفس زي الرجال بالإضافة إلى سروال مثبت بحزام يصل إلى الركبتين، ولكن بدون ذيل[11]. ومن الأردية الليبية المميزة أيضاً رداءٌ طويلٌ مشدود على أحد الأكتاف بحمّالة، بينما يظل الكتف الآخر عارياً. ويبدو أن هذا النوع من الأردية أساسُ (الجرد الليبي) الحالي الذي يعتقد البعضُ أنه مأخوذ من الرومان، بينما نرى العكس تماماً، فالرومان أخذوه من الليبيين عن طريق الإغريق.

---

(8) باريتش: **مصدر سابق**، ص128.

(9) تارخنا: **نفس المصدر**، ص115.

(10) Herodotus: **Op. Cit.**, paragraph 189.

(11) تاريخنا: **مصدر سابق**، ص114.

ويقول (سترابو **Strabo**) أن بعض الليبيين غربي قرطاجة كانوا "**يزينون مظهرهم بتسريحات شعر مظفورة ولحي وحلي ذهبية، وينظفون الأسنان ويقلّمون الأظافر، ونادراً ما تراهم يلمسون بعضهم بعضاً في الطرقات حتى يبقوا كما هم ويبقى شعرهم المزيّن دون أن يُلمس**»[12].

وعند ذكر وسائل الزينة التي توسلّها قدماءُ الليبيين تبرز عادةُ الوشم، وأحسنُ شاهد عليها صورةُ الرؤساء الليبيين في تل العمارنة على ضريح (سيتي الأول) من الأسرة التاسعة عشر، وبلاط مدينة (هابو) في عهد (رعمسيس الثالث)، حيث تحلّت أجسامهم بالعديد من أشكال الوشم على الكتفين واليدين والرجلين وكذلك على البطن[13]. والجدير بالذكر أن الوشم ظل لوقت قريب عادةً من عادات الليبيين الحاليين، نساءً ورجالاً، مع اختلافات في الأشكال والمواضع.

وانتعل الليبيون صنادل في أقدامهم، كما يذكر لنا نصُّ (الكرنك) للفرعون (مرنبتاح) من الأسرة التاسعة عشر، الذي سجّل فيه انتصاره على الليبيين قائلا: "**إن الزعيم الليبي (مريي) فرَّ هارباً تاركاً نعليه**»[14]. بينما ظهر الليبيون في وثائق أخرى حفاةً.

---

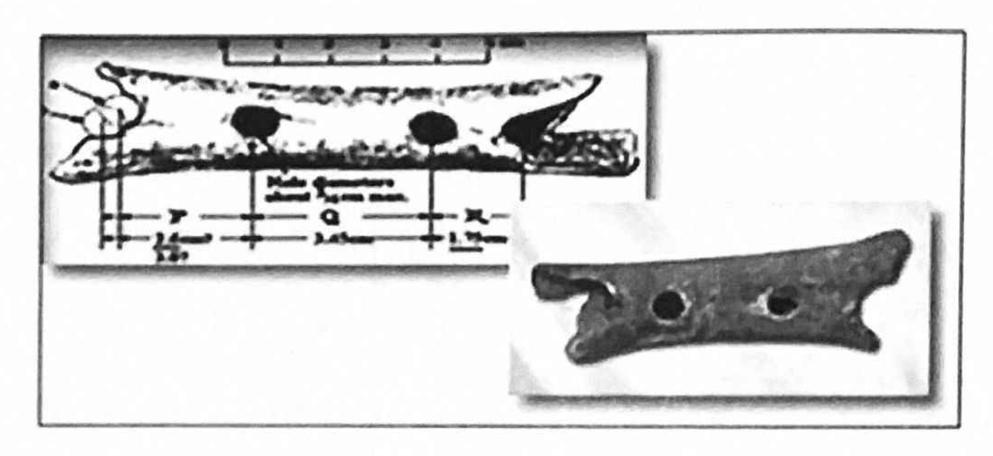
(12) سترابو: **جغرافية سترابو، الكتاب السابع عشر**، نقله من الإغريقية: د. محمد المبروك الذويب، ط1، 2003، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا، ص99.

(13) See: Bates: **Op. Cit**., p p138139-.

(14) ذُكرت هذه المعركة في كثير من المصادر، أنظر مثلًا: تاريخنا، **مصدر سابق**، ص128. وكذلك: Bates: **Ibid**, p 127، وغيره.

4- فنون الموسيقى والرقص:

من المفيد معرفتُه أن الإنسان منذ حوالي **100,000** سنة مضت استخدم الموسيقى بنفس الإحساس والمتعة عندنا اليوم. وأقدم آلة موسيقية عُرفت حتى الآن -على مستوى العالم- اكتشفت بكهف (هوافتيح) قرب درنة شرقي ليبيا، وهي عبارة عن ناي مصنوع من عظم طير يعود تاريخُه إلى ما بين **70,000** و**80,000** سنة مضت[15]. وتمثل الصورة التالية آلة ناي تعود إلى عصر إنسان (النايندرثال) من النوع الذي وُجد في ليبيا، يشير إلى أن إنسان ذاك الزمان استخدم السلم الموسيقي بدرجاته السبع المعروفة عندنا اليوم[16]:



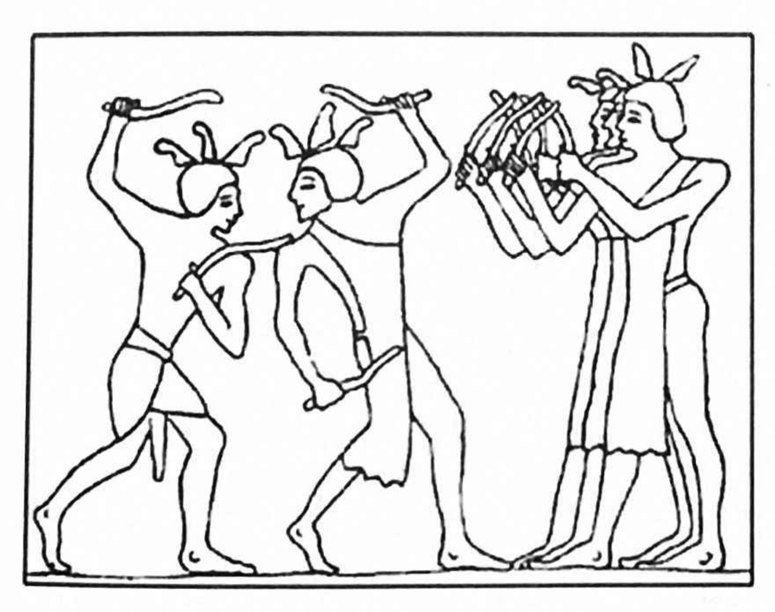
ويقول هيرودوتس ".. **ويبدو لي أيضاً أن صيحات الفرح في الاحتفالات الدينية قد سُمعت هنا لأول مرّة، لأن ذلك من عادة النساء الليبيات وهن يؤدين ذلك بشكل جيد**»[17]. ربما تكون تلك الصيحات هي الزغاريد المصاحبة عادة للغناء، ويبدو أن هيرودوتس يقصد -هنا-

(15) McBurney: **Haua Fteah**.., Cambrige University Press, 1967, p 90.

(16) Glenn R. Morton: **Ancient People›s Passion for music**, thestoneage.org, 2009.

(17) تاريخ هيرودوتس: **الكتاب الرابع**، نقله عن الإغريقية: د. محمد المبروك الذويب، ط1، 2003، جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا، ص128. (كذلك في الترجمة الإنكليزية، **مصدر سابق**، فقرة 189).

نساء الجرمنت، حيث لا يزال نساء التوارق يؤدين الأغاني الموزونة بالدفوف والطبول والممزوجة بزغاريد لها وقع طيب على أذن السامع. ولعل أقدم الآلات الموسيقية هي الطبلة التي ما يزال الليبيون يستعملونها إلى الآن. أما المزمار -وهو غير الناي- فقد بدأ بأنبوبة واحدة لها عددٌ غير محدد من الثقوب، ثم تطور إلى المزمار المزدوج الذي أشارت إليه النصوص الرومانية، وهو -فيما يبدو- أول نموذج لـ(المقرونة) الحالية[18]. وقد استعملت هذه المزامير في كل من سيوه وأوجلة، وربما صُنع بعضُها من الأخشاب (قصب بعض النباتات على الأرجح) أو من عظام الطيور الضخمة[19]. وبالإضافة للطبلة والمزمار، أشارت النصوص المصرية إلى آلة موسيقية ذات أوتار، لعلها الربابة، كان الليبيون يستعملونها في الحفلات العامة والأعياد[20]. كما وُجد في ليبيا نوع من الظباء الوحشية التي من قرونها تُصنع جوانب من الربابة الفينيقية. ولا يزال إلى الآن استخدام قرون الحيوانات في صناعة بعض الآلات الموسيقية الشعبية مثل الزُّكرة والمقرونة، وسميت المقرونة هكذا لأنها تُقرن مزمارين وقرنين في آلة واحدة.



أما الرقص فيبدو أن الإنسان الليبي القديم كان يؤدي حركات راقصةً صحبة قيامه بأعمال الصيد، أو أن الرقص كان عنده نوعاً من الحركات المقصودة لتوجيه الحيوانات إلى

(18) تاريخنا: **مصدر سابق**، ص136.

(19) Bates: **Op. Cit.**, p 155.

(20) تاريخنا: **مصدر سابق**، ص137.

أماكن معيّنة ليسهل الإيقاعُ بها واصطيادُها. وبالتالي باتت لكل المهمات حركاتُها الجسمية المناسبة لها التي صارت مع الزمن رقصات تؤدَّى حتى خارج ممارسة المهام الرسمية كنوع من الترفيه بواسطة التمثيل واستعادة مشاهد الصيد وغيرها. ولا نستبعد أن الحيوانات الرشيقة قد أوحت للإنسان بتلك الحركات، إلى جانب الحروب التي تستوجب التدريب الحركي والعضلي قبل خوضها. وفي هذا الخصوص تشير العديد من لوحات الكهوف الجنوبية سالفة الذكر إلى تلك الحركات الراقصة، من بينها صورة امرأتين تتبادلان العصي (الأسلحة) وهما جالستين، وُجدت في أكاكوس، وتعود إلى مرحلة الثيران[21]. ولا زالت بعض الرقصات تُؤدَّى بالعصي أو السيوف -وبالبنادق حالياً- كنوع من استعراض القوّة وإخافة العدو.

وينقل (أوريك بيتس **Oric Bates**) عن النقوش المصرية رقصةً حربيةً كان يؤدّيها أفرادٌ من قبيلة (تمحو) الليبية تعود إلى عهد الدولة الحديثة، حيث انقسموا إلى مجموعتين: يقوم ثلاثة رجال بقرع العصيّ بتوقيت زمني منتظم، بينما يؤدي اثنان آخران حركات قتالية راقصة موزونة بقرع العصي أيضاً[22]. وهذه الرقصة تشبه -إلى حد كبير- رقصة (الكاسكا) التارقية في وقتنا الحاضر، مما يشير إلى أن قدماء الليبيين تركوا شيئاً من آثارهم الفنية وعاداتهم وتقاليدهم في مواقعهم الأولى، بينما حملوا نماذج منها إلى وادي النيل أثناء هجرتهم إليه زمن الجفاف.

---

(21) باريتش: **مصدر سابق**، ص130.

(22) Bates: **Op. Cit.**, p p 155156-.

ضخماً منها. وظهر الليبيون في أكثر من منظر مصوّر في معبد مدينة هابو وهم يحملون هذه السيوف، ويبدو أن طولها يصل إلى ثلاثة أرباع طول حاملها[29]. كما اشتهر الليبيون المنضمّون إلى الجيش القرطاجي باستخدام الفؤوس، وهي فؤوس من النوع المزدوج أي ذي حدّين[30].
ولم يكن سلاحُ قدماء الليبيين من النوع الهجومي فحسب، وإنما استخدموا أيضاً الأسلحةَ الدفاعيةَ، فالمعاطف الجلدية السميكة التي كانوا يستخدمونها في بعض المعارك المسجلة تاريخياً تُعتبر وسيلةً وقائيةً، وهي من النوع المدوّر والمحدّب إلى حد ما[31]. ويذكر هيرودوتس أن أفراد قبيلة المكاي كانوا يستعملون ترساً يصنعونه من جلد النعام[32].



ليبيون يحملون السيف والقوس (عن بيتس، ص 138) ←

ومن المعدّات الحربية الأخرى، صنع قدماءُ الليبيين العربات الحربية بالطرق البدائية المتاحة وقتها، لقد استولى رعمسيس الثالث على حوالي مائة عربة منها. ويقول هيرودوتس أن الإغريق عرفوا العربة ذات الخيول الأربعة من الليبيين، وهناك نموذج منها في متحف السراي

---

(29) تاريخنا: **مصدر سابق**، ص129.

(30) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص186.

(31) البرغوثي: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

(32) Herodotus: **Op. Cit.**, parafraph 175.
كذلك النص العربي لتاريخ هيرودتس: الذويب: **مصدر سابق**، ص120.

الحمراء بطرابلس[33]. وقد اشتهرت قورينا بسباق العربات التي تجرها الخيول.

3- الصناعات الزراعية والحيوانية والاتجار بهما:

إلى جانب الرعي وتربية الماشية عرف قدماءُ الليبيين الزراعة، حيث كان سكّان المناطق الخصبة من السواحل الليبية يحيون حياةً شبه مستقرّة بسبب الأمطار شبه المنتظمة. فكان (الناسامونيون) يتركون قطعانهم بمقارّهم على خليج سرت ويذهبون إلى واحة أوجلة في الصيف لجني التمور. وكان جميعهم يُقرن بين حياة الاستقرار والزراعة، من جهة، وحياة الرعي والبداوة، من جهة ثانية، مع محاولة ممارسة النشاط التجاري قدر الإمكان. لقد توقف بعضُ الليبيين عن الهجرة إلى مصر وبدأوا يستقرّون الواحات، والبعض الآخر استقرّ في المدن والقرى الساحلية. وكانت منطقة نهر (كينيبس **Kin-yps**): "وادي كعام" خصبةً في إنتاج الحبوب، وكذلك بنغازي. حيث كان الليبيون يعيشون على القمح والشعير، يأكلون حبوبه كما هي أو يدقّونها ويخبزون معجونها ويدفنونه في النار، ولا زالت هذه الوجبة تُعرف عند البدو بـ(خبزة الملّة). وكان (الجرمنتيون) يغطّون الأرض السبخة بالتراب ويزرعونها. ويمكن اعتبار قبائل (اللوتوفاجي) مزارعين لأنهم كانوا يعيشون على ثمار شجرة اللوتس. وأثبتت الآثار أن شجرة الزيتون كانت موجودة في برقة، وكذلك في طرابلس خصوصاً في عهد الفينيقيين ثم في عهد الرومان[34]، علاوة على انتشار شجر النخيل في الواحات.

لقد قامت على هذه المنتجات بعضُ الصناعات والأنشطة التجارية. حيث تمكن اللوتوفاجيين من عصر نبات اللوتس العسلي واستخرجوا منه نبيذاً. أما في منطقة طرابلس فقد كثرت معاصر الزيتون خصوصاً في العهد الروماني والوندالي، ولا زالت منطقة الجبل الغربي تشتهر -لوقت قريب- بالمعاصر الحجرية التي تديرها الإبل. وفي منطقة برقة استغلّ الإغريق

(33) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص187.

(34) للمزيد أنظر مثلا: البرغوثي: **نفس المصدر**، ص ص158-159.

من سكّان قورينا نبات السلفيوم البرّي استغلالاً صناعياً وتجارياً، فاضطر الأهالي للقضاء عليه نهائياً كنوع من الحرب الاقتصادية الموجهّة ضد الإغريق المحتلّين لأراضيهم. أما أشجار النخيل فقد استفاد قدماء الليبيين عموماً من تمورها كغذاء لهم، وصنعوا منها نوعاً من النبيذ، كما كانوا يصنعون من لفائفها الحبال ومن سعفها السلال وغيرها[35].

وفي منطقة برقة كانت غابات أشجار الصنوبر والسرو كثيرة منذ القديم، علاوة على تربية أجود أنواع الأبقار. ومن هاذين الثروتين : الأشجار والأبقار، كانت ليبيا تُصدّر إلى مصر أجود أنواع الشحوم الحيوانية والزيوت النباتية التي تدخل في صناعة العطور الممتازة التي تحتاجها المعابد والمدافن المصرية، فقد اشتهرت تلك المواد الأولية في الوثائق المصرية بالعديد من الأسماء، مثل: (عج تحنو عنو) للشحوم الحيوانية، و(تحنو عش) للزيوت النباتية[36]. وفي الجانب التجاري اشتهر الجرمنتيون بحراسة القوافل المرتحلة عبر الصحراء، بين الشمال والجنوب، كما كانوا وسطاء تجاريين نشطين، ينقلون المواد الأفريقية كالملح والعاج وريش النعام والجلود الثمينة وغيرها إلى المدن الساحلية، ويأتون بالبضاعة التي يجلبها الفينيقيون من مدائنهم بالشام -أولاً- ثم من قرطاجة -فيما بعد- ويبيعونها لسكان الصحراء كالزنوج والأثيوبيين وغيرهم، فأثروا ثراءً فاحشاً جرّاء ذلك.

ومن جهة ثانية، فقد كان الليبيون يستوردون الأسلحة والأدوات المعدنية والأقمشة والأواني الخزفية والزجاجية، والحاجيات الأخرى التي كان الليبيون عاجزين عن صناعتها. لقد كانوا يحصلون على المنسوجات والأواني المعدنية والسيوف عن طريق الاتجار مع شعوب البحر خاصة الشرادنة. ومن المرجّح أن العلاقات التجارية ظلت نشطة بين ليبيا والشام، يدلّ على

---

(35) كثير من المصادر ذكرت هذه الأنشطة، مثل هيرودوتس وسترابو وبيتس والبرغوثي وغيرهم.

(36) أنظر قوائم تلك المواد في: شيمي، محمد عبد الحميد: **العطور ومعامل العطور في مصر القديمة**، ترجمة: ماهر جويجاتي، ط1، 2005، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة/ مصر، ص ص200-230.

ذلك التماثل بين الأواني المعدنية التي استولى عليها (سيتي الأول) من الليبيين، وبين الأواني التي استولى عليها (رعمسيس الثاني) من الآسيويين، وكلا المنظرين مصوّر على جدران معبد الكرنك[37]. وشيوع استعمال الأواني والسيوف والشفرات المعدنية بأعداد كبيرة، فضلًا عن ثروات الحكّام أنفسهم من ذهب وفضة ونحاس وقطعان الماشية، يشير إلى أن الشعب الليبي ظل ينعم باقتصاد مزدهر رغم فترات الجفاف التي كانت تطول أحياناً حتى تدفعهم إلى الهجرة في اتجاه مصر بحثاً عن الزرع والماء.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية (العادات والتقاليد):

1- المرأة وعادة الزواج:

هيرودوتس أفضل من تحدث عن عادات وتقاليد قدماء الليبيين في تاريخه، فلنتركه يصف بعض تصرفات أفراد القبائل الليبية في عهده[38]، مع الاستفادة من هوامش المترجم، وإيراد بعض التعليقات الضرورية قدر الإمكان:

يقول عن نساء قبيلة (الأديرماخيداي) التي تمتد من مصر إلى سيدي البراني، أنهن يطلن شعورهن، وإذا أمسكت الواحدة منهن قملةً تقضمها وتلقيها على الأرض، وهن فقط من يفعل ذلك من بين الليبيات الأخريات. وأفراد هذه القبيلة يُقدّمون العذارى المقبلات على الزواج إلى الملك لفض بكارة من تُعجبه منهن. وكذلك قبيلة (الغيلغامي) التي تمتد من

---

(37) تاريخنا: **مصدر سابق**، ص142.

(38) نكتفي بالإشارة إلى تاريخ هيرودتس: ، ترجمة: د. محمد المبروك الذويب: **مصدر سابق**، صفحات متفرقة.

الأديرماخيداي إلى جزيرة كرسة شمال غربي درنة، فهي تستعمل نفس عادات الآخرين. أما قبيلة (الأسبيستي) التي تسكن وراء قورينا ولا تصل إلى الساحل، وكذلك قبيلة الأوسخيزي التي تصل إلى الساحل عند بنغازي، فيحاول أفرادهما تقليد العادات القورينية.

ويبالغ هيرودوتس في الحديث عن عادة التزاوج عند قبيلة (النسامونس) حول خليج سرت، فيقول أن لكل واحد منهم عدة زوجات، ويجعلون معاشرتهن مشتركة بينهم، حيث ينصبون عصا أمام المكان ويتعاشرون، وعندما يتزوج الرجل لأول مرة فإن العروس تضاجع كل المدعوين مقابل هدايا. وبالرغم من أن هذه العادة قد عُرفت عند العديد من المجتمعات القديمة إلاّ أننا لا ندري ما دوافع اشتراكية المعاشرة ما دام العرف يسمح بتعدد الزوجات؟ ولكن هيرودوتس يتعمّد أحياناً إهانة الشعوب غير الإغريقية، إذ نجده على النقيض من ذلك فيذكر أن النسامونس يقسمون بوضع أيديهم على قبور أولائك الرجال الذين يُقال عنهم أنهم أعدل وأفضل من الآخرين، ويؤكدون القَسم بأن يسقي الواحدُ صاحبَه من يده ويشرب هو من يد صاحبه، وإذا لم يجدوا سائلاً يأخذون تراباً من الأرض ويلعقونه، ونعتقد أن ذلك يدل على المصداقية وحسن النية فكيف يرضون بذاك الزواج المشين والمنافي للأخلاق وبتلك الصورة البشعة حتى وإن كان في زمن لم يُقنّن فيه الزواج بالصورة التي عليه الآن. ويكرّر هيرودوتس نفس الكلام تقريباً عن قبيلة (المكاي)، إذ يقول أن الواحدة من النساء تضع حلقةً معدنيةً حول كاحلها عن كل رجل تعاشره، والتي لديها حلقاتٌ أكثر يُنظر إليها بأنها الأفضل لأنها الأحب لكثير من الرجال، ولا ندري كم يتحمل كاحل المرأة من حلقات معدنية عريضة تساوي عدد الرجال المعاشرين لها؟

أما أفراد قبيلتي (الماخيلي) و(الأوزينس) المحيطين ببحيرة تريتونس (شط الجريد) فيقيمون حفلاً سنوياً على شرف آلهتهم (أثينا)، إذ تنقسم عذاراهم إلى فريقين يحارب أحدهما الآخر بالحجارة والهراوات، ويقولون إنهم يؤدون ذلك وفقاً لعادة محلية، ويُعدّون الفتيات اللاتي يمتن نتيجة الضرب غير عذارى. وهذا يعني أنهم كانوا مهتمين بالحفاظ على الشرف وحريصين

على احتفاظ فتياتهم ببكارتهن، ولكن هيرودوتس يناقض نفسه ويقول بأن أفراد قبيلتي الماخيلي والأوزيس يجعلون النساء مشتركة بينهم ولا يتزوجون بل يعيشون كالحيوانات، وعندما يكبر الطفل لأي امرأة فإن الرجال يجتمعون في الشهر الثالث في مكان ما، وإذا شابه الطفل أحداً من الرجال فإنه يُعدّ ابناً له.

ومسألة تعدد الزوجات عند قدماء الليبيين أكّدها أيضاً الكتّاب اللاتينيون والبيزنطيون فيما بعد، وذلك مثل (سلّوست **Sallust**) الذي قال بأن الرجل الواحد منهم "**يستطيع أن يقتني أي عدد يريد من الزوجات ما دام متناسباً مع قدرته على إعالتهن**»[39]. أما (بروكوبيوس **Procopius**)، فاستشهد برد الرؤساء الليبيين على القائد البيزنطي (سليمان **Solomon**) عندما هدّدهم بقتل رهائنهم لديه، فكان جوابهم: "**إنه يتحتّم عليك، أنت الذي لا يستطيع أن يتزوّج أكثر من واحدة، أن تقلق بشأن ذريتك، أما نحن الذين يستطيع الواحد منا أن يتزوّج أكثر من خمسين زوجة إن شاء، فإنا لا نخشى أن تنقطع ذريتنا**»[40]. إلّا أن الملحوظ من مثل هذه الأقوال أنها تنقل الواقع كما هو دون ورود أي تعليق بقصد الإهانة، وذلك عكس ما فعله الكتّابُ الكلاسيكيون عندما اتهموا قدماء الليبيين بالإباحية الجنسية، وقد علّقنا على هذه المسألة عند ذكرها بالفقرات السابقة. وقد وجدنا تأييداً فيما ذهبنا إليه عندما اطلعنا على مناقشة (أورك بيتس) لهذا الموضوع، وهو يتحدّث عن عقاب الفتاة التي تفقد بكارتها بالموت كدليل على العفّة والطهارة الجنسية لدى الأنثى، وعلّق بالقول: "**إن أناساً يتصفون بهذه الأوصاف لا ينطبق عليهم ما قاله عنهم هيرودوتس**»، كما أن

---

(39) البرغوثي: **مصدر سابق**، ص 148.

(40) البرغوثي: **نفس المصدر**، نفس الصفحة.

بيتس أرجع ذلك أيضاً إلى «**نمط من أنماط الحفاظ على قرابة الدم الذي كان شائعاً في شمال أفريقيا حسبما تتفق عليه الأسر ضمن نظام القبيلة**»[41].

وفي المقابل نجد المرأة في النظام الاجتماعي الليبي القديم أنها كانت تتمتع بمكانة مرموقة، إذ يكفيها شرفاً "**أن نظام الإرث القائم على جهة الأم كان شائعاً بين سكّان الشمال الأفريقي البدائيين**»[42].

2- عادة الإسكان:

المساكن عند قبائل النسامونس تكون مصنوعة من سنابل القمح وغيره، يلقونها حول أغصان السمار، وهي قابلة للنقل. وأما قبائل الأوزينيين، وهم من الفلاحين الليبيين، كانوا أيضاً يبنون مساكنهم على أرضهم الجبلية الغابية المليئة بالوحوش. ويقول سترابو في جغرافيته أن الفاروسيين كانوا يربطون قرب الماء تحت بطون الخيول، وكثير منهم يسكن مثل سكان الكهوف، حيث كانوا يحفرون بيوتهم في الأرض[43]. ولا بد من الإشارة إلى ما ذُكر سابقاً حول الفاروسيين (الفرسان) وكذلك الجاتوليين (المقاتلين) بأنهما كانا من فرق الفرسان والمقاتلين المنضوين تحت لواء الطبقة الارستقراطية الجرمنتية المسيطرة على الجنوب الليبي (إقليم فزان) في حدود الألف الأول قبل الميلاد، ثم زحف جزءٌ منهم -رويداً رويداً- إلى جهة الشمال

---

(41) Bates: Op. Cit, p p 110111-.

(42) البرغوثي: مصدر سابق، ص150.

(43) سترابو: **الكتاب 17 من جغرافية ترابيون**، نقله عن الإغريقية: د. محمد المبروك الدويب، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا، ط1، 2003 ص100.

الغربي ودخل بعضُهم في جيش حنبعل عند حملته الشهيرة على روما. وعادةُ حفر المساكن في الأراضي الجبلية لا تزال متبعةً في ليبيا لوقت قريب، ولعل مساكن غريان وغيرها من مدن الجبل الغربي تكون خير دليل على ذلك.

وعندما كان الجاتوليون في الجنوب الليبي، وهم مجاورون للجرمنتيين والأثيوبيين، كانوا متقشّفين جداً في حياتهم وملابسهم ومساكنهم، ويتغذّون على لحوم الخراف وألبانها، شبّههم سترابو بالبدو الرعاة العرب، وقال أن لهم زوجات متعددة وأطفال كثر، وكانوا يربّون الخيول، ويصل عدد المهر عندهم مائة ألف سنوياً.

3- عادات اجتماعية عامة:

اشتهر سكّان الكهوف من الأثيوبيين بسرعة الحركة والجري حتى أن الجرمنتيين لا يلحقون بهم بغير استعمال العربات التي تجرها الخيول. ويقول عنهم هيرودوتس بأنهم كانوا يتغذّون على الثعابين والسحالي وما يشبهها من الزواحف. وليس عندهم لغة بل يزعقون كالخفافيش. فأما أكل الثعابين وبعض الزواحف فهي عادة بقيت عند البدو الليبيين إلى زمن ليس ببعيد، ربما إلى الآن، ولكن بدوافع علاجية تدخل ضمن الطب الشعبي. وأما اللغة التي من الطبيعي لم تكن مفهومة من قبل الإغريق، مثلها في ذلك مثل لهجات كل الليبيين الآخرين، لا يمكن أن تكون زعيقاً بل ربما كانت تشبه الصفير الذي عُرف في لغة أسلاف التبو الحاليين.

أفراد قبيلة (أطلس) التي سكنت المناطق الحارة، ربما تكون منطقة غات أو بين تشاد ونهر النيجر أو الهجار، كانوا يلعنون الشمس عندما تبلغ أوجّ حرارتها، ويوجّهون لها أقذع السباب، لاعتقادهم بأنها تحرقهم وتحرق أرضهم. ويقال أنهم لا يأكلون أي كائن حي، أي

أنهم كانوا نباتيين، رغم أن مناخهم الحار قد لا يتيح لهم الكميات الكافية من الغذاء النباتي، وأن أسلافهم كانوا يعتمدون على صيد الحيوانات في غذائهم. ويقال أنهم لا يحلمون في نومهم، ولا ندري كيف يُعرف النائمُ هل هو في حالة حلم أو في حالة إغماء تام يعطّل عقله الباطني؟ أما الليبيون البدو المتجوّلون في المناطق بين مصر وبحيرة تريتونس (شط الجريد) فهم من أكلة اللحوم وشاربي الألبان، ولكنهم لا يأكلون لحم إناث البقر ولا يربّون الخنزير.

ويمارس كثير من الليبيين، خاصة البدو، عادة كي عروق رؤوس أبنائهم أو أصداغهم باستعمال دهن صوف الغنم عندما يبلغون الأربع سنوات، وذلك حتى لا يستمر نزول البلغم من الرأس طيلة الوقت ويلحق بهم الضرر. وإذا تألم الطفل أو تشنّج نتيجة الكي يقومون بسكب بول جدي الماعز على المكان المكوي. وعادةُ الكي وسكب بول الحيوانات على الجروح بقيت عند بدو الليبيين لزمن قريب من الآن كنوع من العلاج الشعبي.

ومن عادات ذبح الحيوانات عند قدماء الليبيين البدو والرعاة، أنهم عند تقديم القرابين كانوا يقطعون أذن الأضحية، ثم يديرون رقبتها ويذبحونها، وهذا يعني أنهم يذبحون أضاحيهم لتتخلص من دمائها ولا يأكلونها ميتةً، أي أنهم أدركوا خطورة الدم قبل أن تحرّمه الأديان السماوية.

4- نظام الحكم:

لم يتسنّ لقدماء الليبيين في العصور القديمة الاستقرار وتنظيم الحياة السياسية المستقرة وبناء الدول الثابتة، وذلك لعدم وجود مصادر مياه دائمة كالتي في مصر وبلاد الرافدين. وبعد انتهاء عصر البليستوسين المطير وحلول عصر الهولوسين الجاف، بدأ قدماءُ الليبيين يحثون

عن أماكن الاستقرار وإقامة نظم اقتصادية يستقرّون بواسطتها ويثبتون عليها في مكان واحد، إلى أن حصلوا على موطأ قدم لهم في وادي النيل فأشبعوا فيه غريزة الحكم والتسلط، وذلك عندما أتيح لهم تقلّد المناصب الدينية والعسكرية التي وصلوا من خلالها إلى اعتلاء عرش مصر، فصاروا من أشهر فراعنتها، خصوصاً مع بداية الألف الأول قبل الميلاد. وما عدا ذلك فقد كان نظام الحكم السائد بين قدماء الليبيين نظاماً قبلياً كالذي كان يحكم القبائل العربية البدوية في عصرهم الجاهلي، إذ كانت رئاسة القبيلة منصباً وراثياً في الأسرة الحاكمة، وكان رئيس القبيلة يُختار لالتزامه جانب العدل في حياته وتصرفاته، وتستطيع القبيلة عزله إذا ما أثبت عكس ذلك. وكان يساعد رئيس القبيلة مجلسٌ مكوّنٌ من عشرة أشخاص. وكان لقبيلة الأوزيين مجلسٌ يضمّ جميع البالغين، وينعقد مرّة كل ثلاثة أشهر[44]. وتشير الوثائق المصرية إلى أن رؤساء القبائل الليبية من المرتبة العليا يتحلّون بريشتين، بينما يتحلى ما دونهم مرتبةً بريشة واحدة. إلى جانب ذلك فقد كان رؤساء القبائل يتميزون أيضاً بالوشم ولبس ذيول الحيوانات وارتداء الأردية الطويلة المزركشة والجلوس على الكراسي. وكان رؤساء القبائل الليبية يجمعون في أيديهم السلطتين الزمنية والدينية، إلى جانب تميّزهم عن بقية رعاياهم بالخصال السابق ذكرها.

وعندما توالت على ليبيا حضارات أجنبية كالإغريقية والرومانية صارت السلطة بيد الأجانب، وذلك مثل الذي حصل في قرطاجة (تونس) زمن الفينيقيين، وفي قورينا (شحات) زمن الأغارقة، وفي لبدة وأويا وسبراطة خصوصاً بعد وحدتها تحت مسمى (تريبولس : طرابلس) زمن الرومان. ومن أشهر وأوائل رؤساء القبائل الليبية القديمة المدوّن أسماؤهم في الوثائق المصرية، والذي يرقى إلى رتبة الملك والقائد العسكري: (مربي بن دد) عند تجاسره على احتلال مصر متحالفاً مع بقية القبائل الليبية الأخرى، ولكن محاولته أحبطت من قبل الفرعون (مرنبتاح) سنة **1227** ق.م. قبل وصوله إلى وادي النيل. وآخر إمبراطور روماني حكم شمال أفريقيا كان

(44) للمزيد يُنظر في: البرغوثي: **مصدر سابق**، ص ص147-152.

(غريغوريو) الذي أطيح به من قبل الفاتحين العرب في القرن السابع بعد الميلاد، حيث دُكّ معقله في اسبيطلة أثناء حملة العبادلة بقيادة عبد الله بن أبي سرح. أما في جرمة (في الجنوب) فكان للجرمنتيين نظامُ حكم أرستقراطي عسكري متميز استطاع الثبات عبر كل العصور سالفة الذكر إلى الفتح الإسلامي.

رابعاً: العلوم والثقافة العامة:

1- العلوم البدائية:

في العصر الحجري الحديث، وفي زمن اتخاذ الكهوف سكناً في أواخر عصر البليستوسين المطير، تمكن الإنسان الليبي القديم من استخدام عقله واستغلال إمكانياته الفكرية إلى أبعد مدى. حيث استخدم الأدوات الحجرية الميكروليثية الدقيقة التي تنمّ عن تطور في العقلية الصناعية، والدليل على ذلك نوعية النقوش والرسوم الصخرية التي أبدع سكّان الجنوب الليبي في إنتاجها، مستخدمين في ذلك تكنولوجيا الرسم والتلوين بالإمكانيات والأدوات والمواد البدائية المتوفرة لديهم، ولكنها بعقلية متطورة حسب زمانها ومكانها. ولعل تلك التجارب الرائدة أفادتهم كثيراً عندما تواجدوا بأعداد كبيرة في وادي النيل بمصر. وكان الدين والعقيدة وتأمين الغذاء الدوافع الأساسية وراء بعض الأفكار الميتافيزيقية، مثل نظرتهم إلى الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم والرياح والصواعق والأمطار وغيرها، ولعلهم توصلوا –من خلال ذلك– إلى طرق فهم فصول السنة وعدد الشهور والأيام، فسجّلوها بطريقة معقدّة على صفحات صخورهم (مثل لوحة الفتيات الأربع سالفة الذكر). كذلك الإيمان باليوم الآخر الذي دفعهم إلى التفكير في طرق الدفن والتفنن في مراسمه. ومن ثم تعددت عندهم العقائد وتنوعت الآلهة، وبدأوا يتلمسون الطريق نحو فلسفة الحياة والموت، فالحياة تحتاج لتدبير يضمن

الإشباع الدائم للحاجات الضرورية، والموت يحتاج لتدبير يضمن الحفاظ على الأرواح وحمايتها من أهوال المجهول، تلك هي مسيرة الإنسان في مرحلة البحث عمن أطعمه من جوع وآمنه من خوف.

وفي العصر الفينيقي اختلط الليبيون الساحليون بإخوانهم الكنعانيين القادمين من جبال لبنان. وكغيرهم من شعوب المنطقة، استفاد قدماءُ الليبيين من تلك الحضارة الرائدة، ونقلوا عنها كثيراً من العلوم والمعارف في مجالات الصناعة والزراعة والتجارة والرحلات البحرية التي اشتهروا بها في العهد الليبونيقي (البونيقي). كما استفاد السكان الجنوبيون كالجرمنتيين وتوابعهم من التجارة الصحراوية مع القرطاجيين وأثروا ثراءً فاحشاً من جرائها، مما انعكس على حضارتهم الصحراوية المشهورة.

2- فلاسفة قورينا:

في العصر الكلاسيكي كانت الفلسفة، وهي محبة الحكمة، تشكّل دليلا على ثقافة وتطور الشعوب، وكان الإغريق أول من ارتاد تلك المعارف، فنقلوها -بدورهم- إلى غيرهم من شعوب المنطقة. وعندما بلغت قورينا (شحات حاليا) أوجَّ حضارتها، اشتهر فيها عددٌ من الفلاسفة والشعراء والأدباء الذين يمكننا اعتبارهم ليبيين بعد أن صاروا من مواطني المدن الخمس القورينية بالجبل الأخضر (برقة) دون التفريق بينهم وبين الإغريق المحتلين للمنطقة منذ سنة **631** ق.م. يقول سترابو في جغرافيته[45] أنه من بين القورينيين الذين صاروا مشهورين: الفيلسوف السقراطي (آريستيبوس) مؤسس الفلسفة القورينية، وابنته (آريتي) التي خلفته، والتي خلّفت -بدورها- ابنها في رئاسة تلك المدرسة الفلسفية (ميتروديداكتوس)، و(آنيكيريس)

(45) سترابو: **نفس المصدر**، ص ص118-119.

الذي أراد إصلاح المذهب القوريني. كذلك كان في قورينا عالمان وأديبان قورينيان مشهوران، وهما (كاليماخوس) و(إيراتوسثينيس) وكلاهما شُرِّفا من قبل ملوك مصر. كذلك (كارنياديس). أما (كرونوس آبوللونيوس) القوريني فكان أستاذ (ديودوروس الجدلي) عالم المنطق المشهور والملقّب بـ(كرونوس)، وكثيرون غيره ممن نقلوا صفة المعلّم إلى التلميذ.

3- محاكمة صبراتة (الأبولوجيا):

تعود قصة محاكمة صبراتة إلى ما بين سنتي 156 و158 بعد الميلاد[46]، وبطلها (أبوليوسApuleius) القادم إلى مدينة (أويا Oea) من مسقط رأسه (مدورا Madaura) بين (تونس والجزائر حالياً). وفي أويا تزوج من سيدة أرملة ثرية تُدعى (بودنتيلا -Puden tilla)، فقام أفراد أسرتها (عائلة سقينيوس Sicinius) برفع قضية ضده في محكمة (صبراتة Sabratha)، واتهموه بالسحر والشعوذة والتأثير على ابنتهم طمعاً في ثروتها التي تركها لها زوجها. وكان أبوليوس فيلسوفاً له كتابات أدبية في الفلسفة تطرّق فيها للسحر، فكان ذلك بمثابة الحجة التي استندت عليها صحيفة الادعاء ضده، من جهة، ومرجعاً أساسياً في صحيفة الدفاع التي أعدّها أبوليوس، من جهة ثانية.

هذه القصة تناولها المؤرخون الأوروبيون من جانب كونها حدثاً مهماً في التاريخ الروماني، وبالذات في عهد الإمبراطور (هادريان). كما تناولها المؤرخون المحليون من جانب كونها تتعلق بشخص ولد في مدينة مدورا على نهر مجردة بين تونس والجزائر. وفي كلا الحالتين أغفل الجانبان -الأوروبي والمحلي- الأماكن الرئيسية الأكثر إثارة وأهميةً في القصة، وعلى سبيل

(46) خشيم، علي فهمي: دفاع صبراتة، ط1، ؟، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس/ ليبيا، ص11.

المثال يذكر الأوروبيون (الحاكم المحلي The Provincial Governor) بدلاً من (حاكم أويا) وهو (كلوديوس ماكسيموس) الذي ترأس المحكمة، ويذكرون مدينة صبراتة -مسرح المحاكمة- دون تحديد موقعها كونها غربي مدينة أويا (في الإقليم الطرابلسي). ولكنهم يعترفون بأن دفاع أبوليوس (أبولوجيا The Apologia) تركت أثرها القانوني منذ عهد (هادريان) إلى أن اكتملت بين سنتي 529 و533 م) وباتت تُعرف بقوانين (جوستنيان) و(ثيودوسيوس) و ذلك في الفقرات المتعلّقة بحقوق الإرث والتركات الزوجية (Codex and Digest of Justinian and Theodosius)[47].

وقصة (أبولوجيا) الصبراتية تطلعنا على بعض الحقائق، منها أن سكّان مدينة أويا في عهد الإمبراطور هادريان لا يزالون على أصالتهم الأولى ولم يتأثروا كثيراً بالثقافة الرومانية، فهذه (بودنتيلا) تتحدث عن نفسها فتقول: "**أنا مثقفة جدّاً، ويمكنني التحدّث والكتابة باللغة الإغريقية، الحقيقة أفضل من أفراد أسرتي الذين يتمسّكون باللغة البونيقية**»[48]، علماً بأن أسرة بودنتيلا كانت من أعرق وأغنى الأسر بمدينة أويا، ولم تكن مثل غيرها من الأسر الطارئة أو المستوطنة حديثاً بتلك المدينة التي يحكمها الرومان منذ عهد يوليوس قيصر. ومن خلال المرافعة الطويلة التي تليت بمحكمة صبراتة أمام القاضي (مكسيموس) حاكم مدينة أويا، يعترف أبوليوس بأصله فيقول: "**أما بالنسبة لبلدي ومسقط رأسي وتبيانك أنها تقع على تخوم نوميديا وغايتوليا**»[49]، فأما (نوميديا) معروفة بأنها المنطقة التي تقع بين غربي تونس

---

(47) Pollard, Elizabeth: **Money in the Apologia**, George Town's University (website), 2008.

(48) **Pudentella speaks**, George Town's University (website), :? 2008.

(49) خشيم: **مصدر سابق**، ص87.

وشرقي الجزائر الحاليتين، وأما (الغايتولي) فهي قبائل كانت تعيش في الأساس بجوار الجرمنتيين فإقليم فزّان، ثم زحفت نحو الشمال الغربي فاستغل (حنا بعل) قوّتها وبأسها وجنّد منها الرجال والفرسان في حملته المشهورة على روما. ورداً على خصمه الذي اتهمه بنظافة أسنانه -ربما كان ذلك في إطار اتهامه بالسحر- أجاب أبوليوس بأن مادة تنظيف الأسنان (dentifricio) كانت تأتي من بلاد العرب على هيئة "**مسحوق صُنع من عقاقير عربية**»[50] أي لا علاقة لها بالسحر.

(50) خشيم: نفس المصدر، ص53.

الخاتمة

1- الخلاصة:

حاولنا في الفصل الأول من هذا البحث تتبع الأصول الأولى للإنسان الليبي القديم ومصادر تكوينه الأولى، ووصلنا إلى حقيقة انتمائه إلى الأصول الشرقية في وقت كانت فيه أوروبا مغطاة بالجليد، وذلك لدحض الادعاءات القائلة بمجيء بعض قدماء الليبيين من أوروبا عن طريق مضيق جبل طارق. كما رسمت لنا مسارب التاريخ طريق الهجرات الكنعانية في وقت لاحق عبر برزخ السويس، ثم الهجرات العربية الجنوبية عبر منفذ باب المندب، حتى اكتمل التواجد البشري على هذه الرقعة بصورة تراكمية وعلى مدى آلاف من السنين سابقة للعهد المسيحي وبضعة قرون سابقة للعهد الإسلامي، ثم تُوجت أخيراً بهجرات القبائل العربية الحجازية من بني سُليم وبني هلال، فاكتمل تعريب المغرب العربي الكبير كما يقول كثير من المؤرخين.

وفي الفصل الثاني تعرضنا للحضارات التي أقامها قدماء الليبيين منذ أن سكنوا كهوف الجبال خلال عصر البليستوسين المطير، تلك الجبال التي احتفظت بآثار كشفت عنها الحفريات الحديثة والتي سجلت معالم الحضارات الليبية الأصيلة التي لا دخل لغير قدماء الليبيين فيها، فاعتبرناها حضارة محلية لم تتأثر بغيرها بل أثّرت في غيرها حسب اعتراف العديد من العلماء الأجانب الذين مسحوا بعضاً من المواقع الأثرية، وبقي الكثير منها مغموراً تحت الأرض ينتظر من يزيح عنه الكثبان الرملية المتراكمة بفعل التصحر والتغيّر المناخي الذي ابتلي به جنوب ليبيا منذ بداية عصر الهولوسين الجاف والحار إلى الآن. ثم عرّجنا في الفصل الثالث على الحضارات الدخيلة التي قامت في ليبيا بفعل الاحتلال الأجنبي والذي بدأه الإغريق في منطقة برقة، وذلك

قبل أن تكتسح البلاد جحافل الجيش الروماني بعد سقوط قرطاجة عاصمة الحضارة البونيقية التي أقامها الفينيقيون الكنعانيون في الشمال الأفريقي. وقد اعتبرنا هذه الحضارة بمثابة حضارة دخيلة تأصلت، وذلك بفضل الاندماج الكامل الذي حصل بين الفينيقيين وقدماء الليبيين منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى سقوط قرطاجة في عام 146 قبل الميلاد، واستمر بعده إلى دخول الوندال إلى البلاد فاتخذ تاريخ المنطقة مساراً آخر مختلفاً تماماً عن كل الفترات السابقة.

أما الفصل الرابع فقد خصصناه لعلاقة قدماء الليبيين بالشرق العربي، خصوصاً في الفترة التي بدأت فيها أرضهم تتعرض للتصحر والجفاف وشح الأمطار، فطفقوا يبحثون عن مصادر عيش جديدة، ولم يكن أمامهم ملجأ غير وادي النيل دائم الجريان. وحول هذا الوادي كان الصراع على أشده، حيث كان قدماء الليبيين يتهافتون عليه بالحرب تارة وبالهجرة السلمية تارة أخرى، حتى تمكنوا من التغلغل في الجيش المصري ورئاسة الكهانة، ثم أخيراً اعتلوا العرش، وواصلوا مسيرة أسلافهم في امتلاك أراضي الأمصار القريبة، فكانت فلسطين والشام عموماً وجهة فراعنة مصر الليبيين. ولعل شيشنق الأول وحملته الشهيرة على بيت المقدس وإنهاء سيطرة اليهود عليه أعظم حدث قام به قدماء الليبيين في الشرق.

وحتى تكتمل الصورة أمام القارئ، حاولنا استعراض أهم مقومات الحضارات الليبية القديمة، فخصصنا الفصل الخامس للغة التي كانت سائدة وقتذاك، والتي انتهى العمل بها في الفترة الواقعة بين العهد الروماني والعهد البيزنطي، فبقيت تلك اللغة متداولة بين قدماء الليبيين على هيئة لهجات متعددة عُرفت فيما بعد باللهجات البربرية أو الأمازيغية لدى سكان المناطق الجبلية والساحلية في الشمال أو التماشق لدى التوارق سكان الصحراء الليبية في الجنوب. ثم كان الفصل السادس متمماً لسابقه، فاستطلعنا فيه الكتابة التي استخدمها قدماء الليبيين، والتي بقيت هي الأخرى لوقت ليس ببعيد مستخدمةً لدى التوارق تحت مسمى كتابة التيفيناغ.

وكان لقدماء الليبيين اهتماماتهم الخاصة بالمجالات الدينية والبحث عمن أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فتأملوا الطبيعة واستنبطوا مناهج مختلفةً للعبادة وطرقاً عديدةً للدفن وغير ذلك كثيراً من التصرفات والسلوك الروحاني الذي رأوه يحقق لهم الاتصال بالخالق حسب أفكارهم البدائية الساذجة. وكان لقدماء الليبيين دور ريادي في فلسفة الدين المسيحي خاصة وأن أحد رسل عيسى عليه السلام من أصول ليبية، فانتشرت المسيحية بواسطة القساوسة الليبيين في كل من الصحراء الأفريقية ومصر، خاصة بعد تأسيس أولى الكنائس المسيحية بالإسكندرية على يد الرسول مرقس القوريني. ولعل الفكر الأريوسي الذي انتشر في ليبيا ومصر كان بمثابة التمهيد الطبيعي لاعتناق الإسلام من قبل القبائل الليبية الشرقية عند أول وهلة قدم فيها الفاتحون إلى برقة بقيادة عمرو بن العاص.

وأخيراً كان الفصل الثامن مخصصاً لاستعراض الفنون والثقافات التي مارسها قدماء الليبيين، كدليل على الترف الحضاري الذي ارتادوا مجالاته وأبدعوا في تفاصيله، فكان الناي أقدم آلة موسيقية عرفها العالم بأسره قد عُثر عليه في ليبيا، كما سجلت الوثاق المصرية القديمة ممارسة قدماء الليبيين لفنون الرقص والغناء وقرع الطبول ونفخ المزامير، كدليل على اهتمامهم بالفنون إلى جانب اهتماماتهم الدينية والعسكرية التي اشتهروا بها أثناء تواجدهم في مصر.

2- الخاتمة:

لا نعتقد أننا أعطينا تاريخ الحضارات الليبية القديمة حقه كاملاً خلال هذا السرد الذي لا يمكننا وصفه بأكثر من مقتضب، ولكننا مقتنعون بأننا وضعنا عناوين لبحوث مستقبلية قد تستفز شبابنا وتحفزهم لمزيد من البحث والتحري والخوض في تاريخ بلادهم، في زمن أهمل فيه إخواننا العرب تاريخ هذا الجزء الهام من الوطن العربي، واعتبروا أن ليبيا (الحالية) لم تكن غير معبر للحضارات وممراً لبناة الحضارة العربية بين المشرق والمغرب، ولم يركّزوا على الانبعاث الحضاري الذي انطلق من هذه الرقعة المتوسطة التي كانت على الدوام مركز اتصال حضاري ليس بين الشرق والغرب فحسب وإنما بين الشمال والجنوب أيضاً، مع الأخذ في الاعتبار الخصوصية التي طبع بها قدماء الليبيين حضارتهم المحلية. وعندما نخصص الحديث عن تاريخ الحضارات القديمة التي قامت في ليبيا الحالية، لا نقصد بأي حال من الأحوال المساس بتاريخ الأقطار المجاورة التي اتخذت في عصرنا هذا أسماءً ومسميات مغايرة لما كان في السابق، وإنما قصدنا ملءَ الفراغات التي تُركت بحسن نية، وتكملةَ النواقص التي أُغفلت بعدم دراية، حتى يتمكن جميعنا من كتابة تاريخ متكامل لا تشوبه الفراغات والنواقص. ومن جانبنا، علينا واجب إبراز مساهمة قدماء الليبيين في إثراء الحضارة الإنسانية عموماً والحضارة العربية بصورة خاصة، والله من وراء القصد.

أهم المصادر

أولا: المصادر العربية:

* إبن عذاري المرّاكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، ط2، 1980، دار الثقافة، بيروت/ لبنان.

* إبن منظور: **معجم لسان العرب المحيط**، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، ط؟. بيروت/ لبنان، دار لسان العرب، ؟.

* الأثرم، د. رجب عبد الحميد: **دراسات في تاريخ الإغريق وعلاقته بالوطن العربي**، ط2، 2001، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا.

* بازاما، محمد مصطفى: **تاريخ ليبيا**، ج1، ط؟، 1971، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي/ ليبيا.

* البرغوثي، د. عبد اللطيف محمود: **التاريخ الليبي القديم**، ط1، 1971، دار صادر، بيروت/ لبنان.

* بن مسعود، محمد: **تاريخ ليبيا القديم والعالم قبل الفتح العربي**، ط2، 1963، مطابع الوفاء، بيروت/ لبنان.

* تشايلد، غوردن: **ماذا حدث في التاريخ**، ترجمة: د. جورج حدّاد، ؟، الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/ مصر.

* توينبي، أرنولد: **تاريخ البشرية**، ترجمة: د. نقولا زيادة، ج1، ط؟، 1981، الأهلية للنشر والتوزيع،

بيروت/ لبنان.

* جوليان، شارل أندري: **تاريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب: محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط؟، 1969، الدار التونسية للنشر، تونس.

* الجوهري، د. يسري عبد الرزاق: **الإنسان وسلالاته**، ط8، 1991، منشأة المعارف، الإسكندرية/ مصر.

* حلاّق، د. حسّان: **العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، ط؟، 1986، الدار الجامعية، ؟.

* خشيم، د. علي فهمي: **آلهة مصر العربية**، ط1، ج1، طرابلس/ ليبيا، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، 1990.

* ــــــــــــــ: **دفاع صبراتة**، ط1، ؟، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس/ ليبيا.

* ــــــــــــــ: **سِفر العرب الأمازيغ**، ط1، 1995، مطبعة الفاتح، مصراتة/ ليبيا.

* ــــــــــــــ: **نصوص ليبية**، ط2، 1975، دار مكتبة الفكر، طرابلس/ ليبيا.

* دبّوز، محمد علي: **تاريخ المغرب الكبير**، ط1، 1964، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة/ مصر.

* الذويب، دكتور محمد المبروك: ترجمة **الكتاب الرابع من تاريخ هيرودوتس** ط1، 2003، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا.

* رايت، جون: **تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور**، تعريب: عبد الحفيظ الميار وأحمد اليازوري، ط1، 1972، دار الفرجاني، طرابلس/ ليبيا.

* روجرز، فرانسيس: **قصة الكتابة والطباعة**، ترجمة: أحمد حسين الصاوي، ط؟، 1969، مؤسسة فرنكلين

للطباعة والنشر، القاهرة/ نيويورك.

* زغلول، د. سعد: **تاريخ المغرب العربي**، ج1، ؟، دار المعارف.

* زكري، أنطوان: **مفتاح اللغة المصرية القديمة**، ط1، 2003، دار الآفاق العربية، القاهرة/ مصر.

* زودن، ف. فون: **مدخل إلى حضارات الشرق القديم**، ترجمة: د. فاروق إسماعيل، ط1، 2003، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق/ سوريا.

* سترابو، الكتاب 17 من جغرافية سترابيون، نقله عن الإغريقية: د. محمد المبروك الدويب، ط1، 2003، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي/ ليبيا.

* سعدي، د. عثمان: **عروبة الجزائر عبر التاريخ**، ط؟، 1982، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر/ الجزائر.

* سعيد، د. لؤي محمود: **الأصول المصرية الليبية للأرثوذوكسية، وأثرها على العالم المسيحي**، محاضرة مقدمة إلى ندوة (الجذور المشتركة للحضارات العروبية القديمة)، مجمع اللغة العربية بطرابلس ليبيا، 14-2009/06/17

* سليمان، د. عامر: **اللغة الأكدية (البابلية-الآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها**، ط2، 2005، الدار العربية للموسوعات، بيروت/ لبنان.

* السيوطي: **المزهر**، ج1، 1987، المكتبة العصرية، صيدا/ لبنان.

* شرف، د. عبد العزيز طريح: **جغرافية ليبيا**، ط3، 1996، مركز الاسكندرية للكتاب، الاسكندرية/ مصر.

* شيمي، محمد عبد الحميد: **العطور ومعامل العطور في مصر القديمة**، ترجمه: ماهر جويجاتي، ط1،

2005، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة/ مصر.

* صفر، أحمد: **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، ج1، ط؟، ؟، تونس/ تونس، دار النشر بوسلامة.

* الصويعي، د. عبد العزيز سعيد: **أصول اللغة الليبية القديمة**، ط1، 2003، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت/ لبنان.

* ______________: **أصول الحرف الليبي**، ط1، 1999، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة/ ليبيا.

* ______________: **محاضرات في تاريخ الحضارة الرومانية**، كلية الآداب (بدر) جامعة (الجبل الغربي)، ليبيا، بين سنتي 2009 و2010.

* ______________: **شيشنق الأول في الفكر الصهيوني المعاصر**، مخطوط تحت الطبع، دار الأصالة والمعاصرة، طرابلس، ليبيا، 2010.

* القشاط، د. محمد سعيد: **التوارق، عرب الصحراء الكبرى**، ط2، 1989، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء، طرابلس/ ليبيا.

* عصفور، د. محمد أبو المحاسن: **معالم حضارات الشرق الأدنى القديم**، ط؟، بيروت/لبنان، دار النهضة العربية، 1987.

* غانم، د. عماد الدين (إعداد): **الصحراء الكبرى** ط؟، 1979، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا.

* غوتييه أ. ف.: **ماضي شمال أفريقيا**، تعريب: هاشم الحسيني، ط1، 1970، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا.

* كامب، ج.: **البربر.. الذاكرة والهوية**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، تقديم: محمد الطاهر الجراري، ط1، 2005، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا.

* لوت، هنري: **لوحات تسيلي**، تعريب: أنيس زكي حسن، ط1، 1967، مكتبة الفرجاني، طرابلس/ ليبيا.

* مجموعة مؤلفين: **تادرارت أكاكوس.. الفن الصخري وثقافات الصحراء قبل التاريخ**، ترجمة: عمر الباروني وفؤاد الكعبازي، مراجعة: عبد الرحمن عجيلي، ط؟، 1988، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس/ ليبيا.

* مجموعة مؤلفين: تاريخنا، الكتاب الأول: **ليبيا من عصور ما قبل التاريخ حتى القرن السابع الميلادي**، ط؟، ؟، دار التراث، ؟.

* مجموعة مؤلفين: **ليبيا في التاريخ**، مؤتمر «ليبيا في التاريخ»، الجامعة الليبية، 1968

* محيسن، د. سلطان: **عصور ما قبل التاريخ**، ط؟، 2003-2004، منشورات كلية الآداب بجامعة دمشق/ سوريا.

* موري، فابريسيو: **حول تأريخ الرسوم الصخرية في الصحراء الكبرى**، ترجمة: مكاييل محرز، موسوعة الصحراء الكبرى، 1979، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس/ ليبيا.

* الميار، عبد الكريم: **دليل متحف شحات**،؟.

* النجار، عبد الوهاب: **قصص الأنبياء**، ط3، ؟، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

أ- كتب ورسائل:

* Bates, Oric: **The Eastern Libyans**, 1st edition, 1914, Macmillan and Co. limited, London.

* Erica Mary & Abdul Bari Khalil: **Libya, Down The Centuries**, 2006, Darf Publishers, Lodon-Tripoli-Cairo.

* Herodotus: **History of Herodotus**: Book IV, 3rd edition, Vol I, Henry Slatter, London, 1846.

* Hope, Colin A.: **Egypt and Libya, the excavations at Mut el-Kharab in Egypt's Dakhleh Oasis**, The ARTEFACT, volume 24, 2001, Melbourne, Australia.

* Franklin, Stephen E.: **Alignment of Hebrew, Egyptian and Assyrian Chronologies**, the Origin and Solution of the Problem, ?.

* Kent, Charles Foster: **One Hundred and Forty Places in Bible Lands**, Underwood and Underwood, New York, August 21, 1900.

* McBurney, C.B.M.: **Haua Fteah (Cyrenaica) and the stone age of the South-East Mediterranean**, Cambrige University Press, 1967.

* Mela, Pomponius: **Geographie**, traduite par Louis Baudet, Paris 1843, Livre I.

* Moyer, Colin Campbell: **The organisation of lithic technology in middle and early upper palaeolithic industries at the Haua Fteah, Libya**, dissertation submitted for the degree of Doctor of Philosophy presented to the Corpus Christi College, Cambridge, May 2003.

* Plinus, C. Secundus: **Natural History** (the thirty-seven books), translated by Dr. Philemon Holland, ed. 1601, George Barclay 1847-48, volume I.

* Romanelli, PIETRO: **La Tripolitania nel quadro della' archeologia Nord-Africa**, Historical Conference (LIBYA IN HISTORI), University of Libya, 16-23 March 1968.

* Russell, Michael: **Nubia and Abysinnia**, edition ?, HAPPAR & BROTHERS, New-Work, 1842.

* The New Testament, Internationaler Gideonbund in Deutshchland 2001.

* Wilson, Keven: **The campaign of pharaoh Shoshenq I in Palestine**, Bible interp.

ب- مواقع إلكترونية ودوريات:

* Australian National University Website.

* Encyclopedia Britanica Website.

* George Town›s University Website.

* International Herald Tribun, Paris, 1992, N° 33,884.

* Museums.ncl.ac.uk Website.

* Reshafim Website.

* Thestoneage Website.

* Touregypt Website.

* Wikipedia Encyclopedia Website.

فهرس المحتويات

الفصل السادس: الكتابة الليبية القديمة:

الفصل السابع: الأديان (من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام):

الفصل الثامن: الفنون والثقافة العامة (لمحات موجزة عن الحياة الاجتماعية اليومية):

كتب صدرت للمؤلف

1- **المخرج الصحفي**، 1979، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

2- **فن صناعة الصحافة، ماضيه وحاضره ومستقبله**، 1984، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

3- **المطابع والمطبوعات الليبية قبل الاحتلال الإيطالي**، 1985، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

4- **بدايات الصحافة الليبية (1866-1922)**، 1989، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

5- **الحرف العربي، تحفة التاريخ وعقدة التقنية**، 1989، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

6- **الإخراج الصحفي والتصميم بين الأفكار والأقلام والحواسيب**، 1998، دار الملتقى ودار الآن، لبنان وقبرص.

7- **أصول الحرف الليبي، تطور الكتابة عند قدماء الليبيين**، 1999، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ليبيا.

8- **أصول اللغة الليبية القديمة**، 2003، دار الملتقى للطباعة والنشر، لبنان.

9- **التيفيناغ، رحلة الحروف العروبية بين الكنعانيين والتوارق**، 2004، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، ليبيا.

10- **التيفيناغ، رحلة الحروف العروبية بين الكنعانيين والتوارق**، 2006، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا.

11- **رمال متحركة على الجليد** (في أدب الرحلات)، 2006-2007، اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام، ليبيا.

بحوث جاهزة للطباعة:

1- **الفرعون الليبي (شيشنق الأول) في الفكر الصهيوني المعاصر**، (من أصل رسالة ماجستير)، دار الأصالة والمعاصرة، طرابلس/ ليبيا.

2- **عروبة اللغة الليبية القديمة (مقاربة بين العربية والأمازيغية)**، (من أصل رسالة دكتوراه)، دار الأصالة والمعاصرة، طرابلس/ ليبيا.

3- **حديث الحل والترحال** (دراسة اجتماعية ثقافية لغوية تأثيلية تبحث في عادات البدو وتقاليدهم من خلال لهجاتهم، الصيعان أنموذجاً).

4- **Shishanq I[st] and his Afro-Asiatic Empire** (باللغة الإنكليزية).

5- **مخطوط: ملاحظات عن تاريخ الفتح الإسلامي للشمال الأفريقي (المغرب العربي).**

